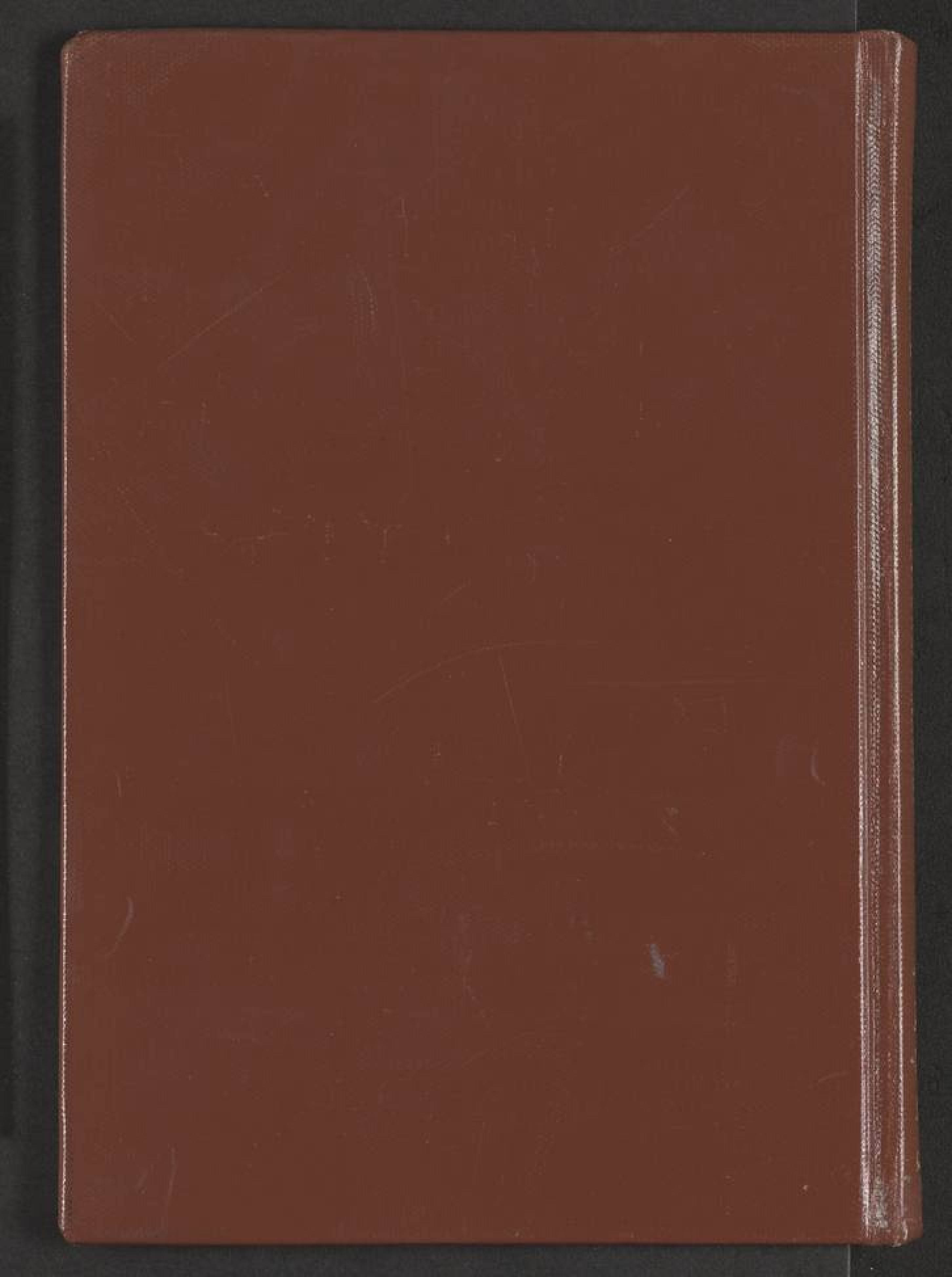
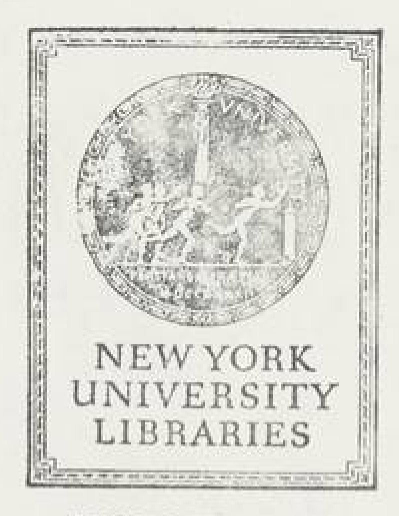
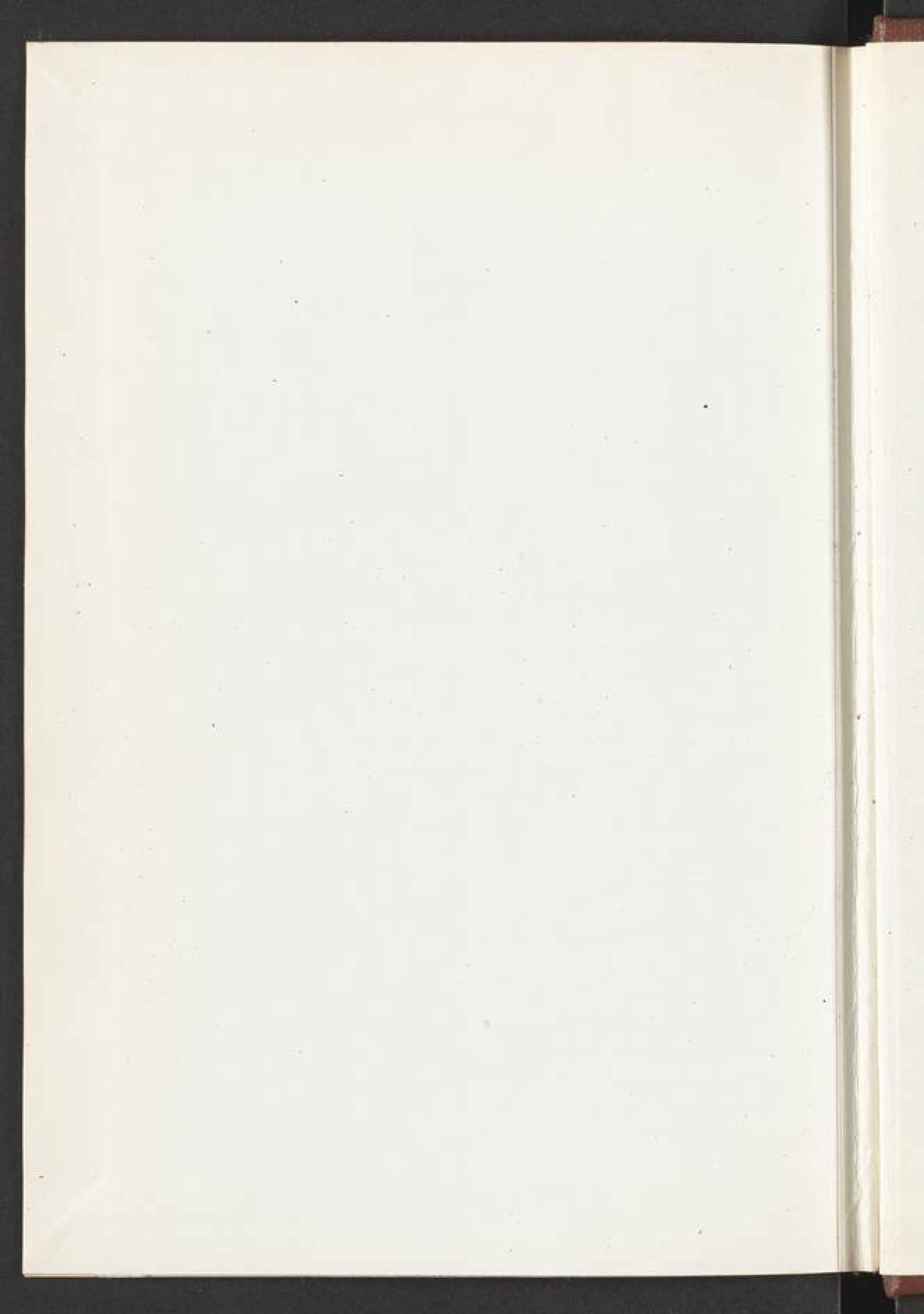
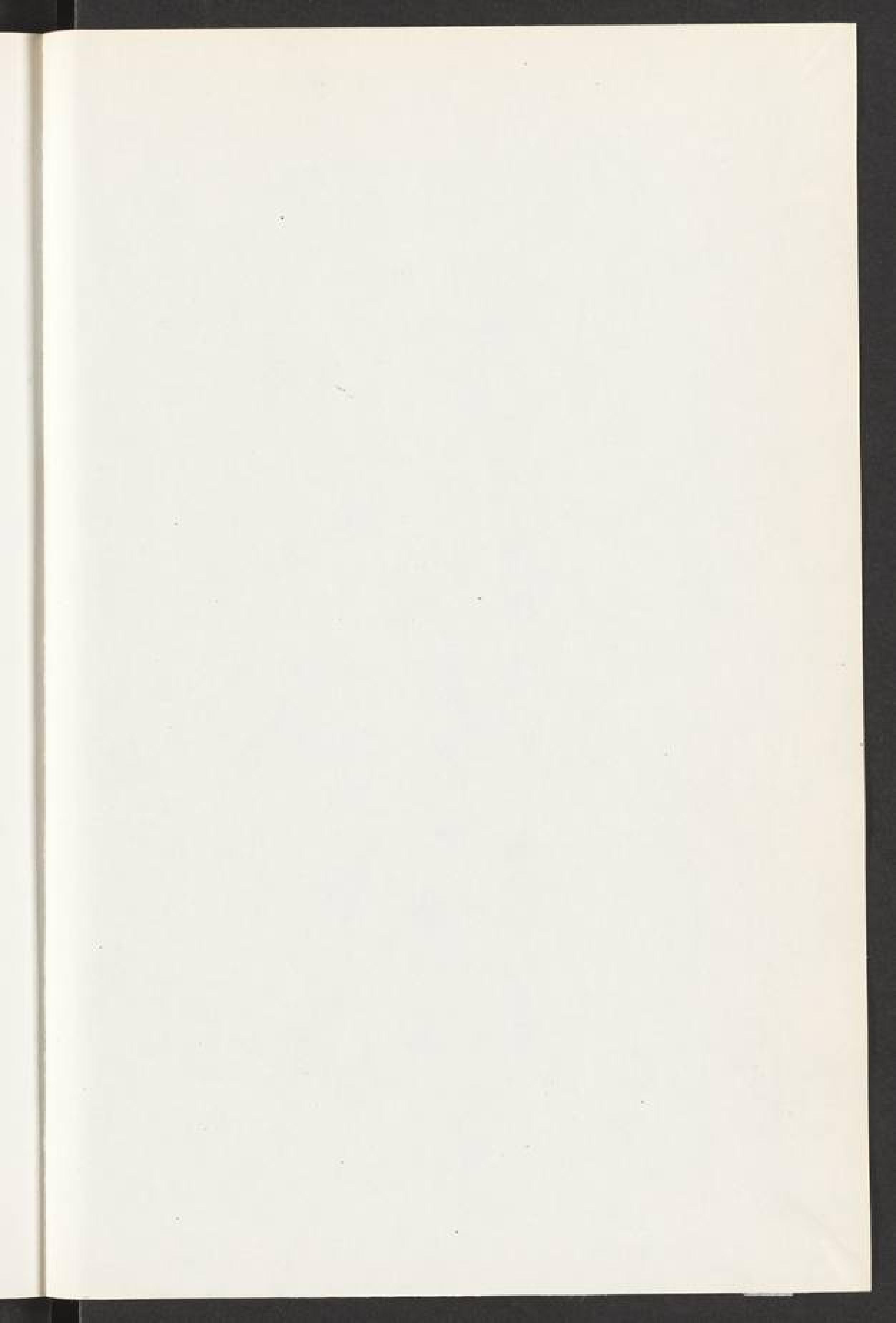
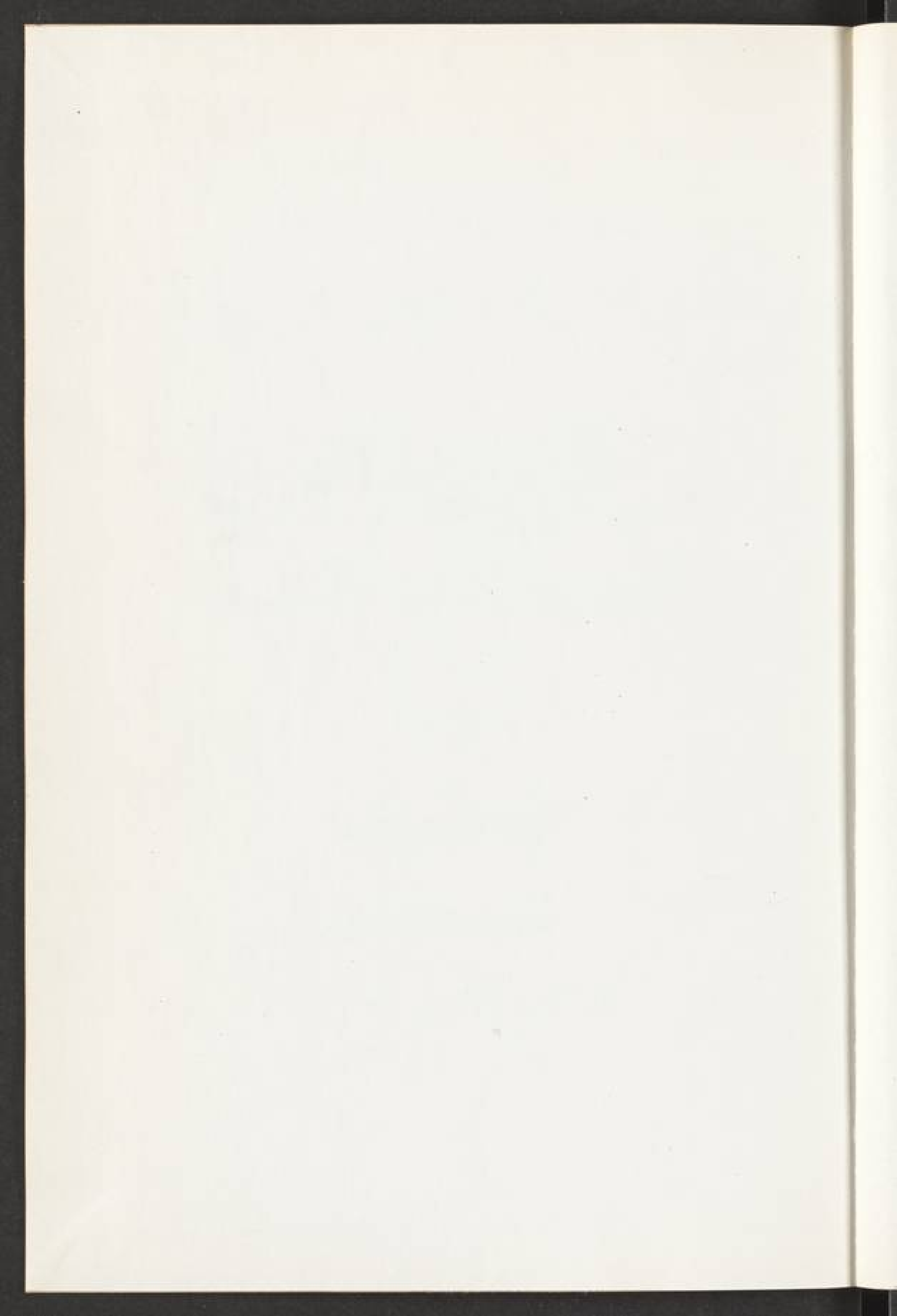












دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

مشاكل العالم العربي

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

تأليف

محمد عزة دروزه

نال الكتاب جائزة من الجامعة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

اقترحت الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية على كتاب العرب وضع رسالة في المشاكل التي تعوق المجتمع العربي عن التقدم في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والأخلاق . وقد كنا عقدنا الجزء السادس من كتابنا « حول الحركة العربية الحديثة » على حاضر الحركة العربية الحديثة ومستقبلها ومشاكلها ألممنا فيه بكثير من المشاكل التي تعوق المجتمع العربي عن التقدم في المجالات المختلفة المذكورة ، غير أن ابحاثه جاءت مقتضبة لأنه جاء خاتمة لسلسلة الكتاب ومعقباً على أجزائه السابقة .

وقد رأينا أن نستجيب الى اقتراح الادارة المشار اليها فاعدنا نظرنا في فصول الجزء السادس واستوفينا البحوث والفصول التي جاءت مقتضبة فيه ، وأضفنا اليها مواضيع لم نطرقها قبل ، فجاء كتاباً جديداً أرسلناه الى الجامعة فمنحته جائزة ، وطلبت طبعه ليستفيد منه العالم العربي .

وها نحن نلبي طلبها فنقدم الكتاب الى الطبع راجين أن يكون نافعاً للعالم العربي ، ووسيلة لشحذ همم الواعين من أبناء امتنا العزيزة حتى يمكن التغلب على مايعوق سير الامة العربية نحو أهدافها العليا التي يتحقق بها مانرجوه لها من الحياة الكريمة الماجدة .

إن مشاكل الامة العربية عديدة ومتنوعة ، وهي في ذات الوقت متداخلة متشابكة من حيث أن بعضها مؤثر ببعض ومتأثر من بعض . وسنتناول بحثها في نطاق فصلين رئيسيين **الأول** : المشاكل الاجتماعية والاقتصادية ، **والثاني** : المشاكل السياسية . ومن الله التوفيق .

الفصل الأول

المشاكل الاجتماعية والاقتصادية

مشكلة الجهل

-١-

هذه المشكلة تأتي في مقدمة المشاكل الاجتماعية العربية . فالجهل هو السبب الأقوى لما ترتكس فيه الأمة من فقر وضعف ومرض وفوضى وخمول وسوء أخلاق وأذواق ، ثم لما هو بارز من ضعف الانسجام والتماسك والاتساق من جهة والتفاوت العظيم بين طبقاتها من جهة أخرى .

وشرح ذلك مستغن عن الاسهاب . فان من تحصيل الحاصل أن يقال أنه كلما اتسع نطاق التعليم اتسع نطاق الوعي والتطور من مختلف النواحي ، وتقاربت الأذهان والأمزجة ، وانسجمت الأفكار واتسقت الأهداف والمقاييس والمفاهيم في مختلف الشؤون ، وبرزت مظاهر وحدة الأمة الشعورية والذوقية والثقافية والاجتماعية ، وأمكن التغلب على كثير من العادات والتقاليد والأخلاق والمظاهر والفوارق التي لا يمكن أن تستمر إلا في ظل الجهل وظلماته والتي هي من أعظم العثرات في طريق الصلاح الاخلاقي والاجتماعي والاقتصادي ، كما أمكن التهيء لقبول كل دعوة إصلاحية صالحة ، وتقوية الاستعداد للعمل والنشاط في سبيله ، وبعبارة ثانية أمكن تكوين مجتمع متمازج متسق الأفكار والأهداف والمقاييس

والعادات والتقاليد والمفاهيم ، واع لما يحيط به ، غير خامل في مجال العمل والكسب قابل للتقدم والتطور في كل مضمار صحي وعلمي وخلقي وقومي .

وقد بذلت جهود كبيرة في مختلف الأقطار العربية في سبيل معالجة هذه المشكلة حتى تضاعف عدد المدارس والطلاب أضعافاً كثيرة وصلت في بعض البلاد والحالات الى عشرين ضعفاً .

فقد كان عدد طلاب المدارس الحكومية على اختلاف درجاتها في مصر سنة ٩٢٠ – ٩٢١ (٩٤٠٧١) فغدا سنة ٩٤٧ – ٩٤٨ (١٫٠٨٢٧٨٤) . وكان عددهم في سورية (١٧٥١١) فغدا (١٥٥١٤٨) ، وكان عددهم في العراق (٧٦٢٧) فغدا (١٥٥٩١٢) ، وكان عددهم في الأردن الشرقي (٣٣١٦) فغدا (١٢١٢٠) على مايستفاد من الدراسات والاحصاءات .

-٢-

غير أن هذه الجهود لم تخفف كثيراً من شدة المشكلة . فان نسبة الأولاد الذين هم في الدراسة من صبيان وبنات والذين تتراوح أعمارهم بين السادسة وبين العشرين بالنسبة لسكان الدولة يكونون عادة ١٨ ٪ أو ٢٠ ٪ بينما نسبة عدد الطلاب في جميع المدارس على اختلاف أنواعها ودرجاتها وصفاتها وجنسياتها في مصر سنة ١٩٤٧ – ١٩٤٨ هي ٧ ر ٦ ٪ حيث ان عدد الطلاب(١٫٢٨٢٫٣٢٥) والسكان (١٩٫٠٢٩٠٠٠) وفي سورية ٦٫٩٩ ٪ . حيث ان عدد الطلاب (٢٠٩٨٣١) والسكان (٣٫٠٠٠٠٠٠) وفي العراق ٨ ر ٣ ٪ حيث أن عدد الطلاب (١٩٠٥٠٢) والسكان (٥٫٠٠٠٠٠٠) وفي الأردن الشرقي ٥٫٥٢ ٪ حيث أن عدد الطلاب (١٩٣٢٢٢) والسكان (٣٥٠٠٠٠)(١) وبعبارة ثانية أن الذين يجدون مقاعد في المدارس أو يداومون على المدارس مازالوا نحو الثلث في مصر وسورية ونحو السدس في العراق ونحو الربع في الاردن الشرقي الى السنة المذكورة . ونسبة الامية بالتبعية ماتزال عالية بل وفي بعضها عالية جداً فهي

(١) حولية الثقافة لساطع الحصري .

في مصر والعراق والاردن العربي لاتقل عن ٧٠ و ٧٥ ٪ وفي سورية والاردن الغربي لاتقل عن ٥٠ ٪ . وبديهي أنها في جزيرة العرب والمغرب العربي أعلى كثيراً من أعلا هذه الارقام . وإذا كان لبنان يبدو أحسن حالاً حيث أن نسبة الطلاب الذين هم في المدارس ٨ و ١٤ ٪ ونسبة الامية لا تزيد عن ٢٥ ٪ فان ذلك ناشيء عن أسباب خاصة ؛ لا تتصل بجهود حكوماته . فان عدد المدارس الطائفية والخصوصية فيه هو في سنة ٩٤٧ — ٩٤٨ (٨١٩) وعدد طلابها (٦٨٩٤٧) وعدد المدارس الاجنبية فيه هو (٢٧٥) وعدد طلابها (٤٨٧٩٤) بحيث يبلغ عدد المدارس غير الحكومية (١٠٩٤) وعدد طلابها (١١٧٧٤١) في حين ان عدد المدارس الحكومية (٦٣٧) وعدد طلابها (٥٤٦٦٣)(٢) . وهذا فضلا عن انه جزء صغير جداً بالنسبة للامة والبلاد العربية وليس من شأن خصوصيته هذه ان تعدل من حالة الجهل والامية كثيراً في هذه البلاد كما هو واضح .

والمشكلة تبرز بل تتمركز بنوع خاص بالنسبة للقرى والقبائل بسبب عدم امكانيات المال والمكان والمعلم . لأن وسائل التعليم في المدن اكثر وفرة والامية فيها منخفضة جداً بالنسبة للقرى والقبائل التي تبلغ نسبتها الى المجموع ٧٥ ٪ في مصر وسورية والعراق والاردن و ٩٠ ٪ او اكثر بالنسبة لجزيرة العرب . وبكلمة اخرى ان الاكثرية الساحقة من الشعوب العربية ما تزال ترتكس في ظلمات الجهل والامية .

— ٣ —

ولقد كانت هذه المشكلة مما واجهته الحكومة التركية التي لم تكن حالتها أحسن من حالة البلاد العربية ، وظلت معقدة الى سنة ١٩٤٠ ، فقد كان عدد الذين هم في السن المتراوح بين السابعة والسادسة عشر (٩٠٩ و ٧٤٩ و ٣) أطفال ٨٠ ٪ منهم قرويون وكان عدد المداومين على المدارس منهم (٧٠٩و٨٨٤) أي ٢٣ ٪ فقط من المجموع ، وكان عدد مدارس القرى في سنة ١٩٣٨ (٤٧٨٨)

(٢) نفس المصدر .

من أصل (٣٦٠٠٠) قرية(١) وبكلمة اخرى ان نحو ٨٥ ٪ من القرى لم يكن فيها مدارس الى هذه السنة . وفي هذه السنة خطت الحكومة خطوة حاسمة في سبيل حل المشكلة وأعقبتها بخطوة متممة لها في سنة ١٩٤٢ بعد أن رأت ان المحاولات النصفية لم تحلها . وقد أسفرت الخطوتان عن نتائج عظيمة مما يسوغ القول بأن تركية ستبلغ بها للغاية خلال عشر سنين أو أقل . وقد انطوى في الخطوتين حل مشكلة التهذيب والارشاد والتوجيه الزراعي والصناعي في نفس الوقت أيضاً . وكانت الخطوة الاولى اصدار قانون معاهد القرى أوجب على وزارة المعارف انشاء معاهد قروية لتنشئة معلمي القرى واختصاصيين بالمهن المتنوعة المتنوعة التي تحتاج اليها القرية ، وأوجب على طلابها خدمة عشرين سنة في التعليم القروي ونص على حرمان من يخل بهذا الواجب من وظائف الدولة الاخرى مع اعادة نفقات تعليمه مضاعفة واوجب دفع مرتباتهم من ميزانية الدولة ، واعطائهم الآلات والوسائل اللازمة للزراعة من بذور ومواشي وغراس من ميزانية الدولة كذلك مقابل قيامهم بكل نوع من انواع التعليم بما في ذلك انشاء مزارع وحدائق وكروم نموذجية وفنية وارشاد أهل القرية وتدريبهم . وقد كان التعليم الابتدائي ودور المعلمين الابتدائية مما تحمله الولايات من ميزانيتها المحلية ، وكان يسير بسبب ذلك سيراً بطيئاً متعثراً فكان تحميل نفقاتها على مالية الدوله من أهم مظاهر الخطوة الحاسمة .

وكانت الخطوة الثانية اصدار قانون تشكيلات مدارس القرى ومعاهدها حيث نص على واجب مجالس القرى في انشاء بناء المدرسة وتقديم نفقات المدارس الدائمة — غير مرتب المعلم — وتخصيص ارض ملائمة للمزارع النموذجية استناداً الى قانون القرية الذي يخول هذا المجلس فرض الضرائب لهذا الغرض وغيره من حاجات القرية ، وحيث نص على مسئولية المجلس المالية والجزائية والتغريمية اذا أبطأ أو قصر أو أهمل في هذا الواجب .

وقد فصل القانون واجب معلمي القرى ومرشديها كما يلي :

---

(١) تركية الحديثة للمؤلف

١ ــ تشغيل اراضي المدرسة لتكون مزرعة نموذجية .

٢ ــ انشاء مصنع وحديقة للمدرسة .

٣ ــ تشغيل مصنع المدرسة على وجه ينتفع به أهل القرية واتخاذ التدابير اللازمة لتعليم وتهذيب ابناء المدرسة وحمل الاهالي على ذلك .

٤ ــ دفع كل مايهدد صحة الطلاب واتخاذ التدابير اللازمة لذلك وحمل الاهالي عليها .

٥ ــ ترقية مستوى الثقافة الوطنية في أهل القرية وتوجيههم وفق مايقتضيه الزمن والحياة الاجتماعية .

٦ ــ اقامة حفلات في ساحة المدرسة في الأعياد والمواسم المحلية والقومية وانشاد الأغاني الوطنية والقومية واستعمال الالات الموسيقية اثناءها وتدريب وتشجيع اهل القرية على ذلك .

٧ ــ جعل أهل القرية يستمتعون بالراديو باوسع نطاق ممكن .

٨ ــ عمل اعمال زراعية وصناعية وميكانيكية تكون نماذج لأهل القرية ومفيدة في تحسين اقتصادياتهم .

٩ ــ اقامة معارض في المدرسة وبذل الجهد لاقامة أسواق عامة في المكان والزمان المناسبين .

١٠ ــ مساعدة أهل القرية فيما يقتضي من التدابير والوسائل لانعاش حياة القرية وزيادة غلاتها ونشاطها .

١١ ــ اشراك الطلاب واهل القرية في الأسواق والمعارض العامة التي تقام في أماكن يسهل عليهم الذهاب اليها واثارة اهتمامهم وإرشادهم .

١٢ ــ توسيع معلومات اهل القرية في شؤون الأحراج وفوائدها .

١٣ ــ الاهتمام بصيانة الآثار التاريخية والفنية والبدائع الطبيعية في القرية وجوارها .

١٤ — التعاون مع اهل القرية على عدم اندثار الاجناس الجيدة من الحيوانات وتحسينها .

١٥ — مساعدة أهل القرية في كل مايمس حياتهم من خير وشر ونفع وضرر واعلام مؤسسات الحكومة بكل مايتصل بذلك .

١٦ — الاهتمام بمصلحة القرية ومصلحة الدولة والدفاع الوطني .

١٧ — بث فكرة التعاون في وسائل الزراعة والنقل المشتركة وتأسيس منظمات تعاونية متنوعة .

١٨ — اتخاذ التدابير المناسبة مع المحيط والوسائل والتعليم وتعويد شباب القرية على السباحة والزحلقة والمصارعة والفروسية والرمي والصيد واستعمال الدراجة العادية والبخارية والالات الزراعية الحديثة ...

ولقد انشىء وفقاً للقانون الأول خلال ثلاث سنين عقب صدوره عشرون معهداً داخلياً يتبع كل واحد منها مزرعة تجارب كبيرة ومعمل للصنائع اليدوية والميكانيكية المتنوعة . وقد وزعت المعاهد توزيعاً حسناً بحيث انتشرت في مختلف أنحاء البلاد واهتم خاصة ليكون طلاب كل معهد من ابناء منطقته و كيفت دروسها وحقول تجاربها ومصانعها حسب بيئة كل منطقة ومناخها .

والخطة المرسومة هي تخريج عدد يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ معلم ومرشد في السنة وفتح مدارس جديدة في القرى بنسبتهم بحيث تقوم مدرسة في كل قرية في ظرف عشرين عاما .

ولقد تبع هذه الخطوة خطوة فنية مهمة حيث انشىء بالمعاهد الريفية المذكورة فصول لتخريج مولدات ومأموري صحة ، واستهدف تخريج ٥٠٠ مولدة و ٥٠٠ مأمور صحة سنوياً لاستخدامهم اجباريا في القرى فجاءت هذه الخطوة متممة للعمل العظيم من ناحيته الاجتماعية والصحية(١) .

---

(١) تركية الحديثة للمؤلف .

فجدير بالحكومات العربية اقتباس هذه الخطوات في سبيل حل مشكلة تعليم القرية التي هي المشكلة الأولى في تعميم التعليم على أن تكون الخطة كفيلة بحل المشكلة حلاً حاسما ونهائياً خلال عشر سنين أو خمس عشر سنة على الأكثر.

ولقد قدرت سورية المدة التي يجب أن تزول الأمية فيها بعشر سنين واوجبت تحقيق ذلك في الدستور الجديد الذي سنته سنة ١٩٥٠ وان هذا لفي الامكان اذا ما اعارته الحكومات العربية العناية الواجبة فاسست معاهد ريفية لتخريج المعلمين والمرشدين بنطاق أوسع مما هو موجود عندهـا . ورسمت خطة ناجعة لتهيئة الأماكن اللازمة في القرى والبوادي لانشاء مدارس جديدة بنسبة مايؤمل تخريجه من هذه المعاهد سنوياً ، وضاعفت الجهد في سبيل تهيئة مقعد لكل طفل في المدن أيضاً بحيث لا يمضي عشر سنين أو خمس عشرة سنة إلا ويكون في القرى والبوادي والمدن مدارس ابتدائية تستوعب جميع الأطفال الذين هم في سن الدراسة .

وتبقى مشكلة أمية الكبار . ومن الواجب معالجتها بجد وسعة لانها تطوي فيها أسواء مشكلة الجهل بالنسبة للجيل الذي يمكن ان يظل حياً ثلاثين سنة وتعيق التطور المنشود في الاذهان والعادات والوعي والمفاهيم والنشاط الانساني والوقائي هذه المدة الطويلة .

ولن يقدر على الاضطلاع بعبء معالجة هذه المشكلة الا الحكومات لأنها أقدر على تهيئة الوسائل والسير في التنفيذ بجد واستمرار . ومن الواجب أن يسار في معالجتها بخطوات سريعة محاذية للخطوات التي يجب السير بها في سبيل تعميم المدارس في المدن والقرى والبوادي .

وأول ماينبغي ان تفعله هو اصدار قانون يجبر كل امي ممن تجاوزت سنه سن الدراسة من ذكر وانثى وفي كل مدينة وقرية ان يلبي الدعوة الى تعلم القراءة والكتابة حينما توجه اليه تحت طائلة العقاب التغريمي المتضاعف ، ووضع منهاج

كامل شامل للقرى والمدن وضامن لازالة امية الكبار خلال خمس سنوات او عشر على الأكثر .

ومن الممكن الانتفاع بطبيعة الحال ببنايات مدارس القرى والمدن واساتذتها بحيث ينشأ في المدارس فصول مسائية أو ليلية للأميين وبحيث تجعل نوبات بين اساتذتها للتعليم في هذه الفصول أو الاشراف عليها مقابل أجر اضافي زهيد . بل أن هذا ليصح أن يكون حجر الزاوية في معالجة المشكلة .

ويجب الى هذا وبقوة القانون :

١ً) ان يجند الذين يحملون الشهادات المتوسطة وما فوقها من موظفي الدولة وغيرهم مقابل اجر اضافي ولدورات محدودة ونوبات متتابعة للتعليم في فصول الأميين الكبار .

٢ً) ان يفرض على اصحاب الأعمال والمصانع والورشات والمعامل والمزارع واجب الزامي بتعليم الاميين الكبار الذين يشتغلون عندهم في مدد تعين لهم وتحت رقابة وتفتيش جدي .

٣ً) ان يشغل أقسام من اي ناد أدبي او رياضي أو اجتماعي او أي مكان صالح آخر لينشأ فيه فصول للاميين .

ويجب ان يوضع لتعليم الاميين منهاج يشتمل بالاضافة الى تعليم القراءة والكتابة مبادىء في الحساب والتاريخ والجغرافية والدين . وأن لا تقل الدورة التعليمية عن ستة أشهر ، وأن يعطى الذين انهوها بنجاح شهادات ، وأن يجبر الذين لم ينجحوا في الدورة على اعادتها ثانية .

ولا يداخلنا شك في أن مثل هذه الخطة والمنهاج اذا سير فيها بقوة وجد واخلاص ودأب كفيلان بالقضاء على الأمية في البلاد العربية وعلى الأقل في بلاد الشام والعراق ومصر في مدة لاتزيد عن عشر سنين ، وتكون الخطة الأولى في اعداد مدرسة في كل قرية ومقعد مدرسي لكل طفل قد سارت هي الأخرى في التنفيذ فتخلص الأمة العربية في نهاية السنين المذكورة من هذه المشكلة التي هي

من أشد العوائق في طريقها الى التقدم والسير في مضمار التنظيم والازدهـــار الاقتصادي والثقافي والصحي والاخلاقي والانتاجي .

ولا ينبغي ان تقف المسألة المالية في الطريق . فكل شيء يجب ان يهون في سبيل هذه المشكلة . وتستطيع الحكومات العربية اذا جدت وحزمت ان تحل المسألة المالية باسلوب ما ، ولا سيما ان جهازها فضفاض وموظفيها اكثر بكثير من حاجتها والكماليات والمظاهر والفخفخة تستغرق كثيراً من المال عبثاً ، وهذا فضلاً عن قدرة البلاد وواجبها معاً في الدفع لحل هذه المشكلة الحيوية ، وفضلاً عن حق الحكومة وواجبها معاً في الأخذ من القادرين المتخمين بقوة القانون ما يكفى لحلها .

-٥-

ويتصل بهذا الموضوع من الوجهة التطبيقية امور كثيرة :

١) فالتعليم الابتدائي في القرى والبادية بنوع خاص ابعد من أن يزيل الأمية من الأطفال ، ولا يكاد الطفل الذي يتيسر له دراسة في مدرسة من مدارس القرى والبادية يدرس اكثر من سنة أو سنتين في اكثر الحالات ، ولا تكاد تمر عليه مدة حتى يفقد كل ما وعاه وكثيراً ما يغدو امياً ايضاً . فالمصلحة القومية والثقافية والاقتصادية تقضي بان يعالج هذا الأمر بحيث يجبر الآباء بقوة القانون على ابقاء أولادهم في المدارس ثلاث سنين على الأقل ويصرف الجهـــد الأكبر إلى تخريج الطفل فيها ملماً بأوليات المعارف الجوهرية في حياته العملية وقادراً على الانتفاع بها .

٢) والأكثرية الساحقة من الشعب العربي فقيرة أو متوسطة الحـال وأطفالها في حاجة شديدة إلى التعليم المهني المتوسط الذي يضمن تخريج أجيال صناعية وزراعية وفنية ومهنية ماهرة وعملية فيزداد بذلك النشاط والانتاج العام. فمن الواجب أن يكثر من المدارس الزراعية والصناعية والمهنية المتوسطة لتستوعب

أكبر عدد ممكن من خريجي المدارس الابتدائية في القرى والمدن ، وأن يوجه القسم الأكبر من هؤلاء الخريجين نحوها .

٣) والتعليم الثانوي والعالي ما يزال غير موطـــد على أساس توجيهي واصطفائي صالح . وقد أدى إلى تكثير الطبقة التي تحمل شهادات وتكون في ذات الوقت ضعيفة المواهب والقابليات فلا تعمل في المجال الرفيع الذي تخرجت له ولا تنزل إلى المجال الأدنى منه ولا تستوعبها دواوين الحكومة التي هي هدفها بالدرجة الأولى مها اتسعت فتظل عاطلة متذمرة . فمن الواجب أن يعالج هـذا الموضوع معالجـة ناجعة بوضع اسلوب اصطفائي دقيق يقوم على طرائق اختيار الذكاء الحديث ليضمن به عدم دخول الجامعات على الأقل إلا لمن يكون له من المواهب ما يجعل نجاحه ونفعه أكيدين . أما غيرهم فيوجهون كما قلنا إلى التعليم المهني والفني المتوسط .

٤) وأسلوب الاصطفاء الذي نرى ضرورة السير عليه لمعالجة النقطـة السابقة يجب أن يشمل فيما يشمله تعديل طريقة الفحوص . فالصدفة العمياء تلعب دوراً كبيراً في هذه الفحوص وكثيراً ما يساعد الحظ ضعيفاً قليل الجد ضعيف الموهبة ويخذل قوياً موهوباً . وهي إلى هذا كثيراً ما تكون سبيل الضعفاء وغير الموهوبين إلى التعليم الثانوي والجامعي .

٥) ولقد ارتفعت الأصوات بالشكوى المريرة مما يلمس في أبنـاء الجيل الجديد من ميوعة في الأخلاق والعادات والاجتماعيات والذوق ومن ضعف النظام والتنظيم ومن التحلل من الواجبات والتبعـات والتقاليد . فمن الضروري جداً معالجة هذا الأمر والعناية به بحيث يجعل للتربية الأخلاقيـــة والاجتماعية والتنظيمية والروحية حيز كبير في المناهج والتنظيمات المدرسية وبحيث يسار على أساليب ناجعة لمراقبة السلوك والاشراف عليه بالتعاون مع الأسر وبحيث يسار في المدارس على طرائق من شأنهـا تعويد الطلاب على محاسبة أنفسهم ومراقبتهـا واداء ما عليهم من واجبات والنظام والتنظيم وآداب السلوك العامة .

مشكلة الفوارق المذهبية والطائفية

- ١ -

وهذه المشكلة من مايقف عقبة في طريق الانسجام والوحدة في الشعور والمفاهيم والأهداف ويكون ثغرة تنفذ منها دسائس الدساسين ووساوس الشياطين وكيد الكائدين ، ووصمة توصم بها الأمة العربية في حركتها القومية وتعرقل خطاها في سبيل تحقيق أهداف هذه الحركة .

وقد تكون هذه المشكلة من تفرعات مشكلة الجهل ، غير أن لها خصوصية خطيرة في البلاد والشعوب العربية تتحمل أن ينظر اليها كمشكلة مستقلة .

ولسنا نقصد من هذه المشكلة الى ماهو موجود في صفوف المسلمين والنصارى من تعدد الفرق وتنوع العقائد الدينية والأساليب المذهبية . فان هذا متصل بالوجدان الديني الذي غدا لاشعورياً والذي قد يكون مألوفاً لأنه يرافق الأديان والعقائد في كل مكان وزمان . ولكن الذي نقصده هو ما أشرنا اليه من الخصوصية الخطيرة التي يمتاز بها هذا التعدد في البلاد والشعوب العربية من حيث إثارته الاحقاد والضغائن والانكماش والحذر وسوء الظن والروح المتعصبة المتناظرة المتنافسة في أصحاب هذه الفرق الدينية والمذهبية ازاء بعضها مهما قلت نسبة بعضها للأخرى .

فالدم العربي والتاريخ واللغة والمصلحة تجمع بين الشيعة والسنة والدروز والعلويين والاسماعيليين ، كما أن الاسلام من حيث المبدأ والتاريخ يجمع بينهم ، غير أن روح أبناء هذه المذاهب غير متمازجة ويغلب عليهم الانكماش والحذر والحقد بالنسبة لبعضهم .

والاسباب التي أدت الى هذه الفرق سياسية امتزجت بالدين وتغذت بالدعاية المديدة من جهة وبحوادث واعتبارات متنوعة في مختلف المناسبات والادوار من جهة أخرى حتى غدت رغم انبتات الصلة وزوال الأسباب التي ارثتها لا شعورية تعمل عملها في جسم الأمة وروحها وتؤدي الى ماذكرناه من الآثار الروحية والنفسية والاجتماعية .

وقد استغلها الأجانب استغلالاً غير يسير في سورية ولبنان والعراق بسبيل ابقاء الأمة غير موحدة القوى في نضالها ضدهم ، وحركوا بسبيل ذلك بعض المتحركين والطامعين من ابناء الطوائف الاقلية كالدروز والاسماعيليين والعلويين والشيعيين حتى جعلوهم يرون في بقاء طوائفهم متميزة منافع ووجاهات ومناصب قد لا تتيسر لهم إذا اعتبرت الطوائف الاسلامية واحدة ، مع أن النبهاء من أبناء هذه الطوائف يعرفون في قرارة أنفسهم سخف ووهن الاسس التي تقوم عليها الفوارق الموجودة بين المسلمين وأن الاستمرار عليها عبث لامعنى له ولا سند من دين وخلق ومصلحة ومنطق وتاريخ .

—٢—

فقد كان منشأها خلاف سياسي وتنافس في مجال الحكم والسلطان بين الامويين والهاشميين قبل الف وثلاثمئة سنة ونيف ، وأخذ الهاشميون يبثون دعايتهم ودعوتهم ويمزجونها بالدين ويسندونها بروايات فيها العجيب الغريب من التأويل والتمحل. وكانت هناك بعض حوادث دموية حملت اكثر مما تحتمله من الأسباب والآثار واستغلت استغلالاً واسعاً في مجال الدعوة والدعاية ، واندمج العجم في ذلك بسبب نقمتهم على العنصر العربي الذي هدم دولتهم وأطاح بسلطانهم وبدا قوياً عزيزاً في حقب الدولة الاموية التي امتد سلطانها إلى الأندلس في الغرب وإلى الهند والصين من الشرق وإلى البحر الاسود وبحر الخزر من الشمال وإلى بلاد النوبة من الجنوب فأدى هذا إلى هدم الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية بسيوف الاعاجم الذين بذلوا جهودهم ليكونوا أصحاب الشأن في هذه الدولة ، وتضامن الفريقان

يعضدهم سلطان الدولة في تقوية الدعوة والدعاية حتى يظل المسلمون فريقين وتظل دولة العباسيين والاعاجم قائمة .

واتهم العلويون العباسيين بغصبهم حقهم في الملك فعمدوا بدورهم إلى بث الدعوة والدعاية لأنفسهم ضد العباسيين والعمل على هدم دولتهم ، واندمج في هذه الدعوة والدعاية الأعاجم أيضاً لأن فيها توهيناً على توهين لقوة العرب عامة ، وأدى هذا إلى ثورات ودماء في بلاد العرب والعجم معاً تنوعت وتكررت كثيراً واستمرت مدة طويلة وأضعفت كيان العباسيين ومكنت الفاطميين من انتشار دولتهم في شمال افريقية ومصر والشام والحجاز واليمن ، ونشط هؤلاء في الدعوة والدعاية لعترتهم بنوع خاص لتمكين دولتهم في الأرض ، وأدى كل هذا الى ظهور هذه الفوارق الطوائفية التي اصطبغت بالدين نتيجة لأسلوب الدعوة والدعاية كما أدى إلى انحطاط عام في سلطان العرب والاسلام وظلت الفوارق راسخة تتغذى بالخرافات والأوهام والروايات والمبالغات وتتكثف بين أصحابها بسبب ذلك الاحقاد والضغائن وسوء الثقة والحذر .

والطوائف الاسلامية غير السنية في بلاد العرب هي أقليات بالنسبة للسنيين ، ولها بعض مفاهيم وتقاليد دينية تغاير مفاهيم وتقاليد السنيين ، فأدى هذا الى تجيم هؤلاء نحو الاقليات وإلى انطواء هذه على نفسها وتضامنها فيما بينها ازاء غيرها وتكتمها وانكماشها . وكل هذا أوجد جواً غير مستحب ساعد على استمرار تلك الاثار . وقد مكن هذا أن كان السلطان في بلاد العرب منذ ثمانمئة عام في يد السنيين .

على أن من الحق ان يقال ان حدة هذه الآثار قد خفت كثيراً عن ذي قبل وانه صار في كل طائفة فئة صالحة وكبيرة تستنكر التمييز الموجود بين طوائف المسلمين وتتأذى من استمراره وتعرف ان بقاءه عظيم الضرر والخطر على المصلحة القومية العامة أولاً وعلى مصلحة كل طائفة ثانياً . وهذا مما ييسر معالجة المشكلة معالجة ناجعة اذا تعاون نبهاء هذه الطوائف ومخلصوها تعاوناً صادقاً واتفقوا على خطة واساليب ووسائل من شأنها تنوير الأفكار وتبيين الأسباب والحقائق

والمآخذ من جهة والجمع بين ابناء الطوائف في مختلف المناسبات وبث الحب والولاء فيما بينهم من جهة أخرى . وتستطيع الدوائر الحكوميـــة الاجتماعية والثقافية أن تساهم في رسم وتنفيذ هذه الخطة بنصيب كبير ، وبذلك تضعف قوة التميز والافتراق في الكبار والجيل الحاضر . اما بالنسبة للاطفال فيجب ان تتكفل مناهج التعليم بمعالجة هذه المشكلة فيهم بحيث يكون التعليم القومي المشترك هو سياسة التعليم العامة في الوطن العربي حتى يسهل بذلك اندماج الجيل الجديد والأجيال القادمة تحت لواء القومية الخفاق اندماجاً يصبح مـــع الزمن شاملاً وتاماً .

— ٣ —

وكما يجمع الدم العربي بين كثير من مسلمي العرب من ناحية والتاريخ واللغة من ناحية ثانية يجمع بين مسلمي العرب ونصاراهم كذلك في الشام ومصر والعراق . غير ان الأعراض التي ذكرناها قبل من ضعف التمازج والانكماش والحقد والحذر موجودة ظاهرة حيناً ومستترة حيناً بين المسلمين والنصارى ايضاً.

وهذه الاعراض تمت كما تمت تلك إلى أسباب سياسية وتاريخية امتزجت بالدين وتغذت بالدعاية المديدة من جهة وبحوادث واعتبارات متنوعة في مختلف المناسبات والأدوار من جهة أخرى حتى غدت هي الاخرى برغم زوال الاسباب التي أرثتها لاشعورية تعمل عملها في جسم الأمة وروحها وتؤدي إلى ما ذكرناه من الآثار السيئة الروحية والنفسية في حين انه ليس لهـــا سند من الدين ، فالمسيحية النقية تبشر بالمحبة والسلام وتحارب الاحقـاد والمآرب الشخصية . والنصوص الاسلامية صريحة وقوية في الحث على البر والاقساط والمودة وحسن المعاملة نحو المسالمين الموادين واحترام المحايدين والوفاء بعهود المعاهدين من غير المسلمين واحترام حرياتهم وحقوقهم . واعداء المسلمين في الدين الاسلامي هم فقط الذين يعتدون على المسلمين ويكيدون لهم ويمكرون بهم ويؤذونهم ويظاهرون أعداءهم عليهم ويطعنون في دينهم ، والتاريخ شاهد عدل على أن السلطان الاسلامي قد لزم هذه الحدود بدقة كبيرة وأن معظم الذين اعتنقوا الاسلام من المسيحيين قد اعتنقوه باختيارهم ورغبتهم بدليل وجود فئات هنا وهناك يمتون

باصولهم إلى تاريخ سحيق قد احتفظوا باديانهم ومعابدهم خلال الاحقاب الطويلة التي كان ذلك السلطان قوياً وشاملاً فيها ووسط خضم الاكثرية الاسلامية الساحقة.

وما رواه التاريخ من حوادث مكدرة بين المسلمين والنصارى خلال قيام السلطان الاسلامي يعود الى أسباب سياسية وخارجية. فالروم الذين انسحبوا من مصر وشمال افريقية أمام زحف الجيوش العربية في القرن الهجري الأول والذي نشب بينهم وبين العرب والمسلمين نتيجة لذلك نزاع امتد قروناً عديدة دأبوا على اثارة نصارى البلاد العربية وتحريضهم على السلطان العربي الاسلامي بمختلف الاساليب وفي مختلف الظروف فكان ذلك يؤدي الى وقوف بعض فئات من النصارى مواقف ايجابية ضد المسلمين وسلطانهم فيكون لها رد فعل في المسلمين والسلطان الاسلامي ضد هذه الفئات مما هو طبيعي وسياسي بحت.

ولقد كانت الحروب الصليبية التي امتدت مئتي سنة نتيجة من نتائج ذلك النزاع، وكان لها أسباب وحوافز سياسية واقتصادية واجتماعية متنوعة مما هو مسلم به من قبل الباحثين، غير أن الذين دعوا اليها وحرضوا عليها من نصارى الأفرنج قد صبغوها بالصبغة الدينية لاثارة الحماس في الجماهير، فرافقتها دعاية دينية ضد المسلمين ودينهم كان لها - مهما تكن قائمة على الكذب والسخف والتشويه - آثار ايجابية في نفوس النصارى ضد المسلمين ودينهم وسلطانهم وعقائدهم وتقاليدهم لم ينج منها نصارى العرب. وقد كان سلوك صليبي الأفرنج اثناء زحفهم وحينما وصلوا الى القدس وحشياً بربرياً في الفتك والذبح والنهب والهتك والتعصب، فكان لكل هذا رد فعل في المسلمين جعلهم يتداعون الى الجهاد ويصبغون حركتهم بالصبغة الدينية. فكان هذا وذاك مما ارث الأحقاد والضغائن في نفوس المسلمين والنصارى ضد بعضهم وبقيت آثاره مستمرة في النفوس بعد انتهاء تلك الحروب.

ولقد كان المسلمون هم الأكثرية الساحقة في البلاد العربية حينما انتهت تلك الحروب وشمل السلطان الاسلامي جميع هـــذه البلاد، فكانوا هم الأبرز

والأقوى والأنفذ بطبيعة الحال في مجال الحكم والسلطان فأدى هذا الى انطواء الأقليات النصرانية على نفسها وتضامنها فيما بينها إزاء المسلمين وتكتمها وانكماشها وتنشئة أجيالها على مثل ذلك فجعل هذا الجو غير المستحب الذي كان يسود المسلمين والنصارى مستمراً. وقد استغلته الدول الكبرى الحديثة حينما اخذت تطمع في البلاد العربية هذه الحالة استغلالاً عظيماً، حيث أخذ وكلاؤها ومندوبوها وبعثاتها التي كانت تتستر بستائر مموهـــة من الدين والتبشير والتعليم والتطبيب يدسون أيديهم بين النصارى ويثيرون مخاوفهم من المسلمين ويبثون فيهم الكراهية نحوهم والاشمئزاز منهم ويثيرون كذلك مخاوفهم من العرب الذين تتألف منهم اكثرية المسلمين الساحقة ويلقنونهم أنهم ليسوا من العروبة في شيء وان العروبة هي الطبع الاسلامي والبداوة المتوحشة، ويجعلونهم يرون في الدول الكبرى الحماة المنقذين، وقد انشأوا في ظل الامتيازات التي كانت منحة فغدت اغلالا مدارس اقبل عليها النصارى اقبالاً واسعاً يتعلمون فيها اللغات الأجنبية والتاريخ الأجنبي ويتشربون فيها العواطف الأجنبية والتحريضات الأجنبية على كل ما هو مسلم وعربي.

وحدثت في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي بعض احداث دموية — ثبت من محاضر تحقيقها ضلع عملاء تلك الدول الطامعة في اثارتها — فكانت مما هيج الأحقاد والمخاوف وزاد في اربـــداد الجو الغير المستحب الذي يظلل المسلمين والنصارى.

وكما انه ليس لهذا الجو سند من الدين المسيحي والاسلامي وانما كان نتيجة تفاعلات واحداث سياسية ودعائية على ماهو واضح من الزبدة التي اوردناها فانه ليس له سند من مصلحة المسلمين والمسيحيين، وليس هناك اي تباين بين الفريقين سواء في مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع أو في مجال الحقوق والواجبات المقابلة أو في مجال الاقتصاد والاجتماع أو في مفهوم وأهداف الفكرة العربية وما يعود على الفريقين من منافع وعز وسؤدد من تحققها. فليس للدين والتمايز الديني أي دخل في كل ذلك لأنه ممارسة وجدانية ولان الدين الاسلامي المؤثر

في حياة المسلمين يضمن كل الضمان حقوق الموادين والمسالمين وبالتالي حقوق المواطنين من غير المسلمين وحرياتهم ولا يأمر بأي تمييز في ذلك للمسلمين عليهم .

على أن من الحق ان يقال هنا ما قلناه في المناسبة السابقة ان حدة اربداد الجو والآثار السيئة النفسية والروحية القديمة قد خفت عن ذي قبل ، ولاسيما بعد أن انكشف من نيات الاجانب الدساسين ومأجوريهم وعملائهم ووكلائهم نحو العرب مسلميهم ونصاراهم على السواء ما انكشف من كيد ومكر وسوء نية وقصد تفريق واستهداف استغلال الجميع. فلقد استنارت الأفكار كثيراً فاخذت تدرك وتلمس وهن الاسس الذي يقوم عليها ذلك الجو وتلك الآثار وعدم صلتها بالمبادىء والتعاليم الدينية والمصلحة الوطنية والقومية . ولقد ساهم عدد غير يسير من النصارى في الحركة العربية الحديثة منذ انبعاثها مع رجال المسلمين وذهب بعضهم في جملة من ذهب من الضحايا العزيزة في سبيل هذه الحركة. ولقد اتسع نطاق اندماج نصارى العرب في الفكرة العربية القومية كثيراً واتضح لكثير منهم زيف الدعايات المضللة ضد صلتهم بالقومية العربية. ولقد جعل ما انكشف لهم من نيات الاجنبي المستعمر الدساس السيئة ومكره وكيده كثيراً منهم يندمجون في الحركات الوطنية النضالية التي قامت في مصر وفلسطين وسورية والعراق ولبنان ويساهمون فيها بنصيب وافر . فكان كل هذا مما خفف الحدة السابقة ومما جعل كثيراً من الفريقين يستنكرون استمرار هذا الجو ويلمسون فيه عظيم الضرر والخطر على القضايا القومية والوطنية وعلى مصلحة الفريقين معاً هو في الحقيقة اسباب مسهلة لمعالجة المشكلة اذا ما تضامن مثقفوا المسلمين والنصارى معاً وقاموا بحملة صادقة وقوية بسبيلها وتوسلوا اليها بشتى الوسائل لتنبيه الأذهان وتصحيح الأخطاء وتبين الاسباب والحقائق والمآخذ وبث الحب والولاء فيما بين الفريقين في مختلف المناسبات . وتستطيع الدوائر الحكومية الاجتماعية والثقافية أن تساهم في تنفيذ هذه الخطة بنصيب كبير فيؤدي ذلك الى اضعاف قوة التميز وتيسير اسباب الاندماج في الكبار والجيل الحاضر . أما بالنسبة للأطفال فيجب أن تتكفل مناهج التعليم بمعالجة المشكلة فيهم كذلك بحيث يكون التعليم القومي المشترك هو سياسة التعليم العامة في الوطن العربي حتى يدمل اندماج الجيل الجديد والاجيال القادمة تحت لواء القومية النفاق اندماجا يصبح مع الزمن شاملاً وتاماً

(٣) مشكلة تنوع المدارس والمناهج

-١-

وهذه المشكلة كتلك مما يقف عثرة في طريق الانسجام والوحدة في الشعور والمفاهيم والأهداف ويكون ثغرة تنفذ منها دسائس الدساسين ووساوس الشياطين وكيد الكائدين . وقد تكون من تفرعات مشكلة الجهل ، غير أن لها في البلاد العربية خصوصية خطيرة تتحمل ان ينظر اليها كمشكلة مستقلة ايضاً .

ان المصلحة القومية تقضي كما هو بديهي بتوطيد الوحدة الثقافية والأنظمة الثقافية الموحدة في بلاد العرب وفي مختلف درجات التعليم بحيث تكون معاهد العلم بوتقة تصهر جميع ابناء الجيل الناشيء وتخرجهم امة متجانسة في العقول والقلوب والاسلوب متحدة في الأهداف والغايات ترمي عن قوس واحد وعقيدة قومية واحدة .

والناظر اليوم فيما هو عليه التعليم ومعاهده في بلادنا يرى صوراً عديدة متناقضة مع تلك الغاية . ويدرك سراً من اسرار ما يبدو في الجيل الجديد من ضعف البنية الأخلاقية والقومية واختلاف الأمزجة والميول والغايات والأساليب.

-٢-

فمن هذه الصور ما يقوم في بلادنا الى جانب المدارس الرسمية من المدارس الأجنبية المتعددة الجنسيات المتنوعة المناهج والغايات والتي تتجه في الأعم الأغلب في اتجاه معاكس للغاية التي ذكرناها سراً وعلناً ومباشرة ومداورة .

وموضوع المدارس الأجنبية من المواضيع الخطيرة الأثر في حياتنا وحركتنا

ومصلحتنا يجب ان يعار اهتماماً كبيراً وعاجلاً من جانب حكوماتنا وهيئاتنا القومية وأن تشتدالدعوة الى ذلك. واذا كان حقاً ان لهذه المدارس بعض الفائدة في توسيع نطاق العلم فان مما لا يمكن ان يماري فيه انه كان لها آثار سيئة ايجابية وسلبية في حياتنا القومية أضعاف ما كان لها من فائدة كما ان هذه الآثار ستمتد ما دامت هذه المدارس قائمة .

فاكثر المدارس الاجنبية وبالأحري كثرتها الكبرى هي مدارس تبشيرية سيرتها وسيطرت عليها روح المبشرين المتعصبة التي يعرفها الخبيرون في مؤلفاتهم وأبحاثهم وجدلهم ومطاعنهم الصريحة والضمنية التي تصدر عن غرض وهوى وحقد وضيق افق . وهذه الروح كانت عاملاً قوياً خاصة في بث روح الخوف والحذر والحقد والريبة والانكماش بين المسلمين والنصارى العرب ، وفي تعطيل كل اتجاه يمكن أن ينبثق في نفوس الناشئة النصرانية نحو العرب والعروبة على اعتبار ان الاسلام والعروبة لفظان مترادفان ، وفي اثارة الحقد بل والاحتقار في نفوسها نحو العرب وفي تشويه تاريخهم تشويهاً منكراً .

ولقد كانت هذه المدارس من الناحية الأخرى وسائل استعمارية مباشرة ومداورة بما كانت تقتصر عليه تقريباً من ملء ذهن الناشئ بلغة الأجانب وتاريخهم وآدابهم وتقاليدهم . وفي حين لا يكاد الناشيء يكون قد عرف شيئاً او عرف ما هو مشوه وناقص من اللغة العربية والآداب العربية والتاريخ العربي يكون قد تشبع بروح الأجانب ولغاتهم وآدابهم وتقاليدهم وابطالهم وبالتالي قد استغرق فيهم استغراقاً تاماً . وهكذا ينشأ الناشيء الذي يتخرج في هذه المدارس غريباً عن العرب والعروبة في لسانه وروحه وعقله وعلمه مندمجاً بالأجنبي بكايته . وانك لترى كثيراً من فتياننا وفتياتنا بسبب ذلك مسلمين وغير مسلمين لا يكاد يبينون باللغة العربية ولا يكادون يفهمون شيئاً عن العرب ولا يكادون يحسون بشيء من الشعور العربي والكرامة القومية ، بل ويكادون يكونون أعداء للعرب والعروبة وتاريخهم شاعرين في قرارة نفوسهم بالألم والحسرة لانهم يمتون اليها في حين يكونون ملمين شديد الالمام بتاريخ الافرنسيين أو الانكليز

ولغتهم وآدابهم مندمجين في عاداتهم وتقاليدهم وشعورهم وقد اتخذوا من اللغة الانكليزية أو الافرنسية لغة بيت ومجالس وسمر، واذا تكلموا اللغة العربية العامية التي اقتبسوها في صغرهم رصّعوها بالرطانات الانكليزية والافرنسية. وهذا سر ما نراه في موارنة لبنان وكاثوليكه بنوع خاص من التعلق الشديد والاستغراق التام في كل ما هو افرنسي والكره والخوف والانقباض من كل ما هو عربي اسلامي مما هو من مشاكل حركتنا القومية في هذا القطر العربي لأن غالبيتهم درست وما تزال تدرس في مدارس افرنسية او مصبوغة بالصبغة الافرنسية فضلا عن الصبغة التبشيرية التي تسود فيها . وشيء من هذا ملموح في كاثوليك سورية ومصر وان كان أخف حدة وأقل اتساعاً بسبب قلتهم اولاً وبسبب كون الافرنسيين قد ركزوا معظم جهودهم في لبنان ليكون معصمهم في الشرق العربي ثانياً .

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان تعدد أنواع وجنسيات المدارس الاجنبية أدى بطبيعة الحال الى تنوع الشعور في الناشئة التي تتخرج منها وأدى بالتالي الى تناقض الأمزجة والمظاهر والميول والأساليب تناقضاً عجيباً حتى صارت الامثال تضرب بنا وخاصة ببلاد الشام التي نكبت بالتنافس الاجنبي الاستعماري على اختلاف الميول والأمزجة والأساليب ليس في البلد الواحد فحسب بل في الاسرة الواحدة ...

والتعليم الاجنبي الاستعماري التبشيري هذا ليس قاصراً على النصارى بل كان وما يزال ينهل منه عدد كبير من ابناء المسلمين منهم من يرسله ذووه على اعتبار أن النظام والتربية في المدارس الاجنبية خير منها في المدارس الرسمية والاهلية، ومنهم من يرسله ذووه للمباهاة والتزلف دون أن يفكروا بما يترتب على ذلك من آثار سلبية أو ايجابية في حياة ابنائهم واتجاهاتهم وشعورهم ومقوماتهم أو دون أن يبالوا بذلك . وهكذا شمل سوء اثر هذا التعليم وضرره طبقة غير قليلة من نصارى العرب ومسلميهم على السواء حيث اساغت لابنائها هذه النشأة المسيخة - المشوهة المغايرة كل المغايرة للكرامة القومية والمصلحة القومية والمعطلة للانسجام

الذي يجب توطده بين ابناء الأمة الواحدة في الأمزجة والميول والأساليب والغايات والشعور .

ومها قيل أن هذه المدارس ساعدت على اتساع نطاق العلم والتهذيب وأنه قد نشأ أفراد من العرب منها كان لهم جهد ومشاركة في الحركات القومية والوطنية العربية وكانوا متشبعين بمادىء الحرية والاستقلال فما لاشك فيه ان هؤلاء قليلون من جهة وان ما كان قد كان من قبيل رد الفعل من جهة اخرى ولم يكن على كل حال نتيجة جهد وتوجيه مخلصين ، وليس من شأنه أن يبرر استمرار هذه المعامل البشرية في عملها لتشوه أخلاق ابنائنا وأرواحهم وتعطل شعورهم القومي وتجعلهم يستغرقون شعوراً وانجذاباً في الاجنبي وتاريخه وآدابه وابطاله دون تاريخهم وآدابهم وأبطالهم ، ولاسيما أن الشعور القومي فينا لم يرسخ ويعم ويقوى ويكون لنا منه مناعة كافية ، وان بعض بلادنا لا تزال منكوبة بالأجنبي وأن بعضاً آخر منها عرضة لمطامعه ودسائسه وتربصاته .

والعلاج الناجع هو التخلص من هذه المدارس وليس هذا مستحيلا . فمصر وسوريا ولبنان والعراق والمملكة الاردنية التي توجد فيها هذه المدارس قد تخلصت من الامتيازات الأجنبية التي كان وجود هذه المدارس واستمرارها يستندان اليها، وهي في شؤونها الداخلية مستقلة استقلالاً تاماً. وقد آن لحكومات هذه البلاد أن تتنبه الى خطر هذه المدارس وضررها وأن تعمل جاهدة على الخلاص منها. ومن واجب الواعين القوميين العرب من صحفيين واساتذة وكتاب وخطباء ووعاظ ان يشتدوا في الدعوة الى ذلك .

على انه اذا لم يكن امكان التخلص منها في الحال فان الواجب يقتضي بذل الجهد السريع القوى لاستدراك امرها الى ان يصبح ذلك في الامكان مما هو ضرورة لا مناص منها وغاية لا يجوز النكوص عنها . وفي المثل الذي ضربه الكماليون احسن الاسوة . فقد ساروا في سياسة رشيدة حازمة في سبيل ايقاف هذه المعامل أو حد اذاها وتريك من رغب في البقاء فيها . وقدقامت هذه السياسة على حظر التبشير والطابع الديني الكهنوتي على اي مدرسة أجنبية ووضع قيود

وشروط شديدة على المدارس الاجنبية مما ادى الى اقفال كثير مما كان موجوداً ، ولم يبق في تركية مدرسة واحدة تحمل طابع التبشير أو تسير على أي أسلوب من من أساليبه ، وأصبحت اللغة التركية فيما بقي منها لغة اجبارية تعلم بواسطة أساتذة من الاتراك ترشحهم وزارة المعارف كما غدا هذا الباقي خاضعاً في كل شيء للسلطات الحكومية وتفتيشها أولاً ، وفيها مدير ثان تركي ثانياً ، وتكتب حساباتها وسجلاتها باللغة التركية ثالثاً ويدرس التاريخ والجغرافية والعلوم الاجتماعية باللغة التركية من قبل أساتذة أتراك ووفقاً للمنهج الثقافي العام رابعاً . وهذا فضلاً عن تحريم تعليم التلامذة الاتراك جنسية —مسلمين وغير مسلمين— تعليما ابتدائياً في المدارس الاجنبية وقصر التعليم فيها على أبناء الجالية الاجنبية أو التعليم الثانوي وعدم السماح بانشاء أي مدرسة اجنبية جديدة . ولقد كان عدد المدارس الاجنبية في تركية يبلغ المئتين فظل يتناقص حتى وصل الى واحد وثلاثين في سنة ١٩٤٣ يقتصر التعليم فيها على الاجانب والتعليم الثانوي وفي نطاق الشروط والقيود التي شرحناها آنفا .

ومها تكن هذه الخطوة شاقة ومعقدة بالنسبة الينا فان شدة أثر هذه المدارس في حياتنا القومية وشدة ضررها تحملان كل شيء في سبيل الحزم فيها . ومن واجب الحكومات العربية المعترف باستقلالها والتي تمارس سيادتها أن تسارع الى ممارسة هذه السيادة في هذه الساحة الخطيرة وبكل حزم ولو باقتباس ما فعله الاتراك . ونعتقد ان النجاح فيها غير عسير ، ولن يستطيع أحد أن ينكر حقنا في تنظيم تعلم أبنائنا وتربيتهم والاشراف على تنشئتهم ومنع كل ما من شأنه أن يمسخ اخلاقهم وعقولهم ويشوهها ويعطل شعورهم القومي ، وليس فيه أي تعنت ولا بغي ، وليس فيه الا الحق والعدل ولا يكابر فيه منصف مها كانت نحلته وجنسيته . وعلى الواعين القوميين ان يدفعوا الحكومات في هذا السبيل بكل قوة .

— ٣ —

ومن هذه الصور المدارس الطائفية المتنوعة التي تقوم كذلك الى جانب المدارس الحكومية . وخطورة أثر التعليم الطائفي في حياتنا القومية كخطورة أثر

التعليم الاجنبي في الروح وفي بعض الظروف والخصوصيات أو أشد . فطلاب هذه المدارس ينشئون في جوهم الطائفي وتظل روح الافتراق والتميز والانكماش والحذر بل والبغض المتقابل هي السائدة . ومما يزيد الطين بلة أن أساتذة هذه المدارس هم في الاغلب من رجال الدين الذين لايدركون خطورة التربية القومية والمصلحة القومية او الذين يحرفون عنها قصداً وراء ذهنية ضيقة الافق تدفعهم الى تنشئة تلامذتهم تنشئة طائفية بحتة في حين ان الذي يرجى من التعليم ومعاهده بالاضافة الى تثقيف الذهن وتوسيع دائرة المعرفة القضاء على الروح الطائفية السائدة في اوساطنا البيتية والاجتماعية على السواء . واستمرار الروح الطائفية قوية في كثير من ابناء الطوائف المختلفة مهما صار لهم من الحظ الوافر في الثقافة والعلم واتساع الذهن والافق يعود الى درجة كبيرة الى التربية الطائفية التي تلقوها في المدارس الطائفية في طفولتهم على ايدي أساتذة طائفيين في روحهم وأفقهم وانحرافهم وغدوا بها تحت سلطانها اللاشعوري رغم ما يتظاهرون به من الانطلاق وسعة الافق . واذا كان ليس في الامكان ازالة الروح الطائفية بالمرة في برهة وجيزة لانها متصلة بحياتنا البيتية والاجتماعية الخاصة ، ولأن هذه الغاية السامية تقتضي زمناً طويلاً فان بقاء التعليم الطائفي مما يؤدى الى استمرار تلك الروح في حين ان التعليم هو معتمدنا ومرجونا في ازالتها وتبدلها بالروح القومية .

وليس من ريب في أن الوجه الصحيح هو الغاء التعليم الطائفي وجعل التعليم مشتركا منذ درجاته الاولى فلا يكون في الدولة إلا تعليم قومي واحد ومدارس قومية واحدة تضم أبناء الطوائف على اختلافها وتسود فيها الصبغة القومية البحتة وفقاً لمنهج ثقافي عام . وبهذا يستطاع اضعاف الروح الطائفية السائدة في اوساطنا البيتية والاجتماعية الى أن تزول وتتوارى هذه المشكلة الخطرة نهائياً . ومن الواجب على حكوماتنا أن تبذل جهودها القوية الحازمة في هذا المجال كما أنه يترتب على مثقفي الطوائف المختلفة ونيريهم أن يتضامنوا في تدعيم هذا الجهد وانجاحه وهذا مطلب قومي عظيم يستحق عناية كبيرة وجهداً جليلاً وعلى الواعين القوميين أن تشتد دعوتهم اليه .

وقد لا يكون تحقيق هذا المطلب سهلا . فنحن نعرف شدة رسوخ الروح الطائفية والاعتبارات المتنوعة التي تغذيها . فمن الواجب والحالة هذه بذل الجهد في استدراك امر المدارس الطائفية بايداعها الى أيد نيرة واسعة الافق مدركة لمعنى الفكرة القومية وما فيها من مصلحة عامة للجميع وابعاد الطائفيين المتعصبين عنها ونزع الكتب الطائفية من أيدي التلامذة وابدالها بكتب قومية وتطبيق المنهج الثقافي العام بجد وعناية ، وجعل هذه المدارس تحت المراقبة والترصد القوي المستمر . ونعتقد أن هذه الخطوة ستمهد السبيل الى الخطوة الحاسمة التي ذكرناها قبل إذا ما خطيت بحزم ولباقة . ومهما يكن فيها من صعوبة وتعقيد فان اتصالها الوثيق بالمصلحة القومية والحياة القومية وأثرها فيها يهونان كل تعب وتضحية وجهد في سبيلها .

— ٤ —

ومن هذه الصور المدارس الخصوصية المتنوعة الموجودة هنا وهنا والتي تقوم بجهد الافراد والهيئات ولم يبرز فيها طابع التبشيري والطائفي أو هي خالية منه بالمرة . ومهما يكن من خفة خطبها بالنسبة إلى النوعين السابقين فان المصلحة القومية توجب استدراك أمرها هي الاخرى ولو بالاشراف الدقيق والتوجيه الصحيح وبتطبيق المنهج الثقافي العام وصبغها بالصبغة القومية البحتة ، وعدم السماح لها باتخاذ منهج خاص ونظم خاصة وتوجيهات خاصة .

هذا ، وغني عن البيان ان الجهود يجب ان تبذل في سبيل هذه الخطوات وفي سبيل الوحدة الثقافية العامة الشاملة لجميع البلاد العربية وخاصة البلاد المتقاربة في الانكشاف العلمي والثقافي بدون توان . فالوحدة الثقافية والصبغة القومية في المناهج ونظم التعليم ضرورة عاجلة ، ولا يقوم أمامها مايقوم أمام الوحدة السياسية والاقتصادية من عراقيل وصعوبات من جهة وهي دافع قوي الأثر الى الاهداف القومية القريبة والبعيدة من جهة أخرى .

ونحن نعرف ان هذا الموضوع من المواضيع التي أخذت منظمة جامعة الدول العربية تعالجها منذ سنين ، غير أن هذه المعالجة ما زالت في نطاق الكلام والمحاولة

دون العمل والتنفيذ الجدي . فعلى القائمين بامر هذه المنظمة أن يضاعفوا الجهد في هذا الموضوع الخطير والذي له أثر كبير في مستقبل حياتنا القومية ، وعلى الواعين القوميين أن يشتدوا في الدعوة الى ذلك وأن لا يدعوا الأمر على سجيته وأن يدفعوا بمنظمة الجامعة وبالحكومات العربية الى سبيله القويم بالقوة والسرعة.

-٥-

ونحب بهذه المناسبة أن ننبه على نقطة هامة ، وهي اننا لسنا فقط لا نرى ضرورة الى اقصاء التعليم الديني عن مدارسنا بل نراه ضروريا في دائرة التدابير الخاصة والحدود المعقولة من حيث الزمن والمكان والاسلوب ومن حيث الارتفاع بروح أبناء الامة الواحدة والوطن الواحد الى أوج الصفاء والتعاطف والمحبة والتضامن والتمازج ومكارم الاخلاق والفضائل الانسانية كما تأمر به الأديان الكريمة ولا تتناقض في تناقض في اسسه وجوهره . وهذه التدابير مما يدخل بدون ريب في نطاق الامكانيات واليسر وليس فيها ماهو عسير اذا صدقت النيات وصحت الرغبات.

فالتعاليم الدينية في أصلها صافية نقية سمحة من شأنها أن توقظ الضمير وتقوي حافز الخير وتضعف نوازع الشر في الانسان وتلطف روحه وتجعله براً رؤوفاً عطوفاً هيناً ليناً متسامحاً من جهة وعزيزاً كريماً قوياً آخذاً بأسباب الحضارة غير مستنكر للدنيا في دائرة القصد والاعتدال من جهة ، ومضحياً لا يقر الظلم والبغي والعدوان من جهة ، وتنأى به عن الاستغراق بالمادة استغراقا شديداً يشغل جميع قواه وأفكاره ويجعله جافا جافياً من جهة . وفي كل ذلك من الكنوز الروحية والقوى التهذيبية ما هو خليق بالتمسك به والعض عليه بالنواجذ ولا سيما انه مظهر فيض الشرق العربي وطابعه القوي الزاخر بالاشراق والنور أولاً ، وأن اثر تحكم المادة وضعف الروح الدينية في الغرب قد وصل

الى حد شديد الخطورة بما يبدو من دوله وشعوبه من شرور وطغيان وبغي واستغراق واستهتار ثانياً ؛ والمهم في هذا ان يجاد تلقين هذه التعاليم وتجليتها اجادة متسقة مع سنائها ونقائها بواسطة اساتذة نيّرين واسعي الافق والذهن وهو ما يجب على حكوماتنا العناية به كل العناية وما يجب على الواعين أن يشتدوا في الدعوة اليه .

(٤) الأقطار المسمومة

-١-

وهناك أفكار تبث في أوساط ناشئتنا فتكون عقبات روحية وثقافية في سبيل تكامل وتطور الوعي القومي العام وانسجام طبقات المجتمع العربي ووحدة شعوره .

١ — منها الاقليمية . ففي كل قطر من الأقطار العربية وخاصة في لبنان ومصر فئات يتجاهلون ما يربط بلادهم بالبلاد العربية الأخرى من روابط كثيرة تجعلها وطناً عربياً واحداً ويتجاهلون ما يربط أهلها باهل البلاد العربية الأخرى من روابط كثيرة تجعلهم أمة عربية واحدة أو يسيئون فهمها وتأويلها ، ويدعون الى الانكماش في النطاق الاقليمي الضيق وتفريغ الجهد لبلادهم الخاصة وعدم هدر قواها خارج هذا النطاق .

وتصدر هذه الدعوة من هؤلاء الناس باشكال وأساليب متنوعة فمنهم من يسوق التفاوت الثقافي والاقتصادي والمدني بين بعض الأقطار ليدلل على عدم إمكان الانسجام وعبث المحاولات في سبيله . ومنهم من يسوق الظروف الجغرافية ويذكر مايفصل بين الأقطار العربية من ابعاد شاسعة ليدلل على ذلك . ومنهم من يسوق الظروف التاريخية واختلاف الأصول والحضارات والملهمات . ومنهم من يرى في الاندماج في فكرة العروبة العامة متاعب ومشاكل يجب أن يكون قطرهم في نجوة منها . ومنهم من يرى الفكرة العربية هي الفكرة الاسلامية ويرى فيها بالتالي صبغة دينية اسلامية . ومنهم من يرى انه لا تمثل الفكرة العربية العامة الا وحدة اللغة دون وحدة الجنس والأصل والثقافة والمشارب مما لا يصلح أن

يكون وحده أساساً صحيحاً لوحدة قومية ويسوق اختلاف اللهجات واختصاص كل قطر بلهجة خاصة به من المؤيدات والموانع . ومنهم من يرى لأسباب جغرافية وتاريخية وأصولية جنسية أن الهلال الخصيب الذي يشمل العراق والشام وحدة قائمة بذاتها فقط وان تلك الأسباب لاتجعل الانسجام العربي العام مبرراً ولا ضرورياً ولا تسمح به ..

وواضح أن في هذه الأقوال مغالطات ومفارقات كبيرة فضلا عما فيها من منافذ تنفذ منها دعايات الأعداء والمتربصين الذين يرون في وحدة العرب وتضامنهم وانسجام شعورهم على اختلاف أقطارهم خطراً على مصالحهم وعقبة في سبيل مآربهم ومطامعهم .

فالتفاوت الثقافي والاقتصادي والمدني قائم على أشد مايكون في نفس كل قطر من أقطار العرب وفي طبقات سكانه . فثلاثة أرباع المصريين مثلا في جهل وفقر مريعين والتفاوت بينهم وبين الربع الباقي أشد في جملته من التفاوت بين مصر كمجموعة وبين الحجاز واليمن ولا نقول بين سوريا ولبنان . والتفاوت بين الريف المصري والمدينة المصرية في جملته أشد من التفاوت العمراني بين مصر كمجموعة وبين الحجاز واليمن ايضاً ولا نقول بين سوريا ولبنان . ومثل هذا يمكن أن يقال بالنسبة الى الاقطار الاخرى . والتفاوت الاقتصادي والثقافي والمدني المذكور ليس أصلا طبيعياً مع ذلك في جبلة الامة العربية وطبيعة معظم البلاد العربية. ففي الامكان زواله ولا يصح أن يكون مبرراً لعدم شمول الفكرة العربية لمختلف الأقطار العربية أو دعوى استحالة الانسجام بينها . ولقد كان في بعض أنحاء البلاد العربية التي تبدو اليوم متأخرة عن غيرها حضارة زاهرة تجعلها تعد في طليعة البلدان المتحضرة مما فيه الدليل على مانقول.

وهذا التفاوت الى هذا كله ليس شيئاً خاصاً بالأمة العربية والبلاد العربية ، ولم يمنع قيام الوحدة القومية والسياسية والاجتماعية في غير الأمة العربية . فمثل التفاوت المذكور موجود بين أقطار الاتحاد السوفيتي وبين أقطار الهند والصين مثلا فلم يمنع ان تشمل كلا من اقطار هذه البلاد دولة واحدة .

ووسائل الاتصال العصرية قدطوت المسافات وقربت الأبعاد . وليست المسافة بين آخر وأول نقطتين في مصر شمالاً وجنوباً أقل كثيراً من المسافة بين القطر المصري وسورية والحجاز واليمن بل والعراق وبلاد المغرب. وليس من المستحيل أن ترتبط الأقطار العربية في المستقبل بل وفي المستقبل القريب بالخطوط الحديدية فضلا عن الخطوط الجوية والطرق المعبدة فيقرب ما كان بعيداً ويسهل ما كان صعباً . وليست البلاد العربية بدعا في هذا أيضاً . فالأبعاد بين أول وآخر نقطة شرقا لغرب أو شمالاً لجنوب بين أقطار الاتحاد السوفيتي أو الهند أو الصين أو الولايات المتحدة الاميركية لاتقل عن أول وآخر نقطة بين الأقطار العربية شرقا لغرب أو شمالاً لجنوب بل ومنها مايزيد عنها فيها . وفي بعضها من الظواهر الطبيعية مافي الأقطار العربية واكثر . ولم يكن هذا البعد ولا هذه الظواهر لتمنع قيام وحدة جغرافية وسياسية واجتماعية واقتصادية في هذه الممالك والدول.

وليس صحيحاً في حال أن الفكرة العربية هي الفكرة الاسلامية نفسها وبالتالي هي فكرة دينية . ولو كان هذا صحيحاً لاقتضى أن تشمل الفكرة العربية البلاد الاسلامية غير العربية مما لم يقل به أحد . وكل ماهنالك ان اكثرية العرب الساحقة مسلمون وهذا شيء وذاك شيء آخر كما لايخفى .ولم ينحصر نشوء الفكرة العربية الحديثة في المسلمين بل شارك فيها النصارى العرب أيضا انبعاثاً وتطوراً . وقسم كبير من نصارى العرب الذين تساق هذه الدعوى في صددهم هم اصلاء في العروبة الصريحة الطابع حيث يمتون الى القبائل العربية النصرانية التي كانت تملأ بلاد الشام والعراق ، وقسم كبير آخر منهم يمتون الى الجنس العربي لأنهم أنسال موجات هذا الجنس التي خرجت من جزيرة العرب واستقرت منذ مئات السنين ثم غدت العروبة الصريحة طابعهم . واذا كان هناك اقلية من النصارى قد يمتون الى اصل غير عربي فانهم اندمجوا هم الآخرون من مئات السنين في العروبة وغدت طابعهم أيضاً .

وليس صحيحاً كذلك انه لايمثل الفكرة العربية العامة إلا وحدة اللغة فالوطن العربي الكبير هو منبت او موطن الجنس العربي ومهاجر موجاته التاريخية

قبل الاسلام بمدة طويلة . وقد اصطبغ بالصبغة العربية الصريحة قبل الاسلام وبعده . فا كثرية سكان هذا الوطن الكبير متحدون في الجنس والدم والا'رومة يضاف الى هذا انهم يجمع بينهم تاريخ واحد امتد الى ثلاثة عشر قرناً بدون انقطاع فضلا عما قبلها . ويجمع بينهم وحدة روحية وثقافية وتشريعية ممتدة كذلك الى مثل تلك القرون الطويلة ، بحيث ظلوا يعيشون في جو تاريخي وروحي وتشريعي وثقافي واقتصادي وسياسي واحد تقريباً طيلة هذه المدة المديدة . وهذا الوطن الكبير متصل الا'جزاء بدون أي فاصل جغرافي او عنصري من اقصى شرقه على خليج البصرة الى اقصى غربه على المحيط الاطلانطي . وكل هذا يجعل مصالحه واحدة ويجعل القضية العربية العامة او الفكرة العربية القومية العامة من القوة والعمق والصحة والبداهة اكثر مما هي في كثير من القضايا القومية الا'خرى .

وهذا الذي نقوله يساق ايضاً الى الذين يسوقون الظروف التاريخية واختلاف الا'صول والحضارات والملهمات التي كانت في العهود التاريخية القديمة حيث يجعل زعمهم غير صحيح . فهم مثلا يرجعون أصولهم أو أصول سكان أقطارهم الى الا'مم التي سكنتها قبل الاسلام بمدة طويلة ليبتعدوا عن العروبة التي خلدتها الفتوحات الاسلامية العربية في هذه الا'قطار ولكنهم يتناسون الحقيقة التاريخية الكبرى وهي أن هذه الا'صول هي من جزيرة العرب أي من الجنس العربي دماً ولغة ومنبتاً وهجرة . وهذا فضلا عن مافي تناسي الواقع المتمثل في دهر طويل يتمثل في ثلاثة عشر قرناً بعد الاسلام والذي اندمجت فيه هذه الا'قطار وسكانها في العروبة وعاشت فيه في جو تاريخي وروحي وثقافي وسياسي واقتصادي واحد للرجوع الى ماقبل الاسلام من مكابرة ومفارقة ، في حين أن الوحدة القومية في البلاد الا'خرى موطدة بسبب وحدة لغة ووطن وتاريخ وأصول لا ترتفع الى اكثر من مئات قليلة من السنين . أما فروق اللهجات فهي أتفه من أن تورد في صدد التدليل على تميز وتفاوت كما هو المتبادر .

ويساق هذا القول أيضاً الى الذين يقصرون مدى الوحدة القومية على الهلال

الخصيب . ويقع هؤلاء في مفارقة أخرى ، فهم يتخطون القرون الثلاثة عشرة المذكورة وآثارها التي وطدت الوحدة القومية بين الأقطار العربية جميعها من مختلف عناصرها ويتجاهلونها ليقولوا بان وحدة الهلال الخصيب قائمة على وحدة الأصول المتمازجة التي سكنت فيه من اشوريين وكلدانيين وبابليين وآراميين وكنعانيين . وينسون ان هذه الأصول تمت الى اصل واحد هو الجنس العربي وأن الحجة دامغتهم في شمول النظرية التي يسوقونها على مافيها من تخط لواقع متمثل في ثلاثة عشر قرناً طويلة ...

وقد أنشأ الذين يقولون بهذا القول حزباً له فروع في مختلف بلاد الشام واستطاعوا أن يضموا اليه عدداً غير قليل من الشباب من مختلف الأنحاء والأديان وبدوا كأنهم اصحاب عقائد ومبادىء يدعون اليها ويدافعون عنها بحرارة وقوة وحماس مع مافي دعوتهم هذه من تلك المفارقات والمغالطات . ومن عجيب أمرهم أن دعوتهم في بدء أمرها كانت مقتصرة على سورية الطبيعية ويخرجون منها العراق وغيره من الأقطار العربية لأسباب ثقافية واقتصادية وجغرافية وتاريخية انحلوها بل ولم يكونوا يالون بالعروبة ويقولون بأنها طارأت على سورية ، ثم قبلوا أن تتصف سورية بالعروبة وظلوا على قولهم بعدم امكان الانسجام بينها وبين الاقطار العربية الأخرى ، ثم اذا هم يعتبرون العراق من سورية حيث صاروا يطلقون اسم سورية الطبيعية على الهلال الخصيب الذي يشمل العراق ويقولون بالعرب والعروبة ورسالة سورية الخالدة في قيادة الامة العربية دون ان يعدلوا مع ذلك عن القول بامة سورية تامة ووطن سوري تام ودون ان يقولوا كيف يمكن التوفيق بين هذه المفارقات والتطورات ؛ حتى يبدو من هذا التبديل والتعديل ومن هذا التناقض ان قصارى ما كان يهتم له الذين قاموا بالحزب وجعلوا منه مؤسسة ذات نظم ومظاهر شبيهة بالنظم والمظاهر النازية ان يكون لهم منظمة ذات نظم ومظاهر خاصة وحسب تنشط في سبيل ما ترسموه من خطط وأهداف مما جعل بعض الناس يغمزونهم وينسبون اليهم المآرب الخاصة او الاستيحاء بوحي خارجي ..

اما القول بان الاندماج في الفكرة العربية العامة يجر المتاعب والمشاكل فهو ظاهر الوهن والسقوط وخاصة في زمن يحتقر فيه ويستذل القليل الضعيف ويعتز فيه القوي ، وتتكتل فيه الامم المتشاكلة والمتجانسة بل المتجاورة وحسب ، وهاهي روسية والصين والهند والولايات المتحدة الاميركية تتألف من مئات الملايين من السكان وهي شاسعة الأقطار متباعدة الأطراف حتى ليكون كل منها قارة بذاتها ، وفيها الى هذا الكثير من الطوائف والأجناس والعديد من اللغات والأديان . ومن العجيب أن بعض المصريين الشعوبيين هم الذين يقولون بمثل هذا القول في الدرجة الأولى في حين ان مصر تكاد تكون اصفى من غيرها من غيرها من الأقطار عروبة وانها هي المرشحة الطبيعية لتكون زعيمة الاقطار العربية والشعوب العربية وتلعب دورها التاريخي العظيم الذي لعبته اكثر من مرة في تاريخ الاسلام فعاد من ذلك عليها وعلى الأقطار العربية كل خير ونفع ومجد وسؤدد .

ومن الحق ان نذكر ان أصحاب هذه الأقوال المتنوعة في صدد الاقليمية قلة بين الجمهرة العربية وان الشعور القومي العربي العام قد غدا شاملاً لمختلف الأوساط والأقطار . غير أن المصلحة القومية توجب على الواعين من القوميين ومنظماتهم ان لا يغفلوا عن سمومهم ومغالطاتهم ومفارقاتهم لأنها مها يكن شأنها لابد من أن تترك أثراً ما وان تكون عراقيل وعقداً نفسية وفكرية في طريق الحركة العربية الحديثة واهدافها .

— ٢ —

٢ — ومنها فكرة الاممية : وهذه الفكرة تقوم على أساس الانسانية العامة والدعوة الى نبذ الفكرة القومية ونسبتها الى الرجعية والقرون المظلمة ووصفها بعدم الاتساق والانسجام مع مقتضيات تطور الانسان واتساع نطاق العلم والمعرفة .

اننا لاننكر ما في الفكرة الانسانية والاخاء الانساني الشامل التي لاتتقيد بقيود الجنس والحدود الجغرافية والتي تستهدف تضامن بني البشر جميعاً لخير البشرية وتكاملها والقضاء على اسباب النزاع والأحقاد والمطامع والشهوات المستحكمة في مختلف الأمم والطبقات والافراد، وسيادة السلام والمحبة بينهم من خيال أخاذ يتصل بالمثل العليا التي دعت اليها الاديان وتكلم فيها ودعا اليها كبار المصلحين والفلاسفة في مختلف الاجيال، كما لاننكر انه قد يوجد في كل بلد وامة جماعات تعتنق هذه الفكرة باخلاص وتدعو اليها عن عقيدة وايمان.

غير أن الذي نعتقده ان الذين هم في حالة مثل حالتنا وفي موقف مثل موقفنا ضعفاء في بنيتهم وقوتهم، وموضوع تشاد ومطامع بين الاقرياء الذين يتربصون بهم الدوائر ويتوسلون بكل وسيلة الى السيطرة عليهم واستغلالهم والتحكم فيهم لا يصح في حال أن تروج بينهم مثل هذه الفكرة لان انبثاثها فيهم غير مؤد الى نتيجة عملية ايجابية في صددها بالذات في حين انه مؤد حتماً الى اضعاف التماسك القومي والمقاومة فيهم في وقت هم اشد ما يكونون فيه حاجة الى قوة التماسك والمقاومة القومية.

هذا الى ان هذه الفكرة في سعتها التي ذكرناها مقدر عليها ان تبقى مثلاً اعلى متصلاً بالنظريات والدعوة والاماني اكثر منها داخلة في نطاق العمل والحقيقة الراهنة. فالفوارق الطبيعية والخلقية والاجتماعية والروحية والجغرافية والتاريخية واللغوية والدينية قوية الجذور عميقة الاصول في البشر الى درجة تجعل قيام اخاء انساني عام وشامل يزول به التنازع وتنسل منه الاحقاد وتتضاءل فيه المطامع ويكون الحق والسلام والمحبة هي السائدة هي في حكم المستحيل وعلى الاقل الى الوف عديدة من السنين، ووجود ضعيف وقوي وفقير وغني وجاهل وعالم وغبي وذكي وبليد ونشيط وقليل وكثير هو في حكم الناموس الطبيعي الذي لن يتبدل والذي سيظل يعمل عمله في الانسانية.

والى هذا فان الامم القوية التي يقوم من بينها الدعاة الى هذه الفكرة دون

ان تخشى نتائجها من ضعف وتراخ وتعرض للبغي والتسلط شديدة التمسك بمقوماتها القومية دائبة على التشاد والتنازع والرغبة والسعي في التحكم والتبسط في الارض وطبعها بطابعها القومي الخاص مها استعمل كل منها ما يستعمله من الوسائل ويصطنعه من الدعايات الخداعة التي لا تخفي ما تحتها من راهن الحقائق وواقعها . وان الامم الصغيرة والضعيفة في مختلف انحاء الارض وسواء منها التي هي في ارقى درجات الحضارة والعلم والرفاه او المتأخرة شديدة التمسك بمقوماتها القومية ولا ترى في هذه الفكرة تبديلاً عنها .

ولقد رأينا روسيه التي تبنت الشيوعية المنطوى فيها معنى من معاني هذه الدعوة تعمد في اثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها الى النفخ في نار القومية لالهاب عزائم أبنائها في النضال من جهة وتعود من جهة اخرى الى سياستها التقليدية العنصرية فتبسط يدها على أوروبا الشرقية التي فيها شخصيات وطنية وجغرافية خاصة متذرعة بما يجمع بينها من صلات عنصرية سلافية كما انها لاتتوانى في تربص الفرص لتحقيق ما اعتادت السياسة القيصرية القديمة ان ترسمه من خطط وخطوات استعمارية بحجة ضمان ما تسميه حدودها القومية ومجالها القومي ونطاق امنها وسلامتها ايضاً .

ولقد رأينا الولايات المتحدة الاميركية التي كانت منطوية على نفسها والتي هي اكثر الامم حرية وأشدها انطلاقاً وابعدها عن فكرة الاستعمار والاستغلال وأقلها تقيداً بتقاليد قومية قدغيرت اثناء الحرب المذكورة وبعدها ذهنيتها وخطتها واخذت تسير سيرة الامم القومية الاستعمارية وتحاول بسط يدها وسلطانها ونفوذها الاقتصادي والسياسي أو بالأحرى الاستعماري والاستغلالي على العالم وجعل كلتها هي الحاسمة في مشاكله وقضاياه دون مبالاة بما تقترفه في سبيل ذلك من مناقضات الحرية والحق والشرف والعدل والنزاهة ودمغ محاولاتها بطابع ذاتي وقومي خاص حينما رأت نفسها أقوى من غيرها وأغنى من غيرها حتى انها لتشتبك الآن في نزاع وتشاد قويين سراً تارة وجهرة تارة اخرى مع بريطانية التي هي امها لغة ودما وتقاليد بسبيل ذلك .

وقد يرد على البال أن الدعوة الى الفكرة الانسانية والاممية العامة هي من مصلحة الامم الضعيفة المضطهدة لانها أشد من غيرها حاجة الى شيوع هذه الفكرة ورسوخها حيث تخلص بذلك مما يلم بها من اضطهاد وهوان وتسلط وتضمن لنفسها ما يعز عليها في نظام الاجتماع الراهن من المساواة والحرية ضمن المجموعة البشرية . وعلى احتمال صحة هذا الوارد فان الامم الضعيفة المضطهدة هي اول من يقع في خطر هذه الدعوة لانها تبث فيها ضعف المقاومة والاستمساك والأمل الكاذب الذي لا يغني شيئاً في مجال واقع نظام الاجتماع الراهن . واذا كان اليهود هم اكثر الدعاة الى هذه الفكرة وامثالها فان الذي كان يحفزهم الى ذلك هو وضعهم الاجتماعي الخاص من حيث انهم مشتتون في كل ارض ومعرضون لمختلف انواع الأذى بقطع النظر عن أسباب ذلك وبواعثه ، وليس لهم كيان قومي يهمهم ان يحافظوا عليه ، وهم انما يبثون هذه الأفكار في الأمم القوية وذلك من مصلحتهم ومفيد لهم دون ان يضرهم في حال . على اننا رأيناهم اخيراً قد اخذوا يغيرون نهجهم بعد أن صار لهم أو خيل لهم انه صار لهم كيان ووطن وصاروا يرون وجوب تقوية الدعوة والمقاومة القومية في امتهم وهم الذين تبنوا بث مثل هذه الافكار وانشاء المنظمات المتنوعة الاسماء منذ القديم بسبيلها مما فيه دلالة على ان وضعهم الاجتماعي الخاص هو الذي كان يملي عليهم ذلك النهج . وليس من شأن ذلك ان يكون نهجاً يحتذيه العرب ولهم ما لهم من الكيانات والمصالح القومية وهم معرضون لما هم معرضون له من المطامع والتربصات .

فالواجب القومي يقضي والحالة هذه على الحكومات العربية ومنظمات العرب وصحافتهم وعلمائهم وكتابهم ان يتضامنوا في التنبيه على ما في انبثاث هذه الفكرة من اخطار على كياننا القومي ودرئها وسد الثغرات التي يمكن ان تنفذ منها وأن لا يستهينوا بضعف تيارها وضيق ساحتها الآن . فاهمالها قد يساعد على توسيعها، ولا سيما ان اليهود الذين هم ابرع من يمكر ويكيد ويصول ويجول في هذا الميدان والذين قد توطد بيننا وبينهم من النزاع والأحقاد ما توطد سيضاعفون جهودهم ومكرهم وكيدهم لنا من هذه الناحية بالاضافة الى النواحي الأخرى . لأنهم

يعرفون ان كل ضعف يلم بنا هو قوة لهم وان كل تماسك ومقاومة فينا هو خطر وضرر عليهم . ومثل هذا يقال بالنسبة للانكليز والافرنسيين بنوع خاص الذين يسيطرون على كثير من بلادنا ويتربصون بنا الدوائر ويهدفون الى اضعاف بنيتنا القومية ليضمنوا بقاءنا في فلكهم من حيث ندري ولا ندري .

ومن تحصيل الحاصل ان نقول ان هذه الدعوة هي غير الدعوة الانسانية البارة الرحيمة التي تهدف الى توطيد المساواة بين أبناء الوطن الواحد ومساعدة الضعفاء والبائسين والمحرومين وانالتهم حقهم في الحياة الكريمة ، وهي كذلك غير الدعوة التي تهدف الى تعاون الأمم في مجالات الخير والبر والرحمة والسلام العام أيضاً او التي تهدف الى بث فكرة المساواة والحرية بين بني الانسان وبث فكرة مساعدة قادريهم على البر بضعفائهم وبائسيهم ومحروميهم بقطع النظر عن الفوارق الجنسية والدينية واللونية . فهذا كله سائغ وواجب معاً على شريطة واحدة هي ان نستوحيه من منابعنا المقدسة التي هي معين لاينضب والتي هي اقوى من دعا اليه باسلوب بلغ الغاية في الروعة والجلال والشمول ، وان لانتساق فيه وراء دعوات اجنبية مريبة تحتوي مبادىء واهدافا متناقضة كلياً او جزئياً مع مبادىء تلك المنابع ومع مقوماتنا ومصالحنا القومية معاً .

— ٣ —

٣ — **ومنها فكرة الاستغراب** . وهي الفكرة التي تستهدف تحبيذ واحتذاء كل ماعليه الغرب من مظاهر مدنية ووسائل وأساليب بدون قيد وشرط .

والاطلاق في الدعوة والفكرة ضار كل الضرر كما هو المتبادر . ففي الغرب السمين والغث والنافع والضار والصالح والطالح ، والمتوافق مع ملهماتنا ومنابعنا وتقاليدنا وروحنا وغير المتوافق وفيه مايعرقل مانتوخاه من التكامل والانسجام القومي ، وفيه مايضعف فينا التماسك القومي تجاه الطامعين والكائدين من ابنائه ودوله . هذا الى ما اخذ الغرب يشتد في الارتكاس فيه من المادية الشديدة

والاباحية الخلقية والاستهتار بالمثل العليا الدينية وغير الدينية ، والاستغراق في الشهوات واستحلال كل وسيلة في سبيل الغاية والتحلل من التقاليد والتكاليف مما اخذ يضج منه علماؤه وكتابه وباحثوه ويرون فيه خطراً كبيراً وشراً مستطيراً . فبالاضافة الى مايجب علينا من الاعتبار بالغرب واجتناب ماضج علماؤه وكتابه وباحثوه من الشكوى منه فان مصلحتنا القومية تقضي علينا بالتحذير من الاطلاق في الدعوة وتوجب التدبر فيما يجوز اخذه وما لايجوز وملاحظة ذلك في مناهجنا الثقافية والتربوية والتعاون عليهما من قبل الكتاب والاساتذة والصحفيين والخطباء والوعاظ والمؤسسات القومية والأندية الأخرى .

فهناك امور عامة مشتركة ليست مطبوعة بطابع أمة خاصة ولا تبقى كذلك حيث تتلقاها الامم عن بعضها وتحتذيها بيسر وسهولة اذا ماسارت في طريقها واستكملت اسبابها بدون حرج ولا ضرر ديني وقومي كالمسائل العلمية والفنية والصناعية . فالحاكي والمذياع والنور الكهربائي والسيارة والطيارة والقطار والباخرة والعلوم الرياضية والفلكية والفيزية والكيمائية والميكانيكية والطبية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والحقوقية والسياسية ، وسائر وسائل العلم والصناعة ومنتجاتها واساليبها الخ . كل هذا مما لا يمكن ان ينطبع بطابع قومي خاص او مما لا يمكن ان يبقى مطبوعا بطابع الأمة التي نشأ فيها لأول مرة ، واكثره وان كان اليوم غربياً فهو ملك الانسانية المجتهدة الدؤوبة التي تتصل اصولها بالأجيال والتي قد تكون اشتركت في اصلها وتطورها الأمم التي كان لها شأن ما في تاريخ الحضارة والمعرفة والتي لاشك في ان للعرب حصة غير يسيرة فيها ، فليس من مانع قط من احتذاء حذو الغرب واقتباس ماعنده من ذلك والسير فيه أبعد شوط ممكن بل نرى ذلك واجباً قومياً محتماً . فهو من جهة سبب تفوق الغرب علينا هذا التفوق العظيم الذي نلمسه في كل مظهر من مظاهر الحياة العملية والنظرية ، وتقصيرنا فيه هو من أهم اسباب ما نحن فيه من فقر وهوان وضعف وما نحن معرضون له او واقعون فيه من استغلال وتسلط وتهضم ، ولن نزال كذلك حتى نأخذ حظنا منه ونباري الغرب فيه مباراة تامة تجعلهم

ينفضون يدهم منا ومن بلادنا . ونحن نرى أمماً وبلاداً أقل منـــا عدداً أخذت حظها من ذلك فلم يبق للدول الكبيرة فيها مجال للتسلط عليها واستغلالها . وهو من جهة ثانية وسائل وأسباب رفاه وقوة وتمكن وحضارة وعمران ومعرفة وسعة أفق ونظام من حقنا وواجبنا أن نأخذ بنصيبنا منها على أوسع ما يمكن لنستمتع بنعيم الحياة وعزها واطايبها استمتاع الانسان العاقل لا البهيمة البلهاء ، وليس في منابع شريعتنا ولا تقاليد آبائنا ما يمنع من ذلك البتة ، بل فيهـا كل مايحض على اقتباس كل ما يكفل لنا القوة والسؤدد والرفاه والسعادة المادية والمعنوية واحتذائه .

وهناك أمور ليست أممية مشتركة وهي مطبوعة عند كل أمة بطابع تلك الامة الخاصة كالأخلاق والتقاليد والآداب القومية فليس من محل المراء في أن هناك اخلاقاً وتقاليدوآداباً وروحاانكليزية ومثلها أفرنسية ومثلها المانية ومثلها روسية . وليس من محل للمراء في ان للعرب أيضاً أخلاقاً وتقاليد وآداباً وذوقا وروحا خاصة بهم . وهذه الامور هي مقومات كل أمة ومنبع الهامها ودعامة قوتها المعنوية واستمساكها القومي . واصولها راسخة عميقة ترجع الى الأحقاب الطويلة المتباعدة ويشترك في تكوينها وترسيخها عوامل كثيرة ذاتية من الدم الى الجنس الى البيئة الى الدين الى اللغة الى التاريخ الى الحروب الى القصص والسجايا والمفاخر الخ حتى تصبح معقدة تعقيداً عجيباً وتغدو من أجل ذلك طابع الامة اللاشعوري الخاص في الوقت نفسه . فالاستغراب في هذه الامور أي تخلي العربي عن مقوماته هذه وتحليه بمقومات الأمم الغربية مؤد أولاً الى الارتباك والتشويش وغدو أذواقنا وأخلاقنا وتقاليدنا وثقافتنا وآدابنا مرقعة متناقضة ، وثانياً الى اضعاف مقوماتنا وبنيتنا ومقاومتنا القومية . ولن يؤدي في حال الى استبدال تقليد بتقليد وذوق بذوق وروح بروح وأدب بأدب استبدالاً صادقا وشاملا للاسباب والتعقيدات التي ذكرناها حتى ولا في الذين يعيشون أمداً طويلا في الغرب على ماهو مشاهد محسوس .

ومما يؤسف له أن شيئاً من الاستغراب قد طرأ على بعض بيئاتنـا وأفرادنا

بتأثير ضعف الشعور بالذاتية القومية وناموس تقليد الأقوى والدعايات والدسائس والاغراء والمدارس الأجنبية والتبشيرية فصار ابناء هذه البيئات والافراد مرقعين متناقضين في أذواقهم وميولهم وأخلاقهم وتقاليدهم وروحهم ، وقد اختلطت فيها الطوابع الانكليزية والافرنسية والالمانية والاميركانية والطليانية اختلاطاً ظاهراً بأمزيفاً صاروا به اعجوبة واضحوكة وضعفت به مقوماتهم ومقاومتهم القومية دون ان يصبحوا غربيين .

فالواجب القومي يملي علينا التفريق بين الأمور وعدم الاندفاع مع الريح كيفما هبت ، والواجب يملي على حكوماتنا ومؤسساتنا الثقافية والاجتماعية والأدبية والعلمية والصحافية وعلى المدارس واساتذتها بنوع خاص الاهتمام لهذه الناحية اهتماماً كبيراً والتضامن في التنبيه على مافي الاندفاع والاطلاق من الاخطار على كياننا القومي ودرئها وسد الثغرات التي يمكن ان تنفذ منها كذلك ولو كانت الآن ضيقة محدودة ، والدعوة الملحة الدائمة الى الاحتفـــاظ بطابعنا القومي الخاص فيما لنا من تقاليد وعادات وثقافة وأدب وفن وذوق وروح وخلق وسجايا مما يمكن أن يذكر أمثالاً منه كعواطف المروءة والأريحية والغيرة والنجدة وتقاليد الضيافة والجوار وروابط الاسرة وحياة البيت والحياء واحتشام المرأة وتحفظها وقوامة الرجل على البيت الخ الخ وتقوية المهمل الضعيف منها اذا كنا نريد أن نكون أمة قوية محترمة بين أمم الأرض .

واذا كان هناك ما يجب تعديله مما هو غير مستحب أو غير متسق مع ظروف الزمن وضروراته وليس في تعديله حرج ولا ضير فان هذا يجب أن يجري بكل احتياط وتؤدة وروية وأن يكون منسجماً ومتفقاً مع أرواحنا وسجايانا وماتتحمله أصول تقاليدنا الحسنة ولا يخرج عن ملهمات منابعنا وأن لايترك فوضى دون ما ضابط ولا ناظم .

على أننا لانخشى التخطئة اذا قلنا بان كثيراً مما نرى مكروهاً أو معوجاً مما عندنا من عادات وأذواق وأفكار شخصية أو اجتماعية أو بيتية لا يمت الى أصول

تقاليدنا ومنابعنا بسبب وثيق ، وهو طارئ علينا في أدوار انحطاطنا الأخيرة وأثر من آثارهـــا ، واننا اذا رجعنا الى منابعنا وماهياتنا وعصورنا الأولى استطعنا أن نجد معيناً لاينضب نستمد منه القوة والحيوية ، كما أننا اذا تفقدنا تقاليدنا وأخلاقنا وأذواقنا ومقوماتنا وآدابنا القومية وجدنا في أصولها ومقاصدها كثيراً مما يجب أن نحييه ونحتفظ به فخورين معتزين .

ونحب أن نستدرك أمراً : وهو أن مسائل ووسائل اللباس والأثاث والطعام والشراب الغربية تكاد تصبح أممية ولم يعد لها طابع قومي خاص . فلسنا نرى والحالة هذه بأساً في اقتباس ماليس فيه مغايرة للمحظورات الدينية التي حظرت في الحقيقة المصلحة الانسانية الصحية والخلقية والاجتماعية ، بل ونرى في ذلك خيراً وفائدة من حيث أنها تكفل الانسجام والاتســـاق وبالتالي وحدة الزي والوسائل مما فيه ازالة لأسباب ومظاهر التمايز بين طبقات الأمة . وقد ثبت أن الزي الغربي أي السروال الضيق والسترة أو القميص أدعى الى سهولة الحركة والعمل من القنباز والجلابية والاردية والسراويل الفضفاضة وهذا فضلا عن مافي تنوع اللباس الذي يرتديه العرب من مشاهد التنافر والتباين . فمن المستحب ان لم نقل من الضروري أخذ سكان المدن به لتوفير أسباب سهولة الحركة والعمل ولتوحيد الزي وإزالة التباين والتنافر في مناظره . كذلك فان تنوع أشكال غطاء الرأس في مدننا يجعل مظهر الناس متنافراً جداً حيث يستطيع المراقب أن يعد عشرين نوعاً من الطربوش الى اللبدة الى القاووق الى القلبق الى الكوفية والعقال الى الكوفية اللف الى الطواقي والعمائم المتنوعة الأشكال والألوان . فمن المستحب إن لم نقل من الضروري أخذ سكان المدن بزي موحد . ولا مانع من دين ولا تقليد ولا ذوق أن يكون هذا الزي شيئاً معدلاً عن القبعة سهل الاستعمال رخيص الكلفة . ويعرف الجميع أن الطربوش الذي يغطي العرب به رؤوسهم في المدن ليس عربياً في أصله . ولقد أخذت قوات البوليس والجيش تستعمل شكلاً من أشكال القبعة فجاء مقبولاً غير منكر . وليس من مانع من تعميم هذا الشكل بعد تبسيطه وتمدينه . ولقد أخذت العادة تجري على

كشف الرأس ولسنا نرى في هذا مايخالف ديناً ولا ذوقاً ولا تقليداً. وقد خصصنا المدن بالذكر لأن الكوفية والعقال والثوب الفضفاض والعباءة زي جميل ونافع في القرى والبادية .

-٤-

٤ — ومنها الشيوعية — وهذه الحركة قد أخذت تنشط في بلادنا قليلاً او كثيراً . والذي ينعم النظر في نشاط واتجاه القائمين عليها يرى أنها وسيلة من وسائل الدعاية الروسية وآلة من آلاتها في الدرجة الأولى على ماقامت عليه البراهين الحاسمة في مختلف المناسبات فكل دعوة او اتجاه او موقف يصدر عن روسية يردده الشيوعيون ولو كان متناقضاً متعارضاً .

فقد ظل زعماء روسية الشيوعية والمانيا النازية يتبادلون أشنع التهم وأقذع الشتائم فكان الشيوعيون في بلادنا بل وفي كل مكان يرددون تهم زعماء روسية وشتائمهم ويعتبرون النازية ألد الأعداء وأقبح القبائح مع ان الاشتراكية وفكرة الدولة تجمع في الحقيقة بين النازيين والشيوعيين كما يجمع بينهم أسلوب الحكم الدكتاتوري والحزب الواحد الذي كان قائماً في روسية والمانية .

ولما عقد ميثاق الصداقة وعدم الاعتداء بين هتلر وستالين سنة ١٩٣٩ وسكتا عن تبادل التهم والشتائم سكت الشيوعيون في بلادنا بل وفي كل مكان كذلك عنها بل وأخذوا ينوهون بما يجمع بين النازية والشيوعية من أساليب ونظم ومبادئ ويرون ان من الواجب ان يكونوا جبهة متحدة ضد الرأسماليين ويغدون اصدقاء متعاونين في الدعاية والنشاط .

ولما هاجم هتلر بولونيا على اثر عقد هذا الميثاق لم ير زعماء روسية الشيوعية بأساً في مشاركته في العدوان على استقلال هذه الدولة وحريتها وحياتها ، بل وبدا ان هذا كان من جملة ما كتم من مواد الميثاق وغايته . ومع في هذا من تناقض صارخ

لدعوة حرية الشعوب واستقلالها التي يتبناها الشيوعيون لم يلبثوا يلنت شفةورأوا الأمر مشروعاً ومعقولا .

وقد ظل زعماء روسية الشيوعية واميركا وانكلترا وغيرها من الدول الغربية التي تدخل في مسمى الدول الرأسمالية في نظر الشيوعية يتبادلون كذلك أشنع التهم وأقذع الشتائم ، وكان الشيوعيون في بلادنا بل وفي كل مكان يرددون صدى تهم زعماء روسية وشتائمهم . فلما اشتبك الألمان والروس وتحالفت روسية الشيوعية والدول الرأسمالية وانقلب الأمر على عكسه فغدا الأصدقاء أعداء والأعداء أصدقاء ، ردد الشيوعيون في بلادنا هذا الموقف أيضا فانقلبوا أعداء ألداء للنازيين الاشتراكيين وأصدقاء أوداء للرأسماليين وصاروا يتعاونون معهم في مختلف الميادين .

ولما انتهت الحرب وأخذ الخلاف يذر قرنه بين روسية والمعسكر الغربي على الغنائم والمآرب ثم تطور حتى أصبح عداء سافراً لم يلبث الشيوعيون في بلادنا بل في كل مكان أن رددوا هذا الموقف فانقلبوا من جديد أعداء ألداء لأصدقاء الأمس ...

ولقد كانت روسية تتشدد كل التشدد في أمر التملك والحيازة والدين وتجنح الى الاباحية والالحاد والشيوع في كل شيء ، فكان الشيوعيون في بلادنا يدافعون عن كل ذلك ويعتبرونه مثلاً عليا للحياة الصحيحة العلمية والواقعية ويشيدون بها ويتخذونها وسيلة من وسائل دعوتهم ، فلما اصطدمت روسية بواقع الحياة بعد التجارب وعدلت دستورها سنة ٩٣٢ وخففت بعض الشيء من بعض ما كانت تتشدد فيه من ذلك لم يلبث الشيوعيون في بلادنا ان تراجعوا وأخذوا يبررون ما كان كأنه لم يكن عقائد ومبادىء لا تقبل هذا التبدل السريع .

ولقد كانت الشيوعية الروسية تبشر بالانسانية العامة وتحارب الفكرة العنصرية والفكرة القومية والحدود القومية والسياسة القومية والمناهج

الاستعمارية وما يتصل بذلك من مطامع ومصالح حتى لقد كانت لهم في سني ١٩١٩ و ١٩٢٠ و ١٩٢١ مواقف حميدة في هذا الصدد مع تركية الحديثة وايران حيث الغت ما كان يمت الى العهد القيصري من عقود وعهود وديون وامتيازات ، وكان الشيوعيون في بلادنا يرددون ذلك ويعدونه مثلا عليا للحياة الحرة السعيدة والانسانية . وفي الحرب وبعدها تطورت روسية في كل هـذا تطوراً عظيماً ، فاخذت تسعى في تحقيق ما يمكن أن يسمى بالمطامع القومية العنصرية والاستعمارية القيصرية وتقف من ايران وتركية عكس الموقف الذي وقفته قبل ، وتثير الروح القومية في شعوبها ، وترمي الى السيطرة على ما تقدر عليه من البلاد المجاورة لها من الشرق والغرب والجنوب ، وتسير فيما بسطت يدها عليه من بلاد على اسلوب شديد في التحكم والقمع والاستغلال . وكل هذا مخالف لما كانت تبشر به ، فلم ينبث الشيوعيون في بلادنا ببنت شفة كأن ما كان لم يكن نقضاً صارخاً للمبادىء والمثل العليا التي يبشرون بها .

ومن نقائض الشيوعيين في بلادنا انهم يبشرون بالحريات العامة ويدعون الى محاربة التحكم والتسلط والاستبداد والكبت ، ويحتجون اشد الاحتجاج على ما يبدر من الحكومات من مثل ذلك ـ ومعهم الحق ـ بينما يدافعون اشد الدفاع عن اسلوب الحكم في روسية الشيوعية وفيما انبسط ظلها عليه من دول اخرى وهو ديكتاتوري شديد ليس الفرد في نطاقه اكثر من قطعة من جهاز ، وحرية الرأي والفكر والنقد والنشر والاجتماع بل والعمل تكاد ان تكون معدومة ! وحجتهم انه حسن مستوى الحياة ومرافق البلاد والتعليم ووفر وسائل الصحة والعلم والعمل والحياة المعقولة لجماهير الشعب في المدن والريف قليلا او كثيراً ؛ كأن القيم الانسانية الاخرى لا مكان لها في الحياة الانسانية ؛ وكأن حرمان الفرد من حرية الفكر والعمل والحكم الديكتاتوري وتحكم الاقلية في الاغلبية ـ لأن المنتسبين للحزب الشيوعي لا يزيدون عن واحد من عشرين من الشعب ـ ليس متناقضاً مع ما يبشرون به . وبقطع النظر عما يمكن ان يكون من مبالغة في وصف ما تم من التحسين المادي ورفع مستوى المعيشة فان هـذا مع ذلك ليس

منوطاً بمثل الاسلوب الديكتاتوري الذي يفقد فيه الفرد والجماعات حرياتهم الفكرية المتنوعة . وهو متوفر اليوم أحسن وأوسع بكثير مما يمكن ان يكون توفر في الدول الشيوعية في كثير من دول اوروبا واميركا مع استمتاع الافراد والجماعات فيها بحرياتهم المتنوعة باوسع مقياس . وقد يكون في المبادىء الاشتراكية ماهو صالح مفيد في صدد ازالة أو تخفيف الفروق الفاحشة في الثروة والحيازة والمعيشة وتوفير أسباب الحياة المعقولة لجماهير الشعب . غير ان من الممكن ان تطبق بطريقة معتدلة متزنة لا يحرم الناس فيها من حرياتهم ولا يكونون فيها آلات صماء ولا يخضعون للحكم الديكتاتوري الشديد كما ثبت ذلك في انكلترة وغيرها .

والمساعدات المالية الخارجية او بالاحرى الروسية تكاد تلمس فيما يقوم به الشيوعيون في بلادنا من حركات ترديدية لتوجيهات الشيوعية الروسية في مختلف المناسبات فهناك اشخاص عديدون ليس لهم مورد رزق وهم متفرغون لقيادة هذه الحركات ، وهناك اعمال عديدة من منشورات ومطبوعات واماكن ورحلات واسفار وحفلات واجتماعات وتجمعات تحتاج الى المال الذي لا يمكن المنتسبين للشيوعية في بلادنا ان يقدموه .

ومع ما يحتمل او يجزم به بان بعض الذين يقودون هذه الحركات اصحاب عقيدة وايمان بالشيوعية فان هناك فئات عديدة تندمج في هذه الحركة ولا تفهم من مبادئها وأهدافها الا القشور والتوافه ، ولا بد من انها تنتفع مادياً من الحركة التي تندمج فيها من آن لآخر . وليس في امكان المنتسبين للشيوعية او قوادها المؤمنين ان يضمنوا هذه المنافع المادية التي تربط هذه الفئات بالحركة الشيوعية من جيوبهم .

يضاف الى هذا ما يبدو ممن يتسمون بسمة الشيوعية في بلادنا من استهتار بالغ بالمقومات والتقاليد القومية والدينية والاجتماعيه ومن الجنوح الى الالحاد والاباحية وبث الفوضى والتحلل من الواجبات والتكاليف والتبعات العامة ، وما يندمج كذلك في الدعوة الشيوعية من محاربة التملك والحيازة والادخار والتوارث ومن تسخير الفرد للدولة تسخيراً شديداً يكاد يفقده شخصيته وحريته

وهو يفقده اياهما فعلا ما فيه محاولة غير مجدية لتعديل طبائع البشر بل غرائزهم، واهدار اقواهم ومواهبهم وكواماتهم .

وقد اخذ الذين يقودون النشاط الشيوعي يغررون بالفتيان الذين لم يبلغوا من النضج ما يميزون به بين الغث والسمين ، وينفذون الى عواطفهم ويستغلون عطالة عاطليهم وحماسة متحمسيهم في حركاتهم ونشاطهم ودعوتهم .

وفي كل هذا ما فيه من ضرر كبير وشر مستطير من حيث انه يجعل فئات من امتنا غير مندمجة في اهداف امتهم القومية ومطامحها ومصالحها وتقاليدها ومقوماتها ، ومتواثقة مع الاجنبي تسير في ركابه فيما يراه من سياسة واتجاه ويهدف اليه من مطامع ومطامح ومآرب ، ومن حيث انه يفتح ثغرة في صفوف امتنا ويثير البلبلة في افكارها ويضعف بنيتها ومقاومتها .

وتحارب الحكومات العربية النشاط الشيوعي بالقمع والمطاردة والمصادرة والسجون . والذي نعتقده ان هذا الاسلوب غير كاف بل غير مجد ، بدليل ان الحكومات العربية تجري عليه منذ سنين دون ما نتيجة شافية ، وفي كل مناسبة تبدو آثار ذلك النشاط في مختلف البلاد العربية باستمرار وباصرار لانه يتلقى العون والمدد والتوجيه من الخارج باستمرار وبراعة ، ولأن من المحتمل بل من المؤكد ان يكون بعض القائمين على هذا النشاط من العرب قد غدوا مؤمنين بالشيوعية وغدت عقيدة فيهم ، والقمع لن يزيد ايمان المؤمنين وعقائد المعتقدين الا شدة وقوة .

والى هذا فان في بلادنا استقطابا شديداً في الثروة والبذخ والتبذير والسفه والنفوذ الاقطاعي والاسروي والمالي في اقلية ضئيلة واستقطابا شديداً في الفقر والادقاع والحرمان في الاكثرية الكبرى ، كما أن فيها كثيراً من مظاهر الفساد والبؤس والفوضى وسوء الجهاز الحكومي وأسلوب الحكم . وفي كل هذا مادة دسمة يستمد منها دعاة الشيوعية قوة كما أن فيه سنداً قويا من الحقيقة والواقع يستندون اليه في دعوتهم ونشاطهم .

والصلاح الجدي في رأينا هو معالجة الاستقطاب الشديد ومظاهر الفساد والسوء بحيث تحرم الشيوعية من سندها ومن قوتها وثغرة نفوذها. وذلك بالدعوة الى منهج يرمي :

١ – الى اصلاح جهاز الحكم وروحه وأسلوبه اصلاحا جديا .

٢ – الى محاربة الفساد وسوء الاستغلال محاربة شديدة .

٣ – الى تحديد ملكية الأراضي واستملاك ما يزيد عن الحد الأدنى الذي يجب أن لا يزيد عن الكفاية المعقولة ، وتوزيع أراضي الدولة والأراضي المستملكة على الذين لا أرض لهم أو لا أرض لهم تكفيهم وهم الجمهور الأعظم من الفلاحين ومساعدتهم على التأسيس والاستثمار بشروط سهلة .

٤ – الى تحديد ملكية العقار واستملاك مايزيد عن الحد الأعلى الذي يجب كذلك أن لا يزيد عن الكفاية المعقولة . وتوزيع العقارات المستملكة على المحرومين والمحتاجين بشروط سهلة .

٥ – الى السير على سياسة الضرائب التصاعدية بحيث يؤخذ من اصحاب الارباح الكبيرة النسب الكبيرة التي يمكن أن تساعد على تغذية المشاريع الاصلاحية والاجتماعية العامة المتنوعة .

٦ – الى فرض ضرائب على الثروات ورؤس الأموال متناسبة مع الدرجات والمقادير وكبيرة على ما هو كبير منها حيث تساعد على تغذية المشاريع الاصلاحية والاجتماعية العامة المتنوعة .

٧ – الى فرض ضرائب على التركات متناسبة مع الدرجات والمقادير وكبيرة على ما هو كبير منها حيث تساعد كذلك على تغذية المشاريع الاصلاحية والاجتماعية العامة .

٨ – الى سيطرة الدولة على المرافق والمنشئات والمشاريع والصناعات الكبيرة التي لها مساس بمصالح الجمهور وحياته وتأميمها ومنع احتكارها على شرط ان يكون ذلك وسيلة الى تخفيف التكاليف والاعباء المعاشية عن الجمهور .

٩ — الى وضع القوانين الكفيلة بحماية العمال والفلاحين من أصحاب الاعمال والأملاك والحائلة دون اضطهادهم وارهاقهم والضامنة لهم الحياة المعقولة .

١٠ — الى توفير أسباب العلم والصحة والعلاج والحياة المعقولة لكل الطبقات وسد عوز الفقراء العاجزين عن الكسب من أيتام وشيوخ ونساء وذوي عاهات ومرضى وايجاد الملاجىء لهم .

١١ — الى استغلال امكانيات وثروات البلاد على أوسع درجة ممكنة لتوفير العمل والكسب والحياة المعقولة لكل الفئات .

وهذا المنهج الذي سوف نلم بمواضيعه باسهاب أوسع في فصول أخرى من الكتاب هو وحده الكفيل بالقضاء على النشاط الشيوعي والدعوة الشيوعية وازالة الفروق العظيمة القائمة بين طبقات الشعب . وهو متسق مع منابعنا المقدسة بحيث تمده بقوة تأييدية تجعل الناس يتقبلونه برضى نفس غير متبرمين ولا مرغومين . وتنفيذه واجب علينا سواء أكانت هناك دعوة وحركة شيوعية أم لم تكن . في القرآن والسنن النبوية والراشدية نصوص وتلقينات وملهمات عديدة مؤيدة تسوغ القول ان الدين الاسلامي قد جعل في أموال الأغنياء حقاً — والكلمة تشمل المال المنقول وغير المنقول — للمحرومين والمحتاجين ، وأنه نبه على أنه لا يجب ان يكون المال دولة بين الأغنياء وهم الفئة القليلة ، وأنه جعل الدولة مسؤولة عن سد عوز الفقراء والعاجزين وتيسير الحياة المعقولة لهم ، ورتب لهم الانصبة في ما يدخل خزانتها من موارد وتجبيه من ضرائب ، وجعل للسلطان سلطة على أخذ المال من الاغنياء ، وسد عوز الفقراء والمحتاجين ، وانه جعل النصيحة والامانة والاخلاص واقامة القسط بين الناس وضمان العدل الاجتماعي والحرية والمساواة والأخوة بينهم دون ما تمايز ولا تحكم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنع الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، واللين والبر والتعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالصبر والمرحمة والحق ، ومقاومة البغاء بكل قوة وتضحية من الاسس التي يقوم عليها السلطان والمجتمع في الدولة الاسلامية .

فمن الواجب على كل واع وقادر من رجالات الأمة وهيئاتها وصحافتها وأساتذتها وخطبائها وكتابها أن يشتدوا في الدعوة اليه بدون كلل ولا توان .

(٥) مشكلة ميوعة الاخلاق في الناشئة وضعف التربية الدينية

- ١ -

لقد ذكرنا في مناسبة سابقة ما كثرت الشكوى منه من ميوعة الخلق في النشء الجديد . وهذه مشكلة من المشاكل الخطيرة التي لها أثر عظيم في حاضر الأمة العربية ومستقبلها والتي قد تكون من أشد العثرات في سبيل تقدمها وتكاملها .

فقد أخذت الناشئة تشتد جنوحاً الى اللهو والعبث واللذائذ ونعومة الحياة ورفاهيتها واستغراقاً فيها بما لا يقاس عليه ما كان عند الجيل السابق . وفي هذا ما فيه من أسباب إضعاف الرجولة والمقاومة والجد والجلد فيها . وقد ضعف احترام الواجبات والتقاليد فيها كثيراً ولم تعد تبالي كثيراً بحرمة الآباء وروابط الأسرة وقداسة الأعراض ولا تستحي من المواقف الممجوجة والتصرفات المخجلة خلافاً لذلك الجيل ؛ وفي هذا مافيه من أسباب الانحلال والاباحية . ولم تعد تتحمل أو تريد أن تتحمل ما كان يتحمله ذلك الجيل من شظف وتعب وجد ودأب وحرمان من الكماليات واللذائذ . ودأبها وجلدها ضعيفان جداً ، ولا تكاد تلقى عثرة أو تتلقى صدمة في طريقها حتى تتبرم بالحياة وتفتر منها العزيمة ، ويكاد يكون قصارى همها حياة هينة لينة ناعمة تلبي لها فيها كل رغبة ولا يقيدها فيها أي قيد .

وهـذه الأخلاق اكثر ما تكون في الناشئة المثقفة قليلاً أو كثيراً ونطاقها آخذ بالاتسـاع بنسبة اتساع نطاق التعليم وهـذا مما يزيد المشـكلة خطورة وخطراً .

ومما لاريب فيه ان لتطور الزمن أثراً عظيماً في هـذه المشـكلة . فالمدنية الحديثة يسرت كثيراً من الوسائل التي لم تكن قبل في المواصلة والمشاهدة والطباعة والصحافة وأساليب الحياة ولهوها وعبثها بنوع خاص . وقد كثر تداول المجلات والكتب الماجنة التي تقص حقائق او خيالات ما في الغرب من ارتكاسات اخلاقية واجتماعية وأساليب الحياة الناعمة الأنيقة . وقد عمت دور السينما التي تعرض كثيراً من المشاهد والروايات المماثلة . فأدى كل هذا الى اشتداد رغبة النشىء الجديد في المحاكاة والتأسي والظفر بالحياة الناعمة الرفهة وملذاتها على أهون سبيل ، والتذمر من الجد والجلد والتقاليد والقيود التي تحول دون هذه الرغبة والجنوح الى التحلل منها ؛ والانصراف عن الكتب الأخلاقية والاجتماعية والأدبية الرفيعة ونصائح الآباء والحكماء والعلماء وتوجيهاتهم .

ونعتقد أن المناهج والتنظيمات المدرسية أثراً كبيراً في هذه المشكلة أيضاً . فقد كادت تخلو من أسباب الحصانة منها ، بل ان فيها ما يكاد يغري بها . ومن أوجب الواجبات ان تشتد الدعوة وتبذل الجهود في اصلاح الخلل وتلافي النقص واعداد أسباب الحصانة قبل تفاقم الخطر الماثل .

— ٢ —

وطبيعي أن من السبل المهمة لتلافي الخطب هو الاهتمام لاصلاح المناهج والتنظيمات المدرسية وتدعيمها بما يساعد على الحصانة والقوة الخلقية نظرياً وعملياً.

ويتبادر لنا أن من أهم اسباب ضعف الحصـانة هو ضعف الوازع الديني في النشىء الجديد وبالتالي هو ضعف التربية الدينية في مدارسنا . وقد كان ذلك سبب ضعف الحصانة أو انهيارها في الغرب .

فمن شأن التربية الدينية ان تقوي نوازع الخير والحق والعدل والاحسان والفضيلة والقيام بالواجب ومراقبة النفس والاعتدال واحترام حقوق الغير وماله وعرضه والصبر والصدق والجلد والتضحية والحياء والتعاون على البر والتقوى والتواد والتراحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المرء وأن توجد فيه حصانة من الارتكاس في الآثام والمنكرات والشهوات وأسباب الفتنة والريب والزيغ واستحلال المحرمات ، وأن تشد فيه عزيمة الدفاع عن حريته ووطنه والرغبة في أن يكون عزيزاً كريماً ، وأن تصرفه عن المجون والعبث والاستهتار وتحقيق المآرب من أهون سبيل الى الجد والتعمق والتروي والتحلي بفضيلة الوقار والجد .

ولحسن الحظ ان الزمام الذي فلت من يد الغرب بالنسبة لهذه السبيل المهمة لم يفلت بعد من يد الشرق . فان الروح الدينية مازالت قوية عامة ، وما زال الناس مندمجين فيها اندماجا شديداً بقطع النظر عما يمكن أن يورد من ملاحظات على شكل هذا الاندماج ونتائجه ، وهذا مما ييسر لمن في ايديهم زمام أمور العرب وتعليم ناشئتهم ويدركون ما يحدق بامتهم من خطر أكيد من جراء تلك الميوعة أن يتلافوا الأمر بسهولة ، وأن يضعوا من المناهج والتنظيمات مايكفل الانتفاع من التربية الدينية القويمة .

لذلك نعتقد أن من الواجب أن تشتد الدعوة الى الاهتمام لهذه التربية حتى تؤتي أكلها قبل استفحال الخطر وافلات الزمام الى جانب الاهتمام للتربية الاخلاقية والاجتماعية التنظيمية .

— ٣ —

وعلى اعتبار أن كثرة العرب الساحقة في مختلف أقطارهم مسلمة فان من الواجب الاهتمام لتنشئة النشىء على الهدى القرآني وبث تعاليمه فيهم في نطاق منهج يخلو من الحشو والتعقيد ويستمد من الأصل الصافي السنى ، ويهتم الواجبات الدينية العملية التي تذكر بالله دوماً وتجعل المرء رقيباً بنفسه على نفسه ، بل وأن

من الواجب أن يشمل هذا الاهتمام مختلف أوســـاط الأمة حتى تقوي تلك النوازع وتشتد تلك الحصـانة في سواد الشعب ، وأن تتخذ التدابير الكفيلة بتخريج دعاة بارعين ووعاظ نابهين وأساتذة نيرين للقيـام بهذه المهمة في المدارس والمساجد على السواء .

والنقطة الأخيرة ذات خطورة خاصة تستلزم انتباهاً واهتماماً عظيمين . فان كثيراً من الخرافات والمفارقات والاسرائيليات والأكاذيب قد امتزجت في العلوم الدينية وملأت كتب التفسير والدين ، وهي سبب معظم مايملأ أذهان المسلمين من أوهام وأباطيل وأفـكار سخيفة لاتمت الى أصل الدين وروحه بسبب ، كما هي سبب كثير مما هم عليه من عادات وتقاليد وسبب غدو الفـكرة الدينية عقيمة المدى والمعنى السامي قاصرة على المظـاهر والأشكال الآلية واللفظية ؛ وكل هذا في الوقت ذاته عثرات في طريق التطور الفـكري والاجتماعي في الأمة العربية . وقد آن للمسلمين ان يتخلصوا منهـــا بتلقي دينهم من منابعه الصافية بواسطة زمرة مخلصـة تخلصت منها وثقفت الاسلام على حقيقته وتشربت روحه وتلقيناته وتوجيهاته السامية ، وأن تكف عنها أيدي وألسنة الجاهلين والجامدين من مدعي العلم الديني الذين لايعرفون منه إلا قشوراً مشوهة ولم ينفذوا الى روحه الصافية القوية .

ونحن على يقين تام بانه إذا اهتم لهذه الناحية الاهتمام القوي الصادق أمكن تنشئة ناشئة صالحة لاميوعة ولا انحلال في أخلاقها وروحها ، محصنة من الآثام والمنكرات والموبقات والارتـكاس فيها ، مستعدة للقيام بواجباتهـا نحو الله والوطن والناس قياماً حسناً ، متشبعة بفـكرة الحق والعدل والواجب والبر والصدق والتضحية ، وبالتالي أمكن بناء أمة جديدة قوية الروح والأخلاق والقلب والوطنية والصبر والتضحية ، مستطيعة أن تنهض بنفسها ووطنها نهوضاً قوياً حتى تصل الى أعلى مقامات الـكرامة والقوة والمجد والحضـارة . والمهم جداً هو الاسراع وعدم اضاعة الوقت وافلات الزمام حتى لانندم حيث لا ينفع الندم .

ولقد كان القرآن هدى الامة العربية الذي اهتدت به في صدر الاسلام الاول واستمدت منه ايمانها ونشاطها وحيويتها فكان لها تحت رايته تلك الصورة الرائعة من قوة في السلطان وبسطة في الارض وحضارة ساطعة . وسيظل اقوى مؤثر في حياتها لأنه كتاب دين كثرتها الساحقة ، ولأنه احتوى من الأسس والقواعد والمبادىء والتلقينات ما من شأنه ان ينهض بها الى ذروة الكمال في كل مجال من مجالات الحياة ويوجهها في احسن السبل وأشرفها وانزهها واتمها سناء وصفاء وكمالاً وحقاً ، ولأن الدين الاسلامي الذي يمثله ليس ديناً روحياً أو أخلاقياً أو عنصرياً أو اقليمياً وحسب كما هو حال الديانات الاخرى أو جلها بل هو دين عقيدة وسياسة ونظام وعمل وواقع معاً ثم هو دين انسانية كاملة وأخاء عام سياسي واجتماعي يدخل في نطاقه جميع الناس . فمن الحري بالأمة العربية بل انها لأحرى الناس جميعا ان يكون هداها في حياتها الجديدة .

ولقد كانت حركة الاخوان المسلمين تجربة عظيمة النجاح ، كشفت عن رغبة شديدة في المسلمين في الاندماج في الدعوة الى الهدى القرآني . ولقد استجيبت دعوتها في القطرين المصري والشامي بنوع خاص بمقياس واسع وانضوى تحت لوائها عشرات ألوف المسلمين من مختلف الاوساط وفيهم عدد عظيم من المثقفين وذوي المراكز الاجتماعية المرموقة ، فبدت حركة مباركة في حقيقتها ومظهرها ومستقبلها بما كان من انفتاح الاذهان والاسماع لهذه الدعوة الفاضلة وبما كان من نشوء جماعة كبيرة تنمو يوما بعد يوم قوية في ايمانها وأخلاقها موازنة بين حظ الدنيا وحظ الآخرة وبالتالي متحلية بأخلاق القرآن الكريمة . وقد تعرضت للمحن فصمدت لها ، ودعتها الظروف للتضحيات المتنوعة بالمال والنفس فبذلتها ، وسنحت لها فرصة الجهاد في فلسطين فخفت اليها اعداداً وامداداً وجهاداً شخصيا فضربت أحسن الأمثال وأقامت اقوى البراهين على ما يمكن ان تؤتيه الدعوة والتربية الدينية من ثمرات ناضجة اذا تولاها دعاة أقوياء الخلق والايمان واسعو الافق قد فهموا معنى الدين ومداه وتشربوا مبادىء القرآن والسيرة النبوية وهو ما تيسر لهذه الجماعة فكان من اهم اسباب نجاح الدعوة . وكل ما نأخذه عليهم خلطهم

الدعوة بفكرة الدولة قبل الأوان حيث اغتروا بالعدد الذي انضوى تحت لواء دعوتهم وظنوا انه آن لهم أن يعملوا للوصول الى الحكم فأثار ذلك روح النزاع والمنافسة ، ونبه اعداء الفكرة من ملحدين ومستعمرين ومتربصين فأخذوا يدسون عليهم ويمكرون بهم ويحاربونهم بالسر والعلن ويشغلونهم عن دعوتهم . وكم كنا نتمنى ـ ولا نزال نتمنى ولم يفت الوقت ـ ان يظلوا متفرغين لنشر الدعوة والعناية بيلوغها الى اعماق القلوب (١) في اوسع افق حتى تشمل اكبر عدد من الأمة العربية ؛ حيث يؤدي هذا الى انقلاب أخلاقي واجتماعي وسياسي عظيم قد تعيد نتائجه عظمة الاسلام الاولى ونوره الساطع الوهاج .

-٤-

وقد يكون موضوع الدعوة الى الهدى القرآني والتربية الدينية على اساسه موضع أخذ ورد من نواح عديدة ، حيث يمكن ان يقول قائلون :

١ ـ ان فيها دعوة الى الرجعة الى الوراء اربعة عشر قرنا بينما العالم يطير الى الأمام .

٢ ـ ان فيها تناسيا لما عليه المسلمون وحكوماتهم من الفوضى والجهالة والشذوذ والتناحر والارتكاس مع أن الملوك والخلفاء والامراء والحكام والوزراء والعمال كانوا مسلمين وكان القرآن بين ايديهم . وكذلك الحال في سائر المسلمين الان مع ان صلتهم بالقرآن غير منقطعة .

٣ ـ ان فيها ابقاء للأمة العربية ضمن الاطار الشرقي القديم الضيق والتعاليم التي أفقدتها قدسيتها الدينية المرونة والحركة وقابلية التطور في حين يجب ان تشتد الدعوة الى الانطلاق التام واعتناق أساليب الغرب في جميع مظاهر الحياة لانها هي الافق الأوسع ولأنها هي القائمة على العلم والتجربة والضامنة لحرية الفكر وانطلاق العقل والتجديد المستمر دون ما عائق من دين وعثرة من تقليد

---

(١) نسجل لحسن الحظ ان هذا مما تنبه له زعماء الحركة واخذوا يعملون في اتجاهه .

قديم ولان الجمود امامها انما يؤدي الى الانكسار والخذلان والبقاء في حالة الضعف والذل والهوان وتحت وطأة الغرب وسيطرته واستغلاله .

٤ – انها تتعارض مع المصالح القومية العربية والوحدة القومية العربية والفكرة العربية القومية في أصلها حيث يعتبر الاسلام ذلك دعوة الى العصبية ويشجبها ، وحيث فتح الاسلام الباب لغير العرب فدخلوا فيه فكادوا يبتلعون العرب واستغلوا المساواة التي منحها لهم الاسلام فدحروهم وتسلطوا عليهم في في الكيان العام الذي تألف من العرب وغير العرب دون أن يجد العرب في ذلك غضاضة وكبير أمر فادى الى تمزقهم وهوانهم .

ويمكن أن يقال جواباً على هذه الاقوال :

١ – ليس في الدعوة الى القرآن رجعة ولا قهقرى بل ان فيها لتجديداً وثورة اصلاحية ، وان مافي القرآن من سعة في الافق ومرونة في التطبيق وسمو في الاسس والاهداف ونفوذ في التوجيه والتلقين حينما يدرس بترو وامعان ما لا يبقى محلا للمراء وما يضمن الامة التي تسير عليه كل اسباب التقدم والقوة .

٢ – انه لا يمكن لأي كان ان يدعي صادقا ان اي عصر استطاع ان يتفلت من تأثير المثل العليا الاخلاقية والاجتماعية والانسانية التي ألهمتها الاديان والفلسفة والحكمة منذ القديم ، وان مما لا يمكن لأحد ان ينكره ان ما عند الغرب اليوم من آداب وافكار ونظريات ومثل ونظم وتقاليد يرجع كثير منه الى ذلك القديم . فالدعوة الى استلهام القديم لا يمكن ان تكون دائماً دعوة الى الرجعة والقهقرى مادام في هذا القديم من المثل العليا مايساعد على افضل وسائل الحياة ومظاهرها .

٣ – ان من الحقائق التي لا يمكن المماراة فيها أن النظام شيء وتطبيقه شيء آخر وان عدم تطبيق نظام ما لا ينتج عنه دائماً عدم صلاح ذلك النظام وان شذوذ امة او دولة في ظرف ما عن الطريق القويم لا يتأتى دائماً عن عدم صلاح ما عندها وان هذا ليس محصوراً في بلد دون بلد وزمن دون زمن . ومع ذلك فلا ينكر الا مكابر ما سجله التاريخ للخلفاء الراشدين والسابقين الأولين والذين

اتبعوهم باحسان الذين فهموا القرآن ومبادئه ومداه فساروا على هداه وهدي الرسول الكريم الذي جاء به فضربوا اروع الامثلة على التجرد والزهد والتضحية واقامة العدل والتزام الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى والدعوة الى الخير وفعله واحترام العهد فاستطاعوا ان يدكوا معالم الامبراطوريات العظمى وان يقيموا على انقاضها دولة اسلامية حرة عادلة نزيهة لا بغي فيها ولا ظلم ولا خوف فيها ولا هضم ، ثم ما سجله التاريخ كذلك لكثير من الدول الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها من مدنية شامخة البنيان ساطعة السناء قوية السلطان في ظل خلفاء وملوك وامراء ووزرا ثقفوا القرآن وتشبعوا بروحه وتعاليمه ، وتمتعت الرعية في عهودهم بالعدل والأمن والحرية والرفاه ، وازدهرت البلاد بمعالم العمران الباذخ والنشاط العلمي والاقتصادي والزراعي والتجاري والصناعي العظيم . وان ما كان من صور مضادة لهذه الصورة الوضاءة انما كان بسبب الجهل والانانية وانقطاع الصلة الروحية بين اصحابها وبين تعاليم القرآن وتلقيناته .

٤ ــ ان جذور الدين متأصلة في الناس الى درجة لا يمكن لأي قوة او دعوة ان تقتلعها منهم ، وان وجود واحد في كل خمسين الفاً او مئة الف يفكر هذا التفكير الذي يفكر به القائلون لا يعني ان من الممكن ان يتفلت الناس من تأثير الدين ونفوذه . وما دام ان القرآن الذي هو كتاب المسلمين المقدس عامة وكتاب الكثرة الساحقة من العرب خاصة بين ايديهم يتلونه صباح مساء ويعتقدون انه نبراسهم وفيه من الأحكام والمبادىء والحدود ما يتناول حياتهم الفردية والأسروية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية مما لا يقاس به أي كتاب ديني آخر فان صلتهم به وتأثيره فيهم لا يمكن ان ينقطع مهما تقلبت الظروف وتطورت الاحوال . وما دام ان في هذه الأحكام والمبادىء والحدود من المرونة وسعة الأفق والسمو والاحاطة ما لا يكابر فيه الا مكابر فان من الخير كل الخير ان تشتد الدعوة الى تفهم القرآن والاستبصار به والاستمداد منه وان من الاثر

ان يترك السواد الاعظم من الامة التي تدين به وتقدسه في غفلة وجهل وعماء عما فيه يستغلهم المستغلون ويحكم فيه الجامدون .

٥ — ان الدعوة الى الهدى القرآني لا يمكن ان تكون سبباً في أي جمود وتوقف لأن في ملهاته ومبادئه وأحكامه ما يبيح اقتباس كل صالح نافع من أي كان ويقطع النظر عن جدته وقدمه ، وفيه ما يأمر بنبذ كل ضار فاسد مهما كان أصله وقدمه ، وفيه ما يدعو بكل قوة الى الأخذ بأحسن الوسائل والاستعداد في كل ناحية من نواحي الحياة واثارة الهمم وإيقاظ النشاط في الناس ، وفيه ما يفتح الطريق واسعاً ليقوم بنيان الأمة وكيانها على التفكير الحر والعلم الصحيح دون مانع ولا عثرة .

٦ — ان المادية والتفكير المادي قد طغى على المدنية الغربية حتى يكاد يكون طابعاً عاماً لها وحتى كاد يعطل في الناس شعور الرحمة والبر والتسامح والوئام والأخوة الانسانية والحق والشرف والامانة واحترام الغير وحتى كاد يميت فيهم — او هو اماته فعلا — الضمير الانساني والحياء الانساني اللذين من طبيعتهما ان يمدا الانسان بنوازع الخير والبر والحق والاحسان والحشمة والتعفف والامانة والاعتدال ، وحتى صار وجه الحياة الانسانية كالحاً وصارت الحياة جحيماً لا يطاق لأن ميزانها الوحيد صار هو المادة وما يلازمه من الحاد بشع وقوة وتناحر وانانية وجشع وضعف شعور واباحية واستغراق في الشهوات والفواحش وتحلل من كل رابطة من روابط التقاليد والآداب الكريمة والعواطف الانسانية ، وتحليل كل وسيلة في سبيل تحقيق نزوات النفوس ومطامعها ورغباتها . وقد انفقد التوازن بالمرة تقريباً بين القلب والعقل والعاطفة والعلم مما اقض مضاجع العلماء والباحثين من الغربيين انفسهم . فمن الحق والخير ان نحصن ناشئتنا وامتنا من هذه الاوبئة المهلكة . ومن الشر والخطر ان يسترسل المثقفون منا في الدعوة الى الانسياق في تيار الغرب المادي بدون تبصر ولا روية وبدون حسبان للعواقب ، ومن الحق والخير ان نعمل جميعاً على اعادة التوازن المفقود والانتفاع بعثرات الغرب وعيوبه

وتغذية ضمائر ناشئتنا بما يقوي فيها نوزاع الخير والبر والحق والعدل والكرامة والارتزان والحياء وكل ذلك كفيل به الدعوة الى الهدى القرآني فيما نعتقد .

٧ – انه ليس لاحد ان ينكر ان للامجاد التاريخية اثراً عظيماً في حياة الامم وقوة حيويتها ومقاومتها لصروف الدهر وموجع ضرباته ، وان الاسلام الذي جاء به الرسول العربي والقرآن العربي الذي نزل على هذا الرسول الكريم فخلدت به اللغة العربية وتقدست وكان له الاثر العظيم في حياة البشر وحضارتهم وتوجيهم نحو المثل العليا هو اعظم الامجاد التي تستطيع الامة العربية ان تفخر بها وتعتز ; وان في استمداده في تحريك الامة العربية وبعثها من جديد اعظم الفوائد والوسائل واقواها ، وان في محاولة اهمال ذلك والتهوين منه او تجاهله جحوداً منكراً لتلك الامجاد وتعطيلا جانياً لهذه الحوافز والوسائل والفوائد .

٨ – ان القرآن قد خلد حق العرب وشأنيتهم في الكيان الاسلامي في آيات عديدة منها ماهو صريح ومنها ماهو ضمني . وانه ليس من تعارض بين الدعوة اليه والدعوة الى القومية العربية والمجد العربي والفكرة العربية ولا تدخل هذه الدعوة في متناول ماهو مشجوب من الدعوة الى العصبية لان هذا الشجب انما كان موجهاً الى العصبية القبلية التي كانت تقوم عليها تقاليد العرب وجاهليتهم والتي كانت تحول دون تكتل العرب ووحدتهم القومية مما كان من غايات الدعوة النبوية البارزة ومما هو معلوم لكل من درس الدعوة السيرة النبوية ومما كان الوسيلة العظمى الى نشر الاسلام فيمشارق الارض ومغاربها ; وتري هذه الشأنيةموطدة في الآيات القرآنية التالية :

١ – وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً . البقرة ١٤٢ .

٢ – وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول عليكم شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ... الخ . الحج ٧٨ .

٣ — ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون . آل عمران ١٠٤ .

٤ — كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . آل عمران ١١٠ .

٥ — وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض . النور ٥٥

٦ — وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون . الزخرف ٤٣ .

٩ — ان مانوه به القرآن وخلده من شأن العرب في الكيان الاسلامي وتقديس اللغة العربية بسبب كونها لغة القرآن وتحميله لهم واجب الدعوة اليه وتقرير مسئوليتهم عن ذلك مما انطوى في الآيات التي نقلناها صراحة او تلاتينا قد جعل للعرب شأناً عظيماً في العالم الاسلامي من الممكن ان يعود عليهم منه اعظم المنافع والمفاخر المادية والمعنوية والسياسية والاجتماعية ، فمن الشر والخطر والحمق ان نغفل هذا المعدن الغني وان لا ننتفع به الى اقصى حدود الانتفاع لصالح العرب وصالح المسلمين وصالح الانسانية معاً . فقوة الفكرة الاسلامية قوتهم ومجدها مجدهم واعتلاؤها اعتلاؤهم ، وعليهم من اجل ذلك الرجوع بالاسلام في معناه ومبناه واهدافه الى اصله الوضاء الصافي النقي وهو القرآن وتجلية مبادئه وبثها ورفع ماتراكم عليه من طبقات قرون الانحطاط والجهل والتغلب التي غطت محاسنه وغيرت معالمه ، وكان من جرائها في كثير من الظروف من الصور والاشكال والمفهومات مالا يمت الى ذلك الاصل بسبب صادق ، ونشره للعالم نوراً وهاجاً ومناراً هادياً فيه كل مبادىء الخير والحق والعدل والاخاء والمساواة والحرية والبر والكرامة والتضامن والمرونة لمتبعيه والانسانية جمعاء ، والوقوف في وجه كل محاولة لتشويهه وتعطيله وقيام المشاهد الروحية والدينية والتعصبية المتناقضة معه .

ويخيل لنا بل نكاد نكون على مثل اليقين ان الذين يقولون تلك الاقوال قد اخذوا باقوال ودعايات المغرضين من مبشرين ومستعمرين ومستشرقين وكائدين

وما كرين ودساسين وهدامين وملحدين من جهة ولم يدرسوا من جهة اخرى القرآن دراسة كافية واكتفوا بما قرأوه من نظريات علماء الغرب وتوجيهاتهم من كتب التاريخ الغربي واحداثه وصوره بوجه عام ومن كتب التاريخ العربي الاسلامي بعد العهود العربية وصوره واحداثه بصورة خاصة وفيها كثير من الخلط والتشويش والتشويه .

ومما يمكن ان يوجه الى الدعوة القرآنية من نقد وتحفظ ان في كل بلد عربي فريقاً عربياً او مستعرباً نصرانياً وان الفكرة العربية وحدها مجردة عن تلك الصبغة هي التي يجب ان تكون ناظمة الدولة حتى ينسكب الجميع في بوتقها ، وان من المحتمل ان تؤدي تلك الدعوة الى اثارة العصبية الطائفية او تغلب الصبغة الاسلامية في الدولة مما يتناقض مع ماندعو اليه من وجوب شمول الفكرة العربية القومية والصبغة القومية العربية جميع العرب مسلميهم ونصاراهم على السواء ومن بذل الجهد في ازالة النعرة الطائفية في الملل والنحل العربية .

ولا نرى هذا وارداً وصحيحاً . فليس من تعارض على ماذكرناه قبل بين الفكرة العربية والدعوة القرآنية . وقد شرحنا الاسباب التي تجعلنا نرى وجوب بث الروح العربية الصافية والمبادىء الدينية الكريمة في نفوس الناشئة العربية مسلمة ونصرانية وفوائدها . والدعوة القرآنية ليست في الحقيقة الا من هذا القبيل واذا كانت تصطبغ بصبغة الشمول والسعة فان ذلك بسبب كون كثرة العرب الساحقة او بتعبير رقمي ٩٧ ٪ مسلمة اولا وبسبب طبيعة شمول المبادىء القرآنية ثانياً . وفيما انطوى في التعاليم القرآنية والسنن النبوية والراشدية بالنسبة للمسالمين من غير المسلمين ضمانات وافية . وهذه الضمانات تصبح اشد وألزم بطبيعة الحال بالنسبة للنصارى المندمجين في الفكرة القومية والواقع القومي والمتشاركين المتواثقين مع المسلمين العرب في العواطف والمصالح والدماء والاوطان واللغة . ولا عبرة بما كان من مشاهد واحداث تاريخية فان لذلك اسباباً سياسية وغير سياسية كان منها دسائس الدول الاجنبية بل وكانت هذه الدسائس هي السبب

الجوهري الاقوى على مايعرف ذلك من درس التاريخ وعلى ماذكرناه في مناسبة سابقة في هذا الكتاب .

ونظن اننا لانعدوا الصواب اذا قلنا أن مافي احداث التاريخ الاسلامي العربي الاولي من مفاخر وامجاد خالدة وما في الفكرة الاسلامية وصلتها بالجنس العربي والنبوة العربية والقرآن العربي من مفخرة للعرب في الدرجة الأولى جدير بان يكون مفخرة للنصارى العرب كما هو شأنها لمسلميهم .

-٦-

ونحب ان نستدرك بعض الامور في صدد ما نحن فيه :

فاولا — اننا لانقصد بما قلناه عن شأن العرب في العالم الاسلامي اننا نتطلع الى جامعة اسلامية سياسية عامة او خلافة اسلامية سياسية عامة يكون العرب على رأسها كما اننا نعرف ان مجال ذلك مسدود اليوم . ولا يقاس الأمر بما كان عليه وضع السلطان الاسلامي عامة والسلطان الاسلامي العربي خاصة في سالف الدهر . فاتساع السلطان العربي والاسلامي وشموله للاقطار التي دخلت في حوزة جيوش الفتح وقيام ذلك السلطان او تلك الخلافة السياسية العامة انما كان نتيجة لطبيعة وظروف الحركة الاسلامية واستمرارها طيلة المدة التي ساعدت الظروف على استمرارها . وهو كذلك امتداد لتلك الطبيعة والظروف . وقد انحلت هذه الجامعة السياسية الاسلامية العامة وانفصمت العرى التي كانت تجمع أقطار المسلمين المختلفة جنساً ولغة فبرزت في كل قطر منها شخصية سياسية مستقلة اصطبغت مع الزمن بصبغة القطر القومية وشخصيته المتميزة وأصبحت هي المستقرة . فلا مجال الى عودة الحال كما بدأت كما انه ليس هناك باعث له وليس له ضرورة اجتماعية او اقتصادية او حربية ، وليس له موجب وأصل ديني . والسلطان في الاسلام وازع يقوم لمصلحة المجموع ضمن نطاق صالحهم وخيرهم العام وليس من

موجباته ان يكون جميع المجتمعات والأقطار الاسلامية تحت لواء سلطان واحد ، وليس هناك مايمنع أن تكون الاقطار الاسلامية مجموعات مستقلة متميزة بطبيعة الحال . وقد كان الأمر كذلك منذ الف سنة ، وكان وقت وجد فيه ثلاثة ملوك يتلقبون بلقب الخليفة وأمير المؤمنين في ظرف واحد في القاهرة وقرطبة وبغداد .

على أن هذا لايعني اننا لا نحبذ ان تقوم رابطة باسم رابطة الشعوب الاسلامية على اسس تعاونية سياسية واقتصادية وثقافية وعسكرية . بل نعتقد ان في ذلك كل الخير للعرب خاصة والمجموعة الاسلامية عامة . ولعل فيه علاجاً ناجعاً لوقاية العالمين العربي والاسلامي من استغلال الغرب وتحكمه وسيطرته ومكائده فضلا عن فوائده العظيمة المشتركة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولا حرج على العرب ان يكون ذلك غاية من غاياتهم بل نعتقد انه واجب عليهم ، وليس فيه تعارض قط مع الفكرة العربية الحديثة وأهدافها . وفيه مجال ليقوم العرب بدور رئيسي في هذا الميدان مستمد من شأنيتهم التي خلدها القرآن والتي يجب على المسلم التسليم لهم بها ومن قدسية لغتهم التي يمكن ان تكون اللغة الرسمية لهذه الرابطة . وهذا العمل اصبح اليوم مستساغاً بعد ان اتجه العالم الى عقد المحالفات الاتحادية الكبرى بقصد ضمان المصالح المشتركة والسلامة المشتركة بين المجموعات المتماثلة والمتجاورة . ولا يمكن أن تكون الصبغة الاسلامية موضع نقد لأن الاسلام كما قلنا قبل ليس ديناً روحياً وحسب يجب ان لايخرج عن نطاق القلب والمسجد بل هو دين سياسة ونظام وعمل ودولة أيضاً . وهذا فضلا عن انه دين ٩٧ ./ من العالم العربي .

وثانياً — ينبغي أن لايفهم مما ذكرناه أن جميع ألوان حياة المسلمين يمكن او يجب ان تغدو مصبوغة بالصبغة الدينية الكهنوتية . فنحن أبعد مانكون عن هذا القصد من جهة والشريعة الاسلامية هي من جهة ثانية مدنية في جل احكامها وما يتصل بمعاملات الناس وحقوقهم وسياسة الدولة ونظمها والاسرة وتشريعاتها كما يتضح لكل من أمعن النظر في النصوص القرآنية . وليس فيها سلطات

ومظاهر كهنوتية مما كان مثله يتصادم مع السلطات والمظاهر المدنية والسياسية في الغرب ومما أثار ذلك التيار الذي جرى في اتجاه ايجاب فصل الكنيسة عن الدولة والذي تأثر به على مايبدو بعض كتاب المسلمين ومثقفيهم فصاروا يقيسونه على الاسلام ويدعون الى فصل الدين عن الدولة في الدول الاسلامية مع انه قياس مع الفراق على ماهو واضح ، كما انها ابعد ماتكون عن تلقين التعصب وضيق الأفق نحو غير المسلمين الأصدقاء والموالين والمواطنين والمسالمين والمعاهدين بل هي اقوى ماتكون تلقيناً بالبر والعطف والقسط والوفاء والاحترام والمودة لهم وخاصة النصارى حينما تجلى وتفهم على حقيقتها .

(٦) مشكلة ضعف الوعي العام والتنظيم الشعبي وواجب الشباب في هذا المجال

- ١ -

مهما يصح ان يقال ان نطاق الوعي العام في الشعوب العربية قد اتسع كثيراً بسبب اتساع نطاق التعليم وتطور الزمن واحداث العالم ووسائل المدنية الحديثة المتنوعة ثم بسبب الحركات السياسية والوطنية الكفاحية والأدبية التي ظلت تحدث في مختلف الأقطار العربية منذ اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى . فان من الحق أن يقرر انه ما يزال ضعيفاً وجامداً وسلبياً في وقت واحد ، وان ذلك من الأسباب المهمة التي تجعل الأمة العربية تتعثر في سيرها نحو التقدم والتكامل والقوة ، وانه في حاجة شديدة الى تنمية وتحريك وتوجيه وتقوية حتى يصبح متصفاً بصفة الايجابية المنبعثة من ذاتها ويتجه نحو التجديد والانقلاب استجابة واملاء في سبيل تحقيق اهداف الفكرة العربية التي هي :

« قيام كيان عربي قومي عام ، يضم مختلف الأقطار العربية ، ويكون موحد الشعور والثقافة والتفكير والجهاز الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والعسكري ، ويعم في ظله التعليم القومي المشترك ، وتستغل امكانيات البلاد والأمة وثرواتها ، وتتحسن مشاهدها وتزدهر حضارتها وتصلح أحوالها الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والعمرانية وتتضاءل الفروق الاجتماعية

والاقتصادية بين الفئات والطبقات وتخفق راية الحق والعدل والحرية والرفاه في جميع ارجائها وبالنسبة لجميع طبقاتها ، وتكون من القوة بحيث تضمن للأمة العربية الحرية والكرامة والسيادة والمنعة والتقدم والوصول الى مصاف الأمم القوية الراقية ، وتبوء المركز اللائق بخصائصها وامجادها وما تشغله من حيز جغرافي عظيم في ساحته وموقعه وثرواته ، ثم ما تتمتع به من اسباب النفوذ المعنوي القوي في مختلف انحاء الأرض » .

والامة العربية في جميع اقطارها ما تزال بعيدة جداً عن هذه الأهداف بل لم تكد تبدأ سيرها في طريقها الصحيح ، والحالة سيئة في جميع اقطار العرب من مختلف نواحيها ، وفي كل قطر من الأقطار العربية شعور بسوء الحال وتذمر منها . ولو كان الوعي قويا ايجابياً ومتحركا بذاته لكان حفز الأمة الى مواقف وأعمال ايجابية منبثقة من ذاتها ورأيها العام يملي ارادتها بها على حكامها بما فيه مصالحها وصلاح أحوالها وتحقيق تلك الأهداف العامة . ومع ان من المحتمل ان يقوى الوعي كلما اتسع نطاق العلم فان المشكلة ليست مشكلة جهل وأمية فقط . فان معظم سكان المدن غير أميين ومنهم جمهرة كبيرة نالوا قسطاً لا بأس فيه من العلم ، ومنهم آلاف مؤلفة أتموا دراستهم الثانوية والعالية ، ومع ذلك فان آثار جمود الوعي وضعفه وسلبيته في المدن ملموسة بقوة أيضاً . ولو كانت المشكلة مشكلة جهل وأمية لكان الوعي في المدن قويا متحركاً بذاته ولكان من الممكن أن يكون فيه الغناء او شيء كبير منه لأن المدن هي الجبهة الأمامية البارزة التي عليها معول كبير ان لم نقل المعول الأكبر في الحركات والمطالب العامة .

— ٢ —

وحل المشكلة منوط بالدرجة الأولى بالتنظيم الشعبي الذي مازال ضعيفاً جداً في بلادنا . ومن المؤسف أن الذين تصدوا لنضال الأجنبي أو الذين برزوا على مسارح الحركة السياسية والوطنية القومية من رجالاتنا وزعمائنا وهيئاتنا لم يعيروا

هذا التنظيم العناية التي يستحقها ولم ينتبهوا الى أنه أقوى وسائل النجاح فيما تصدوا له وهدفوا اليه ، وان ما كان من ثغرات وعثرات عديدة ومتنوعة أثناء النضال مع الأجنبي او النشاط في مختلف المجالات الأخرى يرجع الى ضعفه ، وقصارى ما كانوا يفعلونه أعمال ارتجالية كانت تؤدي الى فورات دون تنظيم يضمن للعمل استمراراً وتوسعاً وعمقاً . ولذلك كانت هذه الفورات لا تلبث ان تخمد اذا ماصدمتها طوارىء خاصة أوعامة ليست بالحسبان ، حتى صرنا مضرب المثل : « نفور ثم نغور » .

ولقد كانت الفورات تصل أحياناً الى ان يكون منها بطولات رائعة ويكون فيها تضحيات عظيمة ، وتغدو كالنار المتقدة اللاهبة التي لا يقف أمامها شيء ، وكالعاصفة الشديدة التي تكتسح كل شيء ثم يطرأ بعض الطوارىء والأسباب الداخلية والخارجية والشخصية او النفسية فتخمد حتى يكون خمود وانكماش عجيبين متناقضين أعظم التناقض مع ما كان من شدة وفورة واندفاع .

ولقد كان يقوم حزب أو دعوة أو حركة سياسية أو اصلاحية فيكون القائمون بها في بدء الأمر على شيء من الحماس فينشطون نشاطاً قوياً يتردد صداه في كل ناحية حتى يثير الدهشة ويبشر بالنتائج العظيمة أحياناً ، ثم يطرأ بعض الطوارىء والأسباب الداخلية والخارجية أو الشخصية أو النفسية كذلك فيفتر هذا النشاط حتى يكون سكوناً عجيباً متناقضاً مع ما كان .

وكل هذا بسبب عدم اهتمام القائمين بالحركات للتنظيم الشعبي المتغلغل الذي ينتظم اكبر مجموعة من الناس ويهتم لتنوير أفكارهم وجعلهم يندمجون في الحركات اندماجاً ذاتياً واعياً لا يتأثر بالطوارىء التي تطرأ على المحركين الأولين تأثراً كبيراً . واذا كان القائمون فعلوا شيئاً في هذا المجال أحياناً فانه لم يتم على أساس قوي متغلغل كما وصفنا وكل مايكون قد فعلوه هو تحريك الجماهير ضمن نطاق ضيق استهدافاً لهدف عاجل وعابر .

فمن الواجب ان تشتد الدعوة الى العناية بناحية التنظيم والتركيز والتوجيه والتغلغل والشمول عناية عظمى واعتباره من أهم وسائل النجاح في الحركات الوطنية والسياسية والاصلاحية حتى لا تظل الجهود التي يبذلها الذين يتصدون لقيادة هذه الحركات رهناً بالأفراد والفورات ، وحتى لا يظل الوعي العام جامداً سلبياً غير متحرك بذاته وغير قادر على إملاء ماتتحسس به الأمة من آمال ورغبات ومطامح ، وحتى يتسنى اقتطاف ثمرات الجهود التي تبذلها الحكومات والهيئات في مختلف الميادين . ونحن نعول تعويلاً كبيراً على ذلك في مختلف الشؤون والحركات والأهداف ونراه السبيل الأنجح لتوسيع نطاق التجاوب فالتعاون والتضامن بين طبقات الأمة فيها .

والمهمة ليست بسيطة بل هي من أعظم المؤثرات في مجال الأعمال والحركات الوطنية والسياسية والاصلاحية ، لانه يتوقف عليها كما قلنا نجاح هذه الأعمال والحركات في الدرجة الأولى . وهي في حاجة الى شيء عظيم من النشاط وحسن الادراك والايمان والتفرغ والجلد والاناة وسعة الصدر ؛ لانها تهدف الى التغلغل في كل حي وقرية والاتصال بمختلف طبقات الشعب وفئاته ودمجهم عن رضى وطواعية وتبصير في تلك الأعمال والحركات وتنويرهم وجعلهم يدركون خيرهم ومصلحتهم في هذا الاندماج قلباً وقالباً .

– ٣ –

ولعل الشباب مرشحون لهذه المهمة العظمى اكثر من غيرهم لأن لهم مدداً من حيويتهم ونشاطهم ولأنهم مايزالون ليني العود لم ترسخ فيهم العادات والتقاليد والافكار التي كثيراً ما تكون عقبات كأداء في طريق العمل وأساليب الحياة ، ولأنهم في ذات الوقت هم أصحاب العهد الذي يتحملون ضرر نواقصه وتعثره وينتفعون بما يأتي به الجهد في سبيل اصلاحه .

والناظر في تاريخ حركات الأمم في مختلف مناحيها يجد الشباب من أجل تلك الصفات والاعتبارات هم العنصر الأقوى فيها . ولقد كان الشباب العربي

المثقف تمشياً مع هذه البديهة العنصر الأقوى في انبعاث الحركة العربية كما يمكن أن يعرف من استعراض أسماء الذين اندمجوا فيها وشغلوا مجالاتها . غير أنهم لم يعيروا التنظيم الشعبي العناية الواجبة فتعثرت خطاهم في مختلف المجالات وضاع كثير من جهودهم هدراً .

فعلى شبابنا أن يتقدموا لاشغال الحيز الواجب عليهم اشغاله وأن يتلافوا ذلك النقص الذي كان بسببه ما كان من عثرات وأخطاء وقصور وهدر جهود وجهاد وأن يبدأوا جهودهم بتنظيم أنفسهم أولاً والتكتل كتلاً في كل قطر ، فتأخذ كل كتلة على عاتقها ناحية من نواحي العمل العديدة من وطنية وسياسية واجتماعية وثقافية وتهذيبية واصلاحية واقتصادية الخ ثم تتغلغل في كل حي وقرية لتؤسس فروعاً ينتظم فيها أكبر عدد ممكن من الناس انتظاماً اندماجياً قوياً . واذا كان العمل خطيراً وشاقاً فان مافي الشباب من نشاط وحوية وأمل كفيل بالنجاح فيه اذا هم تقدموا لحمل العبء واشغال الفراغ بجد وقلب وجلد وإيمان وتضحية . وهذه العناصر لابد منها للنجاح ، وقد كان فقدها عاملاً فيما كان من اخفاق في الجهود المبذولة في مختلف الميادين . وكل من درس الحركات القومية الحديثة يرى كيف كان الشباب القائمون على رأس هذه الحركات والمندمجون فيها يضربون أروع الأمثال بما كان منهم من تضحية وجلد وتحمل للشظف والحرمان وإقدام على أعظم الأخطار والاستغراق التام في المهمة غير عابثين بمتع الحياة ولهوها واناقة اللباس والطعام ووسائل الترف وكان النجاح حليفهم واستطاعوا أن يقوموا بالأعمال العظيمة التي قاموا بها . فجدير بشبابنا المتعلم الواعي الذي يبدي تحرقاً شديداً على ماترتكس فيه أمتهم من ضعف وجهل وسوء حال وعلى مايلم ببلادهم وقضاياها القومية من أخطار ومحن عظيمة أن ينحوا منحاهم وأن يتخذوهم أسوة .

ولقد كان من جراء انهماك كثير من شبابنا في اللهو والزينة والسفاسف والتصرفات المعوجة المرذولة والجنوح الى الدعة والراحة ان اشتدت الحملة عليهم وان انفقدت الثقة بهم وان استولى شيء كثير من اليأس من ناحيتهم باشغال

الفراغ الذي اخذ يتسع في ميادين العمل القومي المتنوعة من سياسية واجتماعية واصلاحية وتجديدية وتنظيمية ، وان اخذمستقبل الامة يبدو حالكاً قاتماً مما هو بليغ الأثر والخطر في كيانها ، وما يوجب اشد الوجوب ان يهتف بضمائرهم ان تستيقظ وبعقولهم ان تتدبر الامر . فمعنى بقاؤهم على ما هم عليه بقاء الأمة في حالها الأليمة وبقاء الوعي في حالته السلبية الجامدة مدة طويلة تتعرض فيها الامة والبلاد العربية لأشدالأخطار والاضرار وتظل الأمة والبلاد مرتكسة فيما هي مرتكسة فيه من الجهل والجمود والضعف والهوان . بل اكثر من هذا لأن المسافة التي تفصل بين الأمة العربية وغيرها من الأمم السابقة لها ستزداد بعداً ، وسيزداد شأن الأمة العربية بالتالي هوانا . وهم الى هذا اصحاب العهد الذين يحملون الضرر والهوان من بقاء الأمة في حالتها الحاضرة .

ولقد تضاعف عدد المثقفين منهم بالثقافة العالية أضعافاً كثيرة حتى غدوا يعدون بالآلاف المؤلفة في مصر والشام والعراق فضلاً عن عشرات آلاف المثقفين بالثقافة الثانوية والمهنية المتوسطة وهذه مزية كبرى تيسر لهم القيام بواجبهم لأنها من المساعدات على الانسجام والاتساق والتواثق والتفاهم والتمازج . وهي في الوقت نفسه سبب مشدد لما يلحقهم من المعرة اذا هم ظلوا على حالتهم ولم يقوموا بواجبهم .

فعلى الكتاب والاساتذة والخطباء أن يهتفوا بهم بأن يتقدموا لحمل العبء واشغال الفراغ بجد وقلب وجلد وايمان وتضحية وأن يتأسوا بشباب الامم الحية ، وأن يكف العابثون والمقصرون منهم عن عبثهم وتقصيرهم ؛ ويقيننا وطيد انهم يستطيعون إذا تقدموا وهم متحلون بهذه الصفات أن يأتوا بالعجائب .

— ٤ —

ونحن نعرف أن المسألة المالية مما يحتجج به الشبان في صدد العمل التكتلي . وهي مسألة خطيرة حقاً لأن المال هو العصب الأقوى في النشاط الجماعي . غير اننا نعتقد ان الذي ينقص الشباب ليس المال وانما الجد والتضحية . واننا لنرى كثيراً من الشباب ينفقون على لهوهم واناقتهم وتنقلاتهم المبالغ الكبيرة ثم نراهم

يتذمرون أو يقصرون في اشتراك مالي في ناد أو جمعية أو عمل تنظيمي أو اصلاحي قد لا يزيد عن ثمن علبتين من الدخان يحرقها الواحد منهم في اليوم أو ثمن بطاقة سينما أو جلسة في مقهى أو ملهى أو على مائدة ميسر بسيطة فضلاً عن المركبه. ففي هذه السبل الكمالية والمحرمة يذهب من جيوب الشباب من المال ما يضمن بعضه حياة كثير من المشاريع وتحقيق التنظيم المتغلغل وانشاء الاندية والجمعيات التي تقوم بها. فلو استشعر شبابنا وآن لهم أن يستشعروا بواجبهم وتبعتهم، ولو أدركوا وآن لهم أن يدركوا أن ضرر الاستمرار في التقصير وعاره عائدان عليهم قبل كل أحد، ولو اندمجوا في حالة أمتهم الأليمة وآن لهم أن يندمجوا وضحوا بشيء من الكماليات واللهو والترف لحلوا المسألة المالية مع أن واجبهم ومصلحتهم وحال أمتهم إذا استشعروا بها وأدركوها واندمجوا فيها بجد وقلب يقضي عليهم أن يضحوا بالكماليات كلها فضلاً عن المحرمات وأن يعمدوا الى التقشف والزهد بحل هذه المسألة التي كثيراً ما كانت سبب الاخفاق والتي تمهد السبل لنجاح المحاولات التي يجب أن يحاولوها والنشاط الذي يجب أن يبذلوه. وهذا فضلاً عن أن هذا النجاح رهن إلى درجة كبيرة بتفريغ القلب والوقت معاً مما يقتضي الجد والجلد والتقشف وتضحية الكماليات.

— ٥ —

ويتصل بهذا البحث موضوع الوعي العربي القومي العام.

والحق ان الوعي القومي العربي والشعور بالاخاء العربي العام في البلاد العربية قد اتسعا كثيراً كمية وكيفية خلال السنين التي مرت على انبعاث الحركة العربية الحديثة الفعلي الذي يمكن تأريخه باعلان الدستور العثماني سنة ١٣٢٤ — ١٩٠٨.

والذين عاشوا في عهد الدولة العثمانية وظروف انبعاث الحركة العربية الحديثة ولا يزالون أحياء يرون من دون ريب تطوراً قوياً أكثر من غيرهم في هذه الناحية. فان سواد الشعب العربي حينئذ لم يكن يحس بشيء من الشعور القومي الذاتي،

وكان هذا الشعور قاصراً على فريق محدود العدد من الرجال والشبان المتنورين وكان الى جانبهم في نفس الوقت فريق كبير من الرجال والشبان المتنورين لا يشعرون به بل ويقفون من حركة الانبعاث موقف المتجهم او العدو لأنهم كانوا مندمجين في جو الدولة العثمانية وبيئتها وقد قضوا مدة طويلة في وظائفها ومختلف اقطارها حتى اصبح كثير منهم غريباً او كالغريب عن العرب والعروبة؛ وكان اكثر طبقة الوجهاء والاعيان الذين اعتادوا ان يعيشوا في جو الدولة ومارسوا الوظائف والمناصب الحكومية الدائمة والموقتة والفخرية وغير الفخرية ويستمدوا منها وجاهتهم ، وكذلك اكثر الذين هم في عداد هؤلاء من المحافظين والتقليديين والمشايخ وخاصة ذوي المناصب من هؤلاء يقفون من حركة الانبعاث موقف المتجهم أو العدو أيضاً لأن فكرة الخلافة الاسلامية التي كانت تتمثل في الدولة العثمانية كانت تملأ اذهانهم وفراغهم وتصرفهم عن كل تفكير قومي وذاتي وتجعلهم يرون في الدعوة الى ما يناقض ذلك او يبدله شذوذاً مخالفاً للدين والتقاليد والمصلحة الاسلامية . أما الآن فقد غدت الفكرة العربية والشعور بالذاتية القومية في بلاد الشام والعراق شيئاً عاماً لا يكاد ينفقد في أحد من سكانها ولو لم يكن متعلماً على تفاوت في المدى .

وكذلك الامر في مصر ، فقد كان من الطبيعي ان تجه تيار الفكرة العربية الحديثة وحركتها اليها لأن العروبة فيها واضحة المعالم والظواهر ، بل تكاد تكون فيها أصفى منها في غيرها من حيث كون كثرة سكانها الساحقة مسلمة عربية اللسان والدم سنية المذهب وليس فيها تلك الفوارق المذهبية والجنسية التي في غيرها ، فسارع الانكليز واعداء العروبة والاسلام من الاجانب والشعوبيين الذين ما تزال دماؤهم غير العربية تجري حارة في عروقهم والذين يضمرون الكراهية للعرب والحقد عليهم في اتخاذ العدة لايجاد تيارات معاكسة لذلك التيار ، فكان من جملة ذلك الدعوة التي عرفت بالدعوة الفرعونية باسم البحوث العلمية والتاريخية والقومية المصرية والتي اندمج فيها فريق من الادباء المخلصين ذوي النوايا الحسنة ، والتي رمت في الحقيقة الى صرف نظر المصريين عن الفكرة العربية القومية حينا

اخذ تيارها يجري في السنين التي اعقبت الحرب العالمية الاولي ، وارجاعه الى الوراء البعيد ومحاولة بث كون المصريين لا يمتون الى العرب والعربية وانما الى الفراعنة اصحاب المجد والعظمة والحضارة والعمران الزاهر الذي كان من اسس مدنيات العالم ، وكون العرب ليسوا إلا غزاة طارئين شأنهم شأن الرومان واليونان والفرس الذين غزوا مصر ، وان كل ما هنالك من فرق انهم استطاعوا ان يورثوا المصريين لغتهم ودينهم . متجاهلين الحقائق التاريخية الكبرى من ان المصريين الاولين هم من جزيرة العرب اي من الجنس العربي ومن ان مئات القبائل العربية انساحت الى مصر بعد الاسلام وغذت مدنها وريفها بالدم العربي ومن انه لا يزال الى اليوم اكثر من مليون ونصف مليون عربي يحتفظون بطبائعهم وتقاليدهم واسمائهم العشائريه . وقد غذيت هذه الحملة وعوضدت على مافيها من زيف ووهن اساس ومنطق بمختلف الوسائل واستطاع القائمون بها ان يلفتوا اليهم الانظار وان يثيروا حول حملتهم الجدل والكلام على أمل أن يجعلوا من فكرتهم او دعوتهم قضية لها مكان في مجال القضايا القومية او على الاقل ان يوجدوا في نفوس الناس بصددها من الريب والشكوك مايشوش على تيار الفكرة العربية ويصدم تدفقه . وقد ردفوا حملتهم هذه بحملة اخري دعوا فيها الى اصطناع اللغة المصرية الدارجة في التعليم والادب والصحف والتمثيل والتأليف والصكوك والرسائل الحكومية بحجة سهولة نشر الثقافة وإيجاد أدب مصري خاص ولغة مصرية خاصة وثقافة مصرية خاصة الخ ... كما أنهم سلكوا سبلاً عديدة الى بلوغ أربهم حيث قووا الدعاية ضد الملك حسين وأبنائه التي كان يبثها الاتراك على اعتبار انهم خانوا دولة الخلافة وكانوا السبب في انهدامها وتواطأوا مع الانجليز ، وحيث بثوا الخوف من جهة ثانية في نفوس اولي الشأن في مصر من مشكلات البلاد العربية وقضاياها وما يمكن أن يحملهم التورط فيها من اعباء فادحة ويجر عليهم من متاعب مضنية ، ويفتح عليهم من المماكسات والمناورات في حين انهم في أمس الحاجة الى تكثيف قواهم وجهودهم فيما هم بسبيله من قضيتهم الوطنية . ولقد اثرت هذه الدسائس والوساوس تأثيراً غير قليل فظلت مصر في معزل عن

الحركة العربية والفكرة العربية وقضايا البلاد العربية مـدة غير قصيرة وظل رجالها الرسميون بل وزعماؤها الشعبيون كذلك في معزل حتى بلغ من أمرهم أن يظنوا ان النزاع القائم بين العرب واليهود في فلسطين نزاع ديني طائفي وأن ينصح بعض البارزين منهم بأن يحل العرب واليهود مشكلة نزاعهم هذه على النمط الذي حل به المصريون مشكلة المسلمين والاقباط فانقلبوا اخواناً في ميدان السياسة والحركة الوطنية ، وأن تجهموا لنشر نداءات فلسطين ودعايتها أيام محنتها الاولى ، وان تحول سلطاتهم الرسمية دون ذلك في ظرف من الظروف ، بل بلغ من أمر عزلتهم ان كان كثير من رجالهم وسياسييهم ومتنوريهم وصحافييهم لا يفرقون او لا يريدون ان يفرقوا بين مدلول الشعوب الشرقية والاسلامية والعربية وأن يخلطوا بينها عن عمد او غفلة ، وحتى بلغ من تخوفهم من التورط في مشاكل البلاد العربية وقضاياها ان يشبه بعض زعمائهم البارزين هذه القضايا بالميت الذي ليس من ورائه الا التعب والتبعات .

غير ان هذه الحالة قد تبدلت تبدلاً عظيماً ، فمنذ وقت مبكر خفت صوت الفرعونية واللغة العامية واندحرت حملتها اندحاراً منكراً . ومنذ وقت مبكر اخذت الاصوات العلمية تردد عراقة الاصل العربي واللغة العربية في مصر ووحدة الجنس التي تجمع بين المصريين القدماء والعرب من حيث انهم موجات عربية الجنس من جزيرة العرب بالاضافة الى ثلاثة عشر قرناً طويلة طبعت مصر بطابع خالد من العروبة الصريحة ومظاهرها وتقاليدها وروحها ، والى ما قام بين مصر والبلاد العربية من صلات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعسكرية وثيقة خلال هذه القرون والى الزعامة السياسية والعسكرية التي كانت لمصر على معظم هذه البلاد خلال كثير منها وما كان يعود على مصر وهذه البلاد معاً من ذلك من منافع عظمى مادية ومعنوية ، وتبيين ما في حملة الفرعونية واللغة العامية والعزلة عن العالم العربي من اضرار وشطط وتناقض مع التاريخ والواقع والعلم والمنطق واحداث الدهر ، وصار يكتب حول هذه المواضيع الفصول وتلقى المحاضرات وتعقد المناظرات وتنشأ الهيئات والمنظمات على اشكال متنوعة منها السياسي ومنها

الصحافي ومنها الثقافي ومنها الادبي ، ولم تلبث ان اخذت تثمر لأنها مستمدة من طبيعة الحياة والواقع والحقيقة والشعور الكامن ولم يلبث التيار العربي الايجابي ان اخذ يقوى شيئاً فشيئاً مع الوقت ويجد سبيله الى مختلف الفئات والاوساط المصرية ويساعده في سيره عوامل عديدة ومتنوعة الى أن غدا الشعور بالذاتية العربية القومية والاخوة العربية شاملا مع تفاوت في المدى مهما بدا من شذوذ الشعوبيين وانتهازهم فرص الاحداث والنكبات للتعكير بالتعطيل والتهويش .
وقد دعم هذا الشعور دعماً حاسما بتبني الملك فاروق والحكومات التي تعاقبت على الدست منذ سنة ١٩٣٧ والاحزاب السياسية للفكرة العربية واهدافها واندماجها فيها وغدو ذلك من اسس سياسة الدولة كما هو شأنه في بلاد الشام والعراق .

ولقد حرص الافرنسيون على ان يجعلوا لبنان ايضاً بمعزل عن تيار الحركة العربية الحديثة ، وكان بينهم وبين نصاراه وخاصة موارنتهم وكاثوليكهم الذين هم غالبية سكان بيروت ولبنان القديم روابط وثيقة ترجع الى عشرات السنين وتتغذى بالمدارس الافرنسية المنتشرة في جميع انحاء لبنان والتي نشأ فيها عدد عظيم منهم أو معظمهم على حب فرنسا وآدابها وتاريخها وأبطالها والاندماج فيها واعتبارهم اياها حامية او كما يسمونها اماً حنوناً، فكان كل هذا وسائل لتحقيق هدف الافرنسيين استعانوا بها على مناوأة الحركة العربية وأهدافها وانحراف لبنان بتيارها واندماجه في الاخوة العربية والشعور العربي الذي كان آخذاً في النمو والاتساع في بلاد الشام الأخرى التي كانت تحدق بلبنان من كل جهاته . وبذلوا جهودهم في نفث السموم والمغالطات باسم البحوث العلمية والوطنية والثقافية وكان من جملة ذلك تلقين النصارى وخاصة الموارنة الذين كانوا عامود لبنان الصغير الفقري الذين هم العنصر الاكبر المعتز بكيان وعنعنات وتقاليد خاصة انهم ليسوا عرباً وانما هم انسال الفينيقيين وان العرب ليسوا الا غزاة كسائر الغزاة وان الفينيقية هي الأصل الذي يجب ان ينتسب اليه اللبنانيون ويتمسكوا به وان الفكرة العربية ليست الا ستاراً يخفي وراءه السيطرة الاسلامية وان الديانة الاسلامية ليست ديانة وطنية وانما هي دخيلة وان الديانة الوطنية الحقيقية هي المسيحية لأنها نشأت

في بلاد الشام ، وان الفكرة العربية لاتقوم على أساس علمي لأن سكان سوريا وان تكلموا العربية هم مزيج من عناصر ودماء متنوعة وانها الى هـذه فكرة رجعية وغير انسانية حيث تستمد من العصور المظلمة المتوحشة وترتكز على الأنانية والأثرة . وقد اثاروا النعرات الطائفية في طوائف لبنان الاسلامية والمسيحية معاً اثارة شديدة غدت الطائفية بسببها ناظمـة للحكم والسياسة والمناصب والوظائف وشغلت او كادت تشغل لبنان عن خارجه .

ولقد كان لهذه التلقينات والجهود آثار ايجابية في جمهرة الموارنة في الدرجة الأولى وفي جمهرة النصارى عامة ظهرت في تصريحات كثير من زعمائهم الدينيين والسياسيين ومواقفهم المضادة للفكرة العربية والشعور القومي وفيما كان يبدو منهم من الرغبة في أن يكون لبنان منعزلاً عن ذلك متمتعاً بحياة خاصة تحت حماية فرنسية .

غير ان الصورة قد تبدلت هنا ايضاً تبدلاً عظيماً . فقد كان للمساعي الافرنسية ضد العروبة والاسلام وآثارها الايجابية في الطوائف النصرانية رد فعل في الطوائف الاسلامية التي كان كثير من زعمائها مندمجين في الحركة العربية منذ انبعاثها والتي تتسق في ميولها وآمالها معاً منذ الأصل ثم التي كانت تستجيب لدعايتها وتيارها بصورة أشد بعد الحرب العالمية الأولى مما كانت آثاره تظهر في مختلف المناسبات والاحداث .

وقد كان لتميز الاقتصاد الفرنسي وتأثيره في تعطيل مصالح أهل لبنان وشل صناعاتهم وتجاراتهم وشركاتهم أولاً وما كان من صلف الافرنسيين وحمقهم وغطرستهم الشديدة ثانياً وما كان من سوء استغلال الموظفين الافرنسيين لمناصبهم وسلطتهم واستغراقهم في رغبة الاثراء بأي طريق واقترافهم في سبيل ذلك كل عسف وشذوذ ثالثاً رد فعل شديد في نفوس كثير من النصارى بما فيهم الموارنة حيث أدرك الواعون منهم نظرة الازدراء التي ينظر الافرنسيون بها الى الجميع واستخفافهم بهم وترفعهم عنهم وحيث رأوا أن تظاهر فرنسا بحب لبنان وأهـله واشادتها بتقاليدها فيه ودعايتها الطويلة العريضة في صدده لم يكلى لسواد عيون

لبنان ونصاراه وانما كان وسيلة لبسط السيطرة عليه وعلى سائر بلاد الشام بطريقه وجعلها مجال فرنسا الاستعماري وان الروح الاستعمارية والاستغلالية والمتغطرسة هي المسيطرة على السياسة الفرنسية من جهة والمسيرة للافرنسيين كأشخاص واتهم الفرصة من جهة أخرى.

فكان لهذا وذاك تأثير غير يسير في زلزلة البناء الذي أقامه الافرنسيون في لبنان وتصديع السور الحديدي الذي حاولوا ضربه بينه وبين البلاد العربية والحركة العربية والشعور بالذاتية العربية ولاسيما أن تلك الدعايات والمساعي لم تكن تستند إلى الواقع والحقيقة والطبيعة والعلم في شيء من حيث ان من الحقائق التاريخية الكبرى التي لا يمكن ان تفوت عاقلا ان وحدة الجنس الاصلية قبل الاسلام المتمثلة في كون المنبع الاصلي هو جزيرة العرب جامعة بين سكان لبنان وسكان البلاد العربية وأن الجميع يعيشون في جو تاريخي وسياسي واحد منذ الف وثلاثماية سنة ، وان لبنان ونصاراه لم يكونوا بمعزل تام عن الفكرة العربية الحديثة لأن بعضهم كان من أوائل الذين اعتنقوها في عهد الدولة العثمانية وقبل اعلان الدستور العثماني وتضامنوا مع بعض المسيحيين وأسسوا بعض الجمعيات التي قامت ببعض النشاط في سبيلها كما كان من نصارى لبنان من استغرق بالعروبة وأمجادها واللغة العربية وآدابها ومفاخرها استغراقاً شديداً في الحقب الأخيرة من عهد تلك الدولة وصاروا من أعلامها المشهورين وفرسانها المبرزين وأن عدد الطوائف الاسلامية المندمجة روحياً وتاريخياً فيها يعدل عدد النصارى أن لم يزد عنهم وفيهم جمهور كبير متصل الارومات بالعروبة الصريحة من قبل الاسلام وأن وضع لبنان الجغرافي فوق ذلك كله لا يمكن إلا أن يملي على سكانه اتحاداً وتشاركاً مع سائر سكان البلاد العربية التي تحدق به في مختلف المصالح.

وقد كاد هذا التبدل يبلغ ذروته في انفجار عام ١٩٤٣ حينما أعمت الرعونة الموظفين الافرنسيين واعتقلوا رئيس الجمهورية والوزراء وعطلوا الدستور والبرلمان لمنع التعديلات التي تزول بها عن لبنان صبغة الانتداب والاستعمار

الافرنسي حيث دشنوا الانفجار ولادة لبنان ولادة عربية نضالية رائعة والتحاقه بقافلة النضال العربي في سبيل أهداف الحركة العربية ، وحيث كان لتجاوب البلاد العربية شعوبها وحكوماتها معاً مع لبنان اثر عظيم في تقوية الشعور القومي حتى غدا هو الآخر شاملا مهما بدا أن آثار الدسائس والوساوس والروابط والدعايات المضادة لا تزال قوية وخاصة في رؤساء الموارنة مما سوف يتكفل الزمن بمحوه من دون ريب لأنه مخالف لطبيعة الأشياء وحقائق الأمور والوقائع والظروف التاريخية والجغرافية والمصالح الخاصة والعامة .

كذلك كان شأن الافرنسيين في أقطار المغرب العربي ، فقد رسموا خطة رهيبة تجردت من كل شعور بالحق والواجب والحرية والعدل والضمير والشرف والأمانة والانسانية وهي تغيير وجه المغرب العربي المسلم ولسانه ودينه وحرمان أهله من مقومات الحياة الحرة الكريمة وابقائهم في أحط دركات الجهل والفقر وقطع كل صلة بينهم وبين المشرق العربي أولاً وبين أقطارهم نفسها ثانياً .

ولم يرض المغاربة بهذا المصير الرهيب فاخذوا يقاومونه ما وسعتهم قواهم ، وظلت هذه المقاومة وتصرفات الأفرنسيين القاسية الباغية تمدهم بالقوة وتساعدهم على التمرد والاحتفاظ بعروبتهم ودينهم الى ان اشتد تيار الحركة العربية الحديثة في المشرق وتمكن من أخذ سبيله اليهم شيئاً فشيئاً ، والتقى القائمون بالحركة القومية العربية في المشرق والمغرب ، وانخرق الستار الحديدي الكثيف الذي ضربته فرنسا بينهما ليحول دون تدفق التيار ، بحيث يمكن أن يقال ان الشعور بالذاتية العربية القومية من جهة وبالأخوة العربية العامة من جهة أخرى قد أخذ يشمل سكان المغرب العربي كما شمل سكان المشرق العربي مهما بدا ان الافرنسيين مشتدون في حرصهم على الاحتفاظ بسيطرتهم والاستمرار في بغيهم .

ولقد كان للانفصال البات بين الدولة العثمانية والبلاد العربية التي عاشت في جوها غير شاعرة بذاتيتها وكيانها الخاص أو غافلة عنهما حقبة طويلة وما تبع ذلك

من الانقلاب الـكمالي الذي أطاح بالسلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية وكثير من الروابط المعنوية والثقافية التي كانت تربط العرب بالترك أثر غير قليل في انصراف العرب الى التفكير بذاتيتهم وقوميتهم وانتشار الشعور بذلك في مختلف طبقاتهم منذ عهد مبكر .

ثم ساعد على تقوية هذا الشعور اتساع النطاق التعليمي خلال الحقبة التي مرت منذ الانفصال وما رافق هذا الاتساع من تطور في الكيفية أيضاً نتيجة لتطور الزمن ووسائل اتصال العلم بعضه ببعضه وسعة اقتباس الأساليب والأفكار ، وهزات الحربين العالميتين الشديدة التي هزت العالم وجعلته يجيش بالدعوات والمبادئ والحركات والآمال والمطامح المتنوعة ، والحركات الوطنية والكفاحية التي لم تكد تهدأ في البلاد العربية وما كان من تجاوب هذه البلاد معها ، والنشاط العربي العام الذي قوي أثناء الحرب العالمية الثانية واستمر الى مابعدها والذي كان من آثاره بعض المواقف الاجماعية الرسمية والشعبية في صدد قضايا العرب ، ومؤتمرات الأطباء العرب ومهندسيهم ومحاميهم الدورية التي كان يجتمع فيها مئات الأطباء والمهندسين والمحامين المصريين والشاميين والعراقيين والحجازيين واليمانيين والمغاربة في عاصمة من عواصم العرب فيملأ اجتماعهم الأسماع والأفكار بما كان يدور فيه من أحاديث العروبة ووحدة المصالح والروابط والحوافز التي تجمع بين الشعوب والبلاد العربية فيكون موسم قومي عظيم يمتد أياماً وتندمج فيه الصحافة والهيئات الاجتماعية المختلفة .

ولقد كان من آثار النشاط العربي العام أثناء الحرب العالمية الثانية أو من مظاهره مشاورات الوحدة العربية وقيام منظمة جامعة الدول العربية . ولقد امتدت المشاورات سنة أو نحوها أمّ مصر خلالها وفود العراق وسوريا والاردن ولبنان والحجاز واليمن ، وكانت تقام بمناسبة ذلك الحفلات وتخطب الخطب وتذاع الاذاعات وتكتب المقالات في آمال العرب وأهدافهم. وقوة مايجمع بينهم من الروابط فيتردد صدى ذلك في مختلف أوساط العرب وأقطارهم فيملأ الأسماع والآذان ويبعث الآمال ويقوي الشعور بالقومية العربية والاخاء العربي

حتى ليمكن أن يقال ان هذه السنة التي مضت في المشاورات والتي اسبتن فيها المحامون والأطباء والمهندسون سنة مؤتمراتهم الدورية كانت أشد أدوار جيشان الحركة العربية وتيار الشعور العربي بوجه عام ، وقد كان من أثر ذلك ان أخذ رجال الحركة القومية والنضالية في المغرب العربي ورجال أحزابه يعلنون رغبتهم في مشاركة المشرق العربي فيما يدور بين ابنائه من حديث الوحدة العربية وبرقياتهم فيلتقي بذلك المشرق والمغرب العربيان في مجال واحد من الحركة العربية الحديثة واهدافها .

ولقد كان قيام جامعة الدول العربية جدثاً خطيراً من دون ريب كان له اثر كبير فيما نحن في صدد تقريره . ولقد احيط قيامها بشيء كبير من الطنطنة والابهة وكانت حين نشوئها خاصة تمثل كثيراً من اماني العرب واهداف الحركة العربية وتبعث الأمل في تحقيقها مع الزمن ثم اخذت تشغل الأذهان وتملأ الاسماع بما كان من اجتماعاتها التي كانت تتوالى والتي كانت تضم رجالات العرب السياسيين البارزين ليتحدثوا في مصالح العرب المشتركة السياسية وغير السياسية ويتخذوا المقررات ، وكانت ترافق رحلاتهم واجتماعاتهم وأحاديثهم وخطبهم ومقرراتهم جلبة وضجة دعائية في الأوساط والصحف فيكون ذلك كله من مقويات الشعور بالقومية العربية والاخاء العربي العام واتساع نطاقه .

ولقد كان تأثير الحركات الوطنية والنضالية بنوع خاص مهماً من جهة ومزدوجاً من جهة اخرى في اتساع نطاق الوعي القومي وتطوره . ولقد ظلت تقوم منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى في كل بلد من بلاد العرب جمعيات واحزاب واجتماعات ومؤتمرات ومظاهرات واضرابات ومقاطعات ودعوات دعائية وثورات دامية تستهدف الفكاك من شر الاجنبي واحتلاله ودسائسه وعنته والتمرد عليه والاستمتاع بالحرية والاستقلال والعزة القومية ، وتنبيه الشعور القومي في الامة وتأليبها وتوجيهها نحو الهدف ، ولقد كانت تشتد احياناً فتكون سيلا جارفاً ينجرف فيه جميع طبقات الشعب وينتظم فيه القطر الذي يشتد فيه من اقصاه الى اقصاه وتهز كيانه هزاً شديداً وترتفع فيه روحه الى رفيع درجات البطولة

والاستماتة وتتأجج ناره حتى يصل لهيبها الى عنان السماء فتلفت أنظار العالم وتزعج المستعمر اي ما ازعاج . وليس من بلد من بلدان العرب في المشرق والمغرب الا سجلت صفحات كثيرة من البطولة وخلدت صوراً عديدة للحركات القومية والنضالية القوية الرائعة في اشكال ومناسبات عديدة . فمن الطبيعي بالاضافة الى ما كان في هذه الحركات من مظاهر قابلية الأمة وقواها الكامنة في مختلف اقطارها ان يكون لها اثر فعال في تكوين روح الشعب وتقويه شعوره وبالذاتية القومية وايقاظ وعيه وتطوره .

ومن جهة اخرى فانه لم يكن يقوم في بلد حركة نضالية حتى تسترعي انظار وأذهان البلاد الأخرى فتثير فيها عاطفة الاخوة والحماس وتدفعها الى التعضيد المادي والمعنوي أوكليهما وبالتالي تقوى شعور الاخوة القومية العامة ومفهوم المصلحة المشتركة العامة وواجب التضامن القومي العام .

ولعل اثر حركات فلسطين ودورها في صدد ما نحن فيه اشد وأبرز . فالذين حملوا عبء الحركة الوطنية فيها رأوا منذ البدء انهم امام محنة شاقة وغزوة بعيدة المدى لاتشبه ما عرضت له البلاد الأخرى من محن وان بلواهم بالاضافة الى خطورتها ليست محلية طارئة يمكن ان تزول بضعف الغازي المستعمر وتطورات السياسة العالمية . فمن جهة قاموا بواجب نضال محلي بقدر ماطاقته قواهم وبنيتهم وروحهم واستطاعوا أن يسجلو صفحات خالدة في مختلف ادوار النضال ، ومن جهة قاموا بدعوة مستمرة قوية لتنبيه العالم العربي خاصة والعالم الاسلامي عامة الى ما يحدق ببلاد العرب ومقدسات المسلمين من اخطار اذا ما تمكنت اليهودية ورسخت قدمها في فلسطين . وقد كانت دعوتهم تلقى اذنا سامعة وتجاوباً حسناً بعض الشيء فتبادر بلاد العرب والمسلمين الى تأييدهم بالمظاهرات والاحتجاجات والتشكيلات والمساعدات المادية والمعنوية والاشتراك في الجهاد الدموي وبشهود المؤتمرات التي كانوا يدعون اليها ويعقدونها في فلسطين وغير فلسطين ، ولم تلبث الحكومات العربية ان اندمجت في ذلك كله اندماجاً لم يسع الحكومة الانكليزية الا الاعتراف به اثناء انتدابها المشؤوم وتسايره بما كان من اشراكها في الابحاث

والمؤتمرات التي جرت وعقدت للنظر في حل مناسب للقضية الفلسطينية فكان هذا بالرغم من انه لم يصل الى نتائج حاسمة بسبب ضعف بنية العرب العامة وروحهم وسيلة لتقوية شعور اهل فلسطين بما بينهم وبين العالم العربي من اخوة ثم كان في نفس الوقت وسيلة لتكتف الأفكار والجهود في مختلف اقطار العرب وتلاقيها ثم صعيد واحد مما كان مظهره ما كان من ادوار هذه القضية وحربها الشعبية والرسمية واندماج جميع العرب شعوراً وحكومات فيها ومما كان له تأثير ايجابي قوي في قوة الشعور القومي العام ولتطوره . واذا كانت النهاية الحاطمة التي انتهت اليها قضية فلسطين وما كان في اثناء الحرب الفلسطينية وما بعدها من احداث اليمة ممضة قد زلزلت ثقة العرب في أنفسهم وخيبت ما كان يجيش في صدورهم من آمال واثارت اربداداً وتجهماً شديدين في دنيا العرب فانها لم يكن من من شأنها اضعاف الوعي والشعور القوميين ، بل لعلها كانت من مقوياته مما يعد من مظاهره هذه اللوعة المريرة والشعور بالكرامة القومية المهينة والجرح البليغ في جميع بلاد العرب واوساطهم .

على ان من الحق ان يقال مع ذلك كله ان هذا الشعور والوعي القوميين العامين هما ايضاً ضعيفان وسلبيان وجامدان وان ضعفها وسلبيتها وجمودها عثرات شديدة في سبيل هدف الوحدة او الاتحاد العربي وسائر الأهداف التي يتحقق بها التضامن والتواثق والانسجام والتمازج بين الشعوب العربية على اختلاف اقطارها لضمان مصالحها المشتركة على اختلاف انواعها .

ولقد اوجد انقضاء حقبة طويلة على نشوء الكيانات العربية المستقلة العديدة التي نشأت نتيجة لسياسة التجزيئ والتوهين التي انتهجتها فرنسة وبريطانيا في الحرب العالمية الأولى وبعدها في كثير من ابناء الاقطار العربية ذهنية الاقليمية الضيقة واعتباراتها فصاروا يرون لهم فيها مصالح ومآرب قد تفوتهم اذا ما اشتد الوعي القومي والشعور بالاخاء القومي العربي العام اشتداداً قوياً متحركاً بذاته واتجه نحو تحقيق تلك الأهداف فغدوا لاينون عن اقامة العراقيل وتحريك التيارات المضادة لذلك الوعي والشعور . ويفعل هذا كذلك الشعوبيون المستعربون

باللسان دون القلب والاعداء المتربصون بالامة العربية دوائر السوء ايضاً ، وهذا فضلاً عن مصالح الأسر الحاكمة والمالكة والرفيعة واعتباراتها التي هي من العقبات الكأداء المضادة كذلك .

فكل هذا مما يستدعي بذل الجهد الكبير العاجل المستمر في سبيل تنمية الوعي القومي العربي العام تنمية جماعية تتناول جميع الأقطار العربية وتقويته وتحريكه حتى يصبح قوياً متحركاً بذاته متجهاً نحو الأهداف القومية المذكورة وقادراً على املاء إرادته بذلك على الرؤساء والحكام ويتغلب على مختلف التيارات والعقبات والعراقيل .

والشباب مدعوون الى هذا الواجب كما هم مدعوون الى الواجب الأول فعليهم ان يتفرغ فريق منهم في كل قطر لهذا الواجب القومي العظيم . أما الوسيلة الى القيام به فاما عقد مؤتمر عربي عام شامل يشترك فيه ذوو الخطر ممن يعتنقون الفكرة العربية وأهدافها في كل بلد عربي فيتفقون على منهج شامل سياسي واجتماعي وثقافي ودعائي لتحقيق الأهداف المذكورة وينشئون للمؤتمر فروعاً في كل بلد تتفرغ لتنفيذ المنهج وتتوسل الى كل ذلك بكل وسيلة وتنتفع من كل فرصة بل وتخلق الفرص المفيدة ايضاً . واما بتأليف حزب قومي عام يوضع له مثل ذلك المنهج وتؤسس له فروع واندية في كل بلد فتتفرغ للسعي والعمل في سبيل تحقيق المنهج .

ونؤكد خاصة على فكرة التفرغ بحيث لا تشتغل هذه المنظمة بالسياسة الاقليمية ومشاغلها الا بالمقدار الذي يتصل بالأهداف العامة القومية والمنهج المتفق عليه .

ونحن نعرف انه جرت محاولات في سبيل عقد مؤتمر عربي عام في عام ١٩٣٢ ثم في سنة ١٩٤٦ ثم ١٩٥١ فاخفقت . غير ان الاخفاق لا يجوز ان يكون سبباً للجمود ازاء هذا الواجب القومي . ولعل تجربة الاخفاق هذه تملي القول بفضل تأسيس حزب قومي عام بغير طريق المؤتمر . ففي كل بلد من بلاد العرب فريق كبير من الشباب والكهول مستعدون للتجاوب فيما نعتقد اذا قام بالدعوة جماعة مؤمنة دؤوبة متفرغة لها .

هذا ، ونعتقد ان في استطاعة الدوائر الاجتماعية والثقافية الحكومية ومن واجبها ان تساهم في حل مشكلة التنظيم الشعبي من الناحية الاجتماعية على الاقل بحيث ترسل بعثات الاختصاص بالتنظيم الشعبي والاجتماعي وتعهد اليها بالاشراف على اندية الشباب ومنظماتهم على اختلاف انواعها وتوجيهها ومدها بالمساعدات المادية وتشجيعها على التوسع والتغلغل بالأحياء والقرى بسبيل الأعمال والأهداف الاصلاحية والاجتماعية والصحية والتهذيبية والثقافية والرياضية الخ..

(٧) مسئلة المرأة العربية

— ١ —

وهذه مسئلة خطيرة يجب أن يكون لها حيز كبير في معالجاتنا القومية . فالمرأة أحد الركنين الذين يقوم عليهما بنيان الأمة فضلا عن كونها الأم والمربية وربة البيت . وكل هذا يسبغ على مسألتها خطورة عظمى ويجعل لها آثاراً في حاضر الأمة العربية ومستقبلها تختلف قوة وضعفاً وسلباً وايجاباً وفساداً واصلاحا حسبما تكون عليه حالة المرأة العربية وحركتها وسيرتها ومركزها في الدولة والمجتمع والأسرة .

ولقد كان هذا الموضوع من المواضيع التي اهتم لها الناهضون من الأمة العربية منذ بدء اليقظة الحديثة ، وكان من أهم المواضيع التي دار حولها البحث والجدل والأخذ والرد والتجاذب والتدافع بأساليب عديدة واعتبارات متنوعة .

فالشباب العرب الذين احتكوا بالغربيين أو تعلموا في بلادهم لمسوا ما تقوم به المرأة الغربية من أدوار مهمة في حياة المجتمع عامة وفي حياة البيت وتربية النشء خاصة ، وما تتمتع به من نصيب كبير من الحرية ، وما هي عليه من الثقافة التي تساعدها على القيام بتلك الأدوار ، فاخذوا ينعون جهل المرأة العربية وخاصة المسلمة واهمالها وما هي فيه من ضيق وحرمان وعزلة وقيود ويدعون الى تعليمها وتحريرها وأخذ فريق منهم يدعو الى سفورها ويرى انها لا يمكن ان تؤدي الأدوار العظيمة التي تترتب عليها في المجتمع والاسرة ولا يمكن ان تنال ماينبغي ان تناله من العلم والثقافة والمركز الاجتماعي الا به .

ولقد نقل في هذه الاثناء عن الغرب ما يوجه كتابهم وباحثوهم ومغرضوهم الى الشريعة الاسلامية من انتقاد ويتهمونها به من جور واستبداد بشؤون المرأة من حجاب وقيود وتجهيل وعزلة وطلاق وإرث وتعدد الخ ، فانبرى الكتاب والعلماء المسلمون للرد عليهم ، يدفعون عن الشريعة الاسلامية مانسب اليها من جمود وقصور واستبداد وقيود ، ويبينون الحكمة فيما احتوته من شؤون الطلاق والتعدد والارث ، ويقررون انها لا تمانع بل تحث على تعليم المرأة وأنهـا قد ضمنت لها من الحقوق مالا نظير له في الغرب ، ويضربون الأمثال على ما كان لها في العصور الذهبية الاسلامية من مكانة وحرية وأثر علمي وأدبي وسياسي وينسبون ما يمكن أن يكون واقعاً عليها من تشديد وتقييد وإرهاق الى الجهل الذي ألم بالمسلمين في سلسلة قرون انحطاطهم وجمودهم، ويؤيدون الدعوة الى وجوب تعليمها وتمتعها بما قررته لها الشريعة من حقوق وحريات وينهبون على قبح ما اعتيد عليه من عادات مغايرة للشريعة نصاً وروحاً .

ومن الحق أن يسجل بان ما كان من أخذ ورد وبيان حول حقوق المرأة وما اورد في هذا الصدد من النصوص والأمثلة الدينية والتاريخية قد جلا تلك الوصمة التي حاول الغرب الصاقها بالشريعة الاسلامية جهلاً أو عمداً ، وجلا بصورة ساطعة الأسباب الحكيمة والشروط الشرعية المعقولة في الطلاق والتعدد والارث . وكان عاملاً من جهة أخرى مع تقدم الزمن والتعليم وانتشاره على تقدم المرأة في مضمار التعليم أشواطاً غير يسيرة وعلى انتشار النفرة من التعدد والطلاق بدون سبب معقول وشرعي ، وعلى تبدل موقف الرجل من المرأة ومعاملتها بالحسنى والاعتراف بحقها ودورها في الحياة وخاصة في الأوساط النيرة، فانحلت عقد كثيرة في صدد تعليم الفتاة وزواجها وطلاقها وارثها وحريتها وحقوقها وضعفت أو زالت عادات قبيحة ظالمة ، وذهنيات كريهة نحوها ، وتهيأ لها هذا المجال الواسع الذي هي فيه اليوم .

— ٢ —

واذا كانت معركة السفور والحجاب ظلت ناشبة مدة غير قصيرة بل ومازال قائمة الى الآن في مختلف الأوساط والانحاء مع ماطرأ عليها من خفة حدة وتراخ فان ذلك راجع لأسباب أخرى . فتقليد الحجاب قديم استقر في الأذهان أن له أصلاً دينياً شرعياً ، وهو ذو علاقة وثقى بموضوع العرض الحساس وما يمكن أن يجر اليه التخلي عنه من أمور لا تهضم بسهولة ويسر ، وضيق نطاق التعلم وقوة أثر الذين كانوا يلتزمون الجانب الحجابي ويرجعونه الى أصل ديني ، وقيام عهد دولة الخلافة التي كانت روح المحافظة هي السائدة المستحكمة فيها، كل ذلك كان له أثره بطبيعة الحال . ومع ذلك فان طرفي المعركة كانا متفقين أو كالمتفقين على الأسس الأخرى من ناحية ضمان الشريعة لحقوق المرأة ومركزها وتعليمها والدعوة الى ذلك والاعتراف بان ماهي فيه من مركز غير مستحب هو مناقض لنصوص الشريعة وروحها ، وهذا ما ساعد ولا ريب على انحلال تلك العقدة وزوال كثير من تلك العادات والذهنيات البغيضة .

ونستطرد الى القول ان الذين نسبوا الحجاب وبتعبير أدق النقاب الى أصل قرآني قد حملوا النص ما لا يحتمل ، وغفلوا عما كان عليه الأمر في صدر الاسلام الذي كان هو الأقرب عهداً وفهماً للقرآن حيث كانت المرأة تشارك الرجل في المسجد وتشهد مجالس النبي وتشترك في الغزوات وتقوم بكثير من الأعمال النافعة فيها الى جانبه ، ولم ينفذوا الى ماهنالك من تناقض بين ماقرروه بحق من صلاحية الشريعة الاسلامية للخلود وتمشيها مع كل زمن وبين فهم كونها فرضت أزياء وأشكالاً خاصة في اللباس والأزياء التي هي عرضة للتطور والتبدل الدائمين ، ولو كان الأمر كذلك حقاً لوجب أن يكون كل شكل وزي كان جارياً في عهد النبي هو وحده الذي يجب أن يظل جارياً بالنسبة للرجال والنساء معاً مما لم يقل به أحد ولم يجر عليه أحد في صدر الاسلام وبعده ؛ ولم يدركوا بالتبعية بداهة كون الآيات القرآنية ليست في صدد فرض زي خاص المرأة المسلمة

ثابت على الدهر وانما هي في صدد ظروف خاصة في زمن خاص من جهة وفي صدد الحث على التعفف والاحتشام والبعد عن مواقف الريبة والأذى من جهة وفي صدد تنظيم دخول الناس على بعضهم من جهة كما يمكن أن يظهر ذلك واضحاً لكل من يمعن النظر فيها ، ثم هي ليست على كل حال في صدد لف المرأة المسلمة بذلك اللفاف الذي سمي الزكيبة بحق ، وتنقيب وجهها بالنقاب الذي كان موضوعاً من مواضيع المعركة والذي لايمت بأي سبب الى الاسلام وانما هو زي خاص ظهر في بعض العصور الاسلامية المتأخرة . والروايات والكتب التي وصلت الينا عن ذلك الصدر بصورة لاتقبل التأويل والمماراة بان المرأة المسلمة في القرن الاسلامي الأول لم تكن متلففة ولا متنقبة كواجب ديني وأنها كانت ترى الناس ويرونها وتحضر مجالسهم ويحضرون مجالسها . ومن النساء من كن يعقدن في بيوتهن مجالس الأدب ويتزعمن الحركات والأحزاب السياسية والحربية ويشغلن حيزاً واسعاً في مجال الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية ومن هؤلاء من هن أقرب الناس الى النبي كعائشة وسكينة . هذا عدا أن اكثرية النساء المسلمات الساحقة كن وما زلن سافرات مشاركات للرجل في جميع مجالات نشاطه دون أي انكار وجدل ونعني بهن سكان القرى والأرياف .

— ٣ —

ولقد تطورت الحالة بعد الحرب العالمية الأولى تطوراً عظيما حيث هزت الحرب الناس هزاً عنيفاً وجعلتهم يرضخون للواقع في كثير من وسائل الحياة ومظاهرها واتسع نطاق التعليم وشمل الفتيات بنفس السمة تقريباً التي شمل بها الفتيان وأخذ المتشددون يتوارون طبقة بعد طبقة وأنصار المرأة وسفورها وحقوقها يكثرون يوما بعد يوم بالمقابلة . وكان فيما كان الانقلاب الكمالي الذي نسف الحجاب فيما نسف ، وتابعت ايران تركيا في ذلك فكان هذا مما هيأ الميدان لنجاح معركة السفور عملياً في بلادنا بعد ان ربحها نظرياً قبل الحرب المذكورة .

وقد كانت مصر وخاصة القاهرة الميدان الأوسع للتنفيذ قبل الحرب العالمية الثانية بسبب تفوق هذه المدينة على غيرها من العواصم العربية في الكثافة والثقافة والصحافة والحيوية والمشاهد والمظاهر . وكان زعيم حركة مصر الوطنية الأكبر سعد زغلول الذي كان من أقوى انصار قاسم أمين صاحب دعوة تحرير المرأة ومن أنصار المرأة وسفورها فاستغل زعامته الشعبية ودفع السفور الى الأمام دفعة قوية في سنة ١٩٢٢ حيث مزق بيده في أحد المواقف الوطنية أنقبة بعض النساء وحيث كانت زوجته قدوة لغيرها ، وحيث أخذت حركة السفور بعد ذلك في القاهرة والاسكندرية تتسع وتتقدم بخطوات واسعة . حتى لقد شهدنا المعرض الزراعي الصناعي في القاهرة سنة ١٩٣٣ فلاحظنا أن النساء السافرات كن كثيرات الى درجة كان عدد المنقبات قليلاً جداً بالنسبة اليهن ، وقد أبدينا ملاحظتنا هذه الى بعض أصدقائنا فقال ان هذا محصول ست سنين فقط ، وان النساء السافرات كن هن القليلات في المعرض الزراعي الصناعي الذي أقيم في نفس المكان قبل ست سنين .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فأثرت هي الأخرى تأثيرها القوي العنيف وأخذت خطوة السفور تتسع بحيث يمكن أن يقال أن السفور في مصر قد توطد وكاد يغدو مألوفاً في المدن وأن المرأة المسلمة المصرية أخذت تبرز سافرة في المحافل والمشاهد على اختلاف أنواعها الى جانب الرجل دون ما حرج ولا تحفظ ، واذا كان بقي في المدن نساء متنقبات أو غير بارزات فان هذا بقية من مظاهر استمرار التقليد في الأوساط المحافظة . وهذا المظهر مازال موجوداً في تركية وايران والهند والباكستان واندونيسيا مع أن السفور والبروز موطدان فيها ، وقد أخذت بلاد الشام والعراق تخطو هي الأخرى خطوات واسعة في هذا الميدان حتى غدا السفور في مدنها وخاصة في كبراها مألوفاً وحتى لم يعد من حرج ولا تحفظ فيها من بروز المرأة سافرة في المحافل والمشاهد على اختلاف أنواعها الى جانب الرجل مثل اختها المصرية . وقد غدت المسألة مسألة وقت أكثر منها مسألة فكرة ليكون السفور عاما في المدن العربية كما هو الأمر في الأقطار

الاسلامية الأخرى . وقد خصصنا المدن بالذكر لأن المرأة العربية المسلمة في الريف سافرة بارزة منذ الأصل ومشاركة للرجل في مختلف مجالات النشاط .

— ٤ —

وقد أصبح من الواجب التفكير في النهج الذي يجب أن يسار عليه بعد ان وصل الأمر الى هذا الطور . فهناك فريقان من الأمة يقف كل منهما في طرف، أحدهما يندد بالسفور وما أخذ يستتبعه من الدعوة الى فتح كل باب للمرأة وانطلاقها في كل مجال ومزاحمتها للرجل في كسبه ومجال نشاطه وتطلعها الى مشاركته في كل شيء ويدعو الى ابقائها في حدود بيتها . وثانيهما يندد بذلك ويقرر المساواة التامة بين الرجل والمرأة في المواهب والقابليات والحقوق الخاصة والعامة وحقها في الاستمتاع بكل مايستمتع به الرجل من لهو وجد ويرى في تقييدها ومنعها عن ذلك عدوانا لا مبرر له .

أما ان المرأة مساوية للرجل في الحقوق والواجبات العامة وفي الأهلية المدنية فمما لا سبيل الى انكاره كما لاسبيل الى انكار مايستتبع هذا من كونها ركنا مساويا له في الدولة والمجتمع والأسرة ومن حقها ممارسة تلك الواجبات والحقوق في مختلف المجالات الحكومية والشعبية والاجتماعية والاقتصادية وفي التهيء لها بنيل اقصى ما يمكن نيله من ثقافة فنية وعلمية ومهنية أسوة بالرجل دون قيد وشرط . وهذا مؤيد بالقرآن الذي هو نبراس المسلمين والذي خاطب المرأة بجميع ما خاطب به الرجل وكلفها بجميع ماكلف به الرجل من تكاليف دينية ودنيوية واجتماعية واقتصادية وسياسية وحملها تبعاتها المادية والمعنوية والدنيوية والاخروية واعتبرها تامة الأهلية والتصرف من الوجهة المدنية والمالية دون مافرق ولا تميز عن الرجل . وما ورد في القرآن من بعض النصوص التي تجعل الرجل مقدما أو فاضلا عليها في بعض الحالات فهو متصل بخصوصية حياتها الزوجية والجنسية وليس من شأنه نقض ماقرر لها من الحقوق والواجبات العامة والأهلية المدنية التامة والتعارض معه .

— ٥ —

وتدور الآن في مصر معركة جدلية بمناسبة تطلع المرأة الى الاشتراك في الحياة النيابية وقد رأينا بعض علماء الدين ينبرون الى انكار ذلك عليها ، ويذهبون في انكارهم الى ان المرأة ليس لها ان تندمج في حياة المجتمع لأنها مأمورة بالقرار في بيتها بنص القرآن وأنها ليس لها حق بصفة الولاية العامة التي تدخل الهيأة النيابية في نطاقها بدليل عدم ممارستها مثل هذه الصفة من لدن العهد النبوي الى الآن . والنص القرآني بالقرار بالبيت هو خاص بنساء النبي بصراحة النص القاطعة الذي جاء فيه : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفا . وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ».

وهذا فضلاً عن أنه لم يقصد بهذا النص تحريم الخروج على نساء النبي كما هو متفق عليه عند جمهور المفسرين والعلماء وإنما قصد به عدم اكثارهن من الخروج لما اختصصن به من خصوصيات ومزايا متصلة بالنبي ووحي الله وما يتلى في بيوتهن من آيات الله وحكمته . ومن المتواتر أنهن كن يخرجن في حاجاتهن دون حرج ولا انكار .

والنص القرآني بعدم دخول المسلمين على بعضهم إلا بعد الاستئناس والاذن ليس خاصاً بالرجال دون النساء وإنما هو خطاب عام موجه للمسلمين نسائهم ورجالهم على السواء .

والنصوص الأخرى التي تخاطب المرأة كما تخاطب الرجل في كل ما أمر به المسلمون ونهوا عنه وأبيح لهم وحرم عليهم وأوجب عليهم تبعاته الدنيوية والاخروية من تكاليف تعبدية ومالية وبدنية واجتماعية واقتصادية وسياسية اصرح من أن تتحمل تمحلاً او تأويلاً بسبيل انكار حق المرأة أو تحديده أو أو تضييقه أو تكييفه .

وليس في القرآن نص صريح يمنع المرأة من الولاية العامة ولا من ممارسة أي حق وعمل من الحقوق والأعمال العامة التي يمارسها الرجل . وفي القرآن نصوص صريحة بأهليتها وممارستها لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبتبادلها الولاء وتضامنها مع الرجل وبهجرتها وخروجها وقتالها وتحملها الاذى الى جانب الرجل وباستقلالها في الشخصية السياسية ومبايعتها من قبل النبي على ما بايعه عليه الرجال وهي داخلة حتماً في خطاب وعد الله بالاستخلاف في الأرض مع الرجل سواء بسواء كما ترى في الآيات التالية :

١ ــ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ... آل عمران ١٩٥

٢ ــ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ... التوبة ٧٦

٣ ــ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ... النحل ٩٧

٤ ــ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ... النور ٥٥

٥ ــ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ... الممتحنة ١١

وفي كل هذا ينطوي حق التشارك في الاعمال العامة بل وفي الولاية العامة كما هو واضح . ومما يحسن لفت النظر اليه ان آيات آل عمران (١٩٥) والتوبة

(٧٦) خاصة تنطوي على تقرير مواقف وصفات واقعية اندمج فيها المؤمنون والمؤمنات معاً في الهجرة وتحمل الاذى والخروج والقتال في سبيل الله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر مما لا سبيل الى المرأة فيه. يضاف الى هذا ان هناك روايات كثيرة منذ عهد النبي وبعده عن مشاركة المرأة في مختلف الاعمال والميادين العامة، وانه ليس هناك نص صريح من قرآن وسنة صحيحة يمنع المرأة من ممارسة تلك الشؤون التي خوطبت بها كما خوطب الرجل. وإذا كان حقاً أن المرأة لم تمارس مثل هذه الشؤون بنطاق واسع شامل كالرجل فان هذا لا يمكن أن يعطل الاحكام والتلقينات القرآنية لأن كتاب الله وسنة رسوله الثابتة هما منبع الشريعة والاحكام الاسلامية؛ وكل ما في الأمر انه ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية السابقة وحسب ماهو عرضة للتطور والتبدل مع الزمن. والحديث النبوي الذي يورد في هذا الصدد وهو «لن يفلح قوم ولّوا أمورهم امرأة» لا رد هنا حجة اذا ما انعمنا النظر ورائدنا الانصاف حتى اذا صح الحديث. لأن الحديث جاء في سياق النص على أهل فارس لتمليكهم احدى النساء ملكة عليهم في حين أن الكلام هنا يدور حول اشتراك المرأة مع الرجل في سن القوانين التي تطبق عليهما معاً وفرض الضرائب التي تجبى منهما معاً ومراقبة الحكومة التي تشرف على شؤون البلاد وتديرها والمرأة نصف اهلها وسكانها. ولقد روي ان النساء جئن الى النبي يطلبن منه ان يكون لهن بيعة خاصة اسوة بالرجال فأمره القرآن بالاجابة الى ذلك في آية الممتحنة (١١) التي نقلناها آنفاً ما فيه دلالة حاسمة على اقرار رغبة المرأة في الاستمتاع بالمركز السياسي والاجتماعي المستقل عن الرجل اسوة به. ولقد جاءت احدى النساء الى النبي تجادله عن نفسها وتشتكي الى الله في صدد مظاهرة زوجها لها فنزلت آية قرآنية تؤذن بأن الله قد سمع قولها، وتتضمن حلاً للمشكلة التي جاءت تشتكي منها ما فيه دلالة حاسمة على حق المرأة في الشكوى وعلى اقرارها على هذا الحق وتنزيل تشريع متسق معه.

ومعلوم أن القرآن لم يعين اشكال وأساليب الشورى كما لم يعين أشكال

وأساليب الحياة العامة والخاصة الا القليل الذي اقتضته الظروف وحكمة التنزيل ما فيه دلالة على قصد ترك ذلك منوطاً بتطور الزمن ضمن الخطوط العامة التي رسمها الله ورسوله ، وفي انكار تطور الزمن ومقتضياته انكار لهذا القصد القرآني ؛ ومنطق الحياة الاجتماعية الراهنة يجعل حرمان المرأة من ممارسة تلك الشؤون التي خاطبها بها القرآن وكلفها بها وحمّلها تبعاتها كالرجل غير متسق مع واقع هذه الحياة والمصلحة معاً ، وهذا سيجعل كل محاولة ضده فاشلة حتماً ، فقد قطعت المرأة المسلمة في تركية والهند والباكستان شوطاً شاسعاً في الاندماج في حياة المجتمع على اختلاف مظاهرها وأشكالها بما في ذلك الحياة النيابية ، وقطعت مثل هذا الشوط في غير الهند والباكستان وتركية باستثناء الحياة النيابية . فهي في مصر وسورية والعراق والاردن ولبنان مثلاً طالبة جامعية مختلطة مع الطلاب واستاذة للفتيان والفتيات وطبيبة تعالج الرجال والنساء وموظفة تمارس أعمال الدولة ومصالح الناس ومحامية وصيدلية وصحفية ومحاضرة وكشافة ورياضية ، وتشهد مختلف المشاهد والمجالس العلمية والاجتماعية والادبية الى جانب الرجل ، وقد اعترفت الدولة لها بهذا الواقع وساعدتها عليه على مسمع جميع الناس ومرآهم وقد منحت في سورية حق التصويت . . وعلماء الدين الذين يعارضون اليوم مشاركتها في الحياة النيابية مندمجون أيضاً في هذا الواقع بسكوتهم عن كل ذلك وبمشاركتهم فيه بشهودهم المشاهد والمجالس العامة المختلطة وربما بمشاركة نسائهم وبناتهم وقريباتهم فيه ايضاً . وما دام ان هناك قوانين توضع من قبل المجالس النيابية - وهذا شيء لم يكن في القرون السابقة - وتطبق على الرجال والنساء ، وما دام ان كل قانون عام مدني ومالي واقتصادي وقضائي وجزائي شامل المرأة كما هو شامل للرجل سواء بسواء وبدون أي تميز وفرق . وما دام ان القرآن قد خاطب المرأة بكل ما خاطب به الرجل ، وكلفها بكل ما كلفه وحملها كل ما حمله من تبعات ، وقرر فيما قرر ان المسلمين والمسلمات بعضهم من بعض وان بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، وهي داخلة حتماً في الوصف الذي وصف به المسلمون :

« والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » فان من حقها أن تشترك في بحث ما يوضع من القوانين في هذه المجالس وفي انتخاب من يشترك بوضع هذه القوانين كالرجال سواء بسواء .

ولا يرد هنا ان القرآن قرر ان الرجال قوامون على النساء وان لهم دونهن بحق هذه القوامة أن ينفردوا في وضع القوانين التي تطبق عليهن ، فان هذه القوامة هي في صدد الحياة الزوجية وحسب وقد جعل من جملة اسبابها انفاق الزوج على زوجته كما هو صريح في نص الآية :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم »

أما في غير الصلات والحياة الزوجية فليس له أي حق عليها ، فهي ترث وتوصي وتكسب وتهب وتستدين وتدين وتتاجر حسبما يتراءى لها استقلالها دون أن يكون لزوجها حق في منعها أو القوامة عليها في هذه الشؤون كما يفهم هذا بصراحة من نصوص القرآن ، وقد أقر لها القرآن الى هذا بشخصية مستقلة عن الرجل وعلى قدم المساواة معه في شؤون الحياة والمواقف والتكاليف والواجبات والحقوق والتبعات العامة كما تدل عليه الآيات العديدة التي نقلناها دون أن يكون لزوجها أي حق في منعها والقوامة عليها فيها . ولو كانت قوامة الرجل على المرأة تتجاوز صميم الحياة الزوجية الخاصة لكانت جعلت له على تصرفاتها المدنية والمالية في الدرجة الأولى لاتصالها بحاضر الأسرة ومستقبلها في حين أن المرأة مطلقة الحق والحرية والأهلية في هذه الشؤون بصراحة تامة وباتفاق جميع العلماء . فحقها وأهليتها فيما عدا ذلك أولى وآكد كما هو المتبادر .

والقول بان اشتغال المرأة بالحياة النيابية معطل لها عن بيتها وأمومتها فيه غلو كبير ، لان التصويت انما يكون في كل بضع سنوات مرة واحدة ويوماً واحداً ولان اللاتي يمكن أن يفزن في الانتخاب لن يعدو عددهن العشرات من عديد الملايين . والنيابة والعمل السياسي بسبيلها لا تشغل الا اقلية من الرجال قد

لاتصل نسبتها الى عشرة في المئة من مجموع الذكور في الأقطار العربية التي أخذت تسير على الأساليب البرلمانية الحديثة ، وجمهورهم في متاجرهم ومصانعهم وحقولهم عاملين أو أصحاب عمل . وهذا هو شأن النساء بل إن تلك النسبة سوف تكون فيهن أقل بكثير من الرجال . والقول بان المرأة جاهلة لاتستطيع أن تحسن الانتخاب فيه مفارقة لان الجهل حينما يكون جهل قدر مشترك بين الرجل والمرأة . فاذا كان الجهل لا يمنع الرجل من الانتخاب فلا معنى لأن يكون مانعاً للمرأة بطبيعة الحال . ومن المفارقة العجيبة أن يمنح الرجل الجاهل الغبي حق الانتخاب وأن يمنع عن المرأة المتعلمة !

على أن مشكلة الجهل ليست أبدية ولن يمضي عشرون سنة على أبعد تقدير حتى تكون قد زالت وتخلص منها كل رجل وكل امرأة فلا يصح أن تورد لتمنع من حق وواجب يستمران أبداً ما دامت هناك حياة مجتمع مؤلف من الرجال والنساء .

وعلى كل حال لايداخلنا شك في أن ممارسة المرأة المسلمة العربية للحياة النيابية وغيرها من شؤون الدولة والمجتمع العامة أمر واقع لامحالة عاجلا أو آجلا، وان كل محاولة مانعة ليس من شأنها مهما قويت أن تعطل ذلك، فمن الخير والحق أن لايقف علماء الدين الاسلامي الذي رشحته مبادؤه ومرونته وأحكامه وشموله وإحاطته واستجابته لكل حاجة ، وتمشيه مع كل زمن وظرف للخلود ، موقفاً لايتناسب مع هذه الصفات السامية التي اتصف بها هذا الدين ، وسيقف علماء الدين النيرون بعد أمد ما موقفاً مناقضاً له .

- ٦ -

ومع تقريرنا ماقررناه نقول أن نصوص القرآن وتلقيناته انطوت على تقرير كون ربوبية البيت والأمومة والزوجية الصالحة الأمينة من أهم مهام المرأة المسلمة ومجالاتها . وقد أوجبت عليها الاحتشام التام في الزي واللباس والسلوك

أمام غير محارمها من الرجال ، كما أوجبت عليها اجتناب الفتنة والاغراء ومواقف الريبة وكل مايؤدي الى الانحراف والشذوذ ويعرضها للأذى ، وأوجبت على الرجل نفقتها . فمن الواجب والحالة هذه أن يراعى التوازن والتوافق بين هذه الواجبات وتلك التقريرات ، وأن لايسمح لاحداها بان تطغى على الأخرى بل وان لا يسمح لواقع اندماج المرأة في حياة المجتمع ومجالاتها وحقها في ذلك بأن يطغى على وظيفتها الطبيعية وهي الأمومة وربوبية البيت والزوجية الصالحة وتنشئة الأبناء .

ومن الواجب من أجل ذلك أن يتئد دعاة الانطلاق في دعوتهم الى الانطلاق دون قيد وشرط وتحفظ وفي جميع مجالات اللهو والجد كل الاتئاد . ولا سيما أنهم يعرفون من دون ريب أن أدباء الغرب وعلماءه قد ملأوا المكتبات وشغلوا المطابع بما كتبوه ويكتبونه منذ أمد غير قصير في موضوع المرأة وما كان من انطلاقها المفرط من آثار في حياة المجتمع والأسرة وما كان منه وما يكون من فواجع دامية ووقائع حاطمة ، وما عاد على المرأة نفسها من جرائه من أخطار وأضرار وما تعرضت له من مآزق وعقد ومشكلات ، وما انفتح على المجتمع منه من أبواب الفوضى والاباحة والمفاسد وزعزعة بنيان الاسرة والمشاكل الاقتصادية من جراء مزاحمة المرأة للرجل في ميادين الأعمال حتى الشاقة منها وخلو البيت من ربته وحرمان الطفل من عاطفة أمه وحنانها والجنوح الى التفلت من الحياة الزوجية وقيودها الخ ..

ولقد أخذت بوادر هذا كله وآثاره تبدو في بلادنا نتيجة لتيار الغرب والدعوة الانطلاقية وخاصة في مصر التي كانت الميدان الأوسع لخطوة السفور حيث أخذت طبقتها الرفيعة تسيغ الاختلاط الواسع والتبرج الشديد والمشاركة في المسابح والمراقص والملاهي والماقرة وكشف المفاتن أمام غير المحارم وحيث أخذت تقع المآسي الاسروية وحيث بات الخوف يساور الناس من اشتداد التيار وعدواه للطبقات والبلاد الأخرى .

وأخوف ما يخاف منه أن تنخدع المرأة العربية بالدعوة الانطلاقية التي فيها على كل حال دعوة الى حريتها وحقوقها فلا ترى جوانب الأخطار والأضرار والمتاعب التي تكتنفها ولا تلبث أن ترى نفسها في وسط بلائها .

وهذا مما يجعلنا نلح على أصحاب الدعوة الانطلاقية بالاتئاد والتدبر في الأمر، وأن يجدوا فيما كان في الغرب وفيما أخذ يقع عندنا عظة ونذرا . وعليهم أن يذكروا أنه مهما كان المرء تواقاً للتمتع بالحرية والانطلاق وان هذا حق له فان ذلك لن يتيسر له بسبب ما يكتنف الحياة الاجتماعية من عقد واعتبارات لاسبيل الى تجاهلها ، وان يتسنى المرء أن يحمل النـاس على احترام حقوقه وكرامته وأن يحتفظ بينهم بحسن الأحدوثة والاعتبار لمصلحته المادية والمعنوية معاً الا اذا راعى ظروفاً كثيرة هي التي تملي على البشرية ان تضع قوانينها ونظمها وتقاليدهـا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية . ومهما قال الانطلاقيون فانهم لن يستطيعوا أن يكابروا في أن الطبيعة قد جعلت لكل من الرجل والمرأة وظيفة مختلفة وان هذا يقضي بان يكون لكل منهما خصائص وتقـاليد ومجالات خاصة دون أن يكون في هذا الاختلاف ضير او تهضم او اجحاف او تناقض لأنه يمت الى الاختلاف الطبيعي ، ولأنه شرع على السواء لكل منهما حيث يبيح لكل منهما ما يبيح ويوجب على كل منهما مايوجب ، وخاصة مادام هذا لا يعني حرمان المرأة من الاعتبار والاحترام وممارسة الحقوق والواجبات العامة والخاصة التي قررها وضمنها لها شرعنا على أفضل مايكون .

ويجب أن لايذهب عن بال أحد من النســـاء أو من دعاة الانطلاق من أن الافراط في الاستقبال والتبذل في الاختلاط في جميع المجالات والخفة في الخروج وخاصة الاندماج في مجالات اللهو والملاهي والمسابح والمسارح والمراقص والمنازه والخلوات والتبرج يؤدي من دون ريب الى اغراء الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل ، وكثيراً مايسوق كلاً منهما الى نسيان ماعليه من واجبات وما هو مقيد به من روابط وعقود أولاً ويسبب المآسي والنكبات الهادمة لبنيان الأسرة ثانياً. ويجب

أن يذكروا حقيقة لايصح المكابرة فيها وهي أن الرجل بطبيعته هو المهاجم وكثيراً مايكون طالباً اتطامين هذه الطبيعة دون أن يهتم للظروف والقيود والعقود والنتائج ، وقوته وطبيعته الجنسية تجعلانه في نجوة من السقوط وسوء العاقبة في أغلب الوقائع والحوادث والضرر والشر من هذا الافراط واقعان على المرأة قبل الرجل بل وقد يكونان واقعان عليها دونه . وهذا فضلاً عما يؤدي اليه هذا الافراط من نفقات عظيمة تنوء بأكثر الناس وقد يسوق في ظروف كثيرة الى الآثام والجرائم الاخلاقية والاجتماعية .

ولقد أخذت عادة التأخر في الزواج تنتشر بين الشباب ، ومع أن الغلو في المهور ونفقات الأعراس أسباب مهمة لذلك فان الافراط الذي نحن في صدده دخلاً قويا فيه أيضاً حيث يفسح المجال لكثير من الشباب للاستمتاع البريء وغير البريء مما يجعله غير متعجل للزواج . ومما يجدر التنبيه عليه هنا هو أن رغبة الفتاة في الحياة الزوجية أشد من رغبة الفتيان ، وأن كثيراً من الشباب لايتورعون عن استغلال هذه الرغبة في ذلك الاستمتاع مما يقع وباله على الفتاة في الدرجة الأولى .

والاتئاد الذي ندعو اليه في الدعوة الانطلاقية يشمل كذلك فتح مجال العمل والكسب للمرأة على مصراعيه . فمهما تكن الدعوة الى ذلك ذات وقع خلاب بالنسبة للمرأة فان من الواجب أن يذكر الداعون أن في ذلك تضييقاً على الرجل في ساحة عمله واحتمالات كسبه ومقاديرها وخاصة بالنسبة لبلادنا التي ماتزال مجالات الرزق ضيقة فيها . وفي هذا تضييق في نفس الوقت على الزوجة والأولاد الذين حملت تقاليدنا واجب الانفاق عليهم على الرجل ، كما أن فيه تحميلاً للمرأة لعبء إعالة نفسها دون ماضرورة لأنها واجدة من يضمن لها ذلك. وفيه الى هذا وذاك صرف للرجل عن انشاء أسرة بسبب ما يكون في حاجة اليه من نفقات لاتحملها ظروف مساحة كسبه الضيقة وصرف المرأة عن التقيد بقيود الأسرة واغراء لها بالانطلاق من هذه القيود واثقال كاهلها بعبء سوف تنوء به عاجلاً

أو آجلاً وحرمانها مزايا عظيمة تتسق مع طبيعتها الجنسية وهي الأمومة وربوبية البيت وسكينة العيش . وفي كل هذا ضرر بين على الرجل والمرأة والمجتمع على السواء .

ونستدرك بان ما نقرره هو ما يجب أن يكون قاعدة عامة وما هو من نتائج فتح باب العمل للمرأة على مصراعيه ، وانه لايسري على ما يمكن أن يكون هناك من ضرورات وظروف تجعل بعض النساء مضطرات الى العمل أو على ما يمكن ان يكون هناك من ميادين تكون المرأة فيها أوفر استعداداً واكثر لياقة فليس في هذا وذاك مانع وضرر بطبيعة الحال وخاصة اذا سير فيهما في نطاق القصد والاعتدال .

— ٧ —

من أجل ذلك كله يجب ان يكون وضع المرأة في الدولة والمجتمع والاسرة وفي صدد ممارسة مالها من حقوق وعليها من واجبات وفي صدد البروز والمظهر والعمل وفي صدد صلاتها بالرجل وحياتها الزوجية والبيتية متسقاً مع المنطق والمصلحة ، بعيداً عن الافراط والتفريط ، متطابقاً مع منابعنا الدينية الصافية التي قررت وضع كل شيء في مكانه الملائم بدون إفراط ولا تفريط . وها نحن أولاء نورد فيما يلي مانعتقد انه متسق مع المصلحة والمنطق ومتطابق مع منابعنا الصافية من قواعد وحدود :

أولاً — في الأزياء والاجتماعات :

١ — لامانع من ظهور المرأة العربية المسلمة سافرة .

٢ — يجب عليها الاحتشام في الثياب والزينة وستر المفاتن حينما تكون تحت انظار غير محارمها من الرجال .

٣ — لايجوز لها أن تراقص الرجال ولو كان في مرقص خاص .

٤ — لا يجوز لها أن تغشى الحانات وأماكن اللهو المريبة ولو كان معها محرم .

٥ — لايجوز لها ان تتعاطى المسكرات في أي حال .

٦ — لايجوز لها أن تشترك في المسابح والرياضات عارية أو شبه عارية مختلطة مع رجال غير محارم لها .

٧ — لا ينبغي ان تشترك في رحلات مختلطة إلا ومعها أحد محارمها .

٨ — لا مانع من شهودها المشاهد والحفلات والاجتماعات العامة البريئة بزيها المحتشم .

٩ — لا مانع من إستقبالها رجالاً غير محارمها ولا من زيارتها لهم واجتماعها بهم لمقاصد العمل والنشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي بزيها المحتشم .

١٠ — لا ينبغي لها أن تكون خفيفة في الخروج والزيارات والاستقبالات الاجتماعية وقلة التكلف ، وعليها أن تكون في ذلك متحفظة معتدلة .

ثانياً — في حياة الأسرة :

١ — يجب التبكير في الزواج والاهتمام لانشاء الأسر والتشجيع عليه من قبل الحكومات والهيئات بالمنح المالية وزيادة المرتبات والأجور والامتيازات والاعفاآت المتنوعة .

٢ — يجب الكف عن الغلو في المهور والاسراف في نفقات الأعراس ويجب أن تتدخل الحكومات في هذا المجال لضمان القصد والاعتدال فيه .

٣ — لا مانع من رؤية الخطيبين لبعضهما واجتماعهما قبل العقد ضمن القواعد السالفة .

٤ — يجب العدول بالمرة عن الزواج الغيبي والاجباري بالنسبة للفتى والفتاة على السواء .

٥ — يجب فرض المعاينة الطبية على الزوجين ومنع ذوي العاهات والأمراض الخطرة المعدية من الزواج .

٦ — المرأة ربة البيت والرجل هو المكلف بالانفاق .

٧ ـ للمرأة على زوجها ما لزوجها عليها من حق التكريم والرعاية والأمانة والصيانة والمساعدة والترفيه .

٨ ـ قوامة الرجل على المرأة لاتعني السيطرة والتحكم والاستبداد والحرمان وإنما تعني الحماية والمساعدة والصيانة والانفاق وحسن الانسجام .

٩ ـ يجب على الزوجين أن يهتما لجعل البيت مصوناً محترماً متمتعاً بما يمكن من أسباب الراحة ووسائل الترفيه .

١٠ ـ يجب على الزوجين أن يهتما لتربية أطفالهما تربية دينية وقومية وخلقية واجتماعية صالحة وأن يكونا لهم الأسوة الحسنة في كل ذلك .

١١ ـ يجب ان يكون المثل الأعلى للزوجة « ربة بيت حكيمة واماً بارة وزوجة صالحة امينة » وان يكون المثل الأعلى للزوج « زوجاً كريماً وأباً عطوفاً » .

١٢ ـ يجب ان تكون جميع مسائل الطلاق والتعدد منوطة بالمحاكم وان لا ينفذ اي شيء منها الا بعد الحكم وان تكون الاحكام متسقة مع النصوص التي لا تبرر التعدد الا في حالة القدرة والضرورة وضمان العدل ولا تقر الطلاق الا اذا قصد به الفراق وبعد تعذر الوفاق في نطاق تلقينات التروي والمهل الواردة في القرآن والسنة .

ثالثاً ـ في صدد الحقوق والواجبات العامة .

١ ـ المرأة والرجل متساويان في جميع الحقوق والواجبات العامة باستثناء ما ورد فيه نص قرآني او سنة نبوية ثابتة .

٢ ـ للمرأة الحق في ان تنال كل ما تقدر عليه وتريده من انواع الثقافة والفنون وأن تشجع على ذلك ويفسح مجاله لها دون قيد وشرط .

٣ـ للمرأة الحق في ممارسة جميع الاعمال الاجتماعية والسياسية والرسمية وغير الرسمية بما في ذلك الحياة النيابية مع الرجل ، وان تشجع عليها وان يفسح مجالها لها .

رابعاً – في صدد الحياة الاقتصادية .

١ – للمرأة الحق التام كارجل في حيازة الثروة والملك وتنيمتها والتصرف فيها حسبما يترآى فيه مصلحتها دون قيد وشرط .

٢ – للمرأة الحق التام في نيل استحقاقها في الارث وفق الاحكام الشرعيه القائمة على غاية من الحكمة والعدل .

٣ – المرأة الحق في تعلم المهن والفنون التي تساعدها على العمل والتكسب على مختلف الدرجات والانواع . غير ان الأولى لها ان تجتنب ماهو شاق مذهب للانوثة ومشاهدها منها .

٤ – العمل للمرأة في دوائر الحكومة وغيرها يجب ان يكون مقيداً بالقيود التالية :

آ – ان لا يكون لها ثروة وايراد خاص يكفلان لها حياة معقولة .

ب – ان تكون اسرتها في حاجة الى مساعدتها وعملها .

ت – ان لا يحول عملها دون واجباتها نحو بيتها وزوجها وأطفالها .

ث – ان لايؤدي عملها الى انصرافها عن الحياة الزوجية .

ج – ان تعمل في ساحات التعليم والتربية والطبابة والكتابة والمحاسبة والصيدلة والمحاماة والبيع والصحافة وما يماثلها من الأعمال دون الأعمال الشاقة المذهبة لأنوثتها .

–٨–

وانا لنرجو مخلصين من كل مسلم وعربي أن يجعل هذه القواعد وما يدخل في نطاقها ومداها نصب عينه ، وان يدعو لها ويبث فكرة التمسك بها ويقف الموقف الحق المخلص للدفاع عنها كما نرجو ان تشغل حيزاً مهماً في مناهج منظماتنا القومية والاجتماعية والتشريعية والتنفيذية ايضاً .

وهذا الرجاء موجه في الدرجة الاولى الي المرأة العربية لانها موضوعه الخاص . وهي هدف ما يأتي من الشذوذ عنه من ضرر وخطر ومتاعب ومشا كل قبل غيرها . وعليها ان تتروى في الامر وان لا تنجر في تيار التقليد الغربي الذي اخذ يجرف بعض الفئات الارستقراطية وفي مصر خاصة ، وان لا تنخدع بما يساق من الحرية والانطلاق التام .

وكلمة اخيرة يجدر ان توجه اليها . فتقرير حقوقها وواجباتها في الدولة والمجتمع لا يكفي لممارستها لها بسبب ما طرأ عليها من شوائب متنوعة المدى ومفهومات متعاكسة خلال القرون المظلمة التي تلت عصر الاسلام الذهبي ،والامر يحتاج الى اعداد واستعداد من جهة والى سعي وجد من جهة اخرى . ورغم ما اتيح للمرأة العربية من فرص التعليم والنشاط وما كان من كثرة عدد المثقفات فان الحركة النسوية العربية ما تزال ضعيفة ضيقة النطاق بل نكاد نقول انها ما تزال عمل تفكيه وترفيه اكثر منه عملاً جاداً يستهدف اهدافاً خطيرة . ولا يزال في طريقها عقبات كثيرة حتى في مصر التي يبدو ان الحركة النسوية فيها اقوى منها في غيرها . وهذا فضلاً عن انهماك الكثرة من المثقفات في اللهو واللعب والمظاهر والسفاسف مما جعل كثيراً من الرجال لا يثقون بهذه الحركة ولا يعولون عليها .

فعلى المثقفات من نساء العرب ان يضعن ذلك كله نصب اعينهن وان يوقن ان كل ما يمكن ان ينتظرنه من انصارهن هو المساعدة والتشجيع وفسح المجال ، وان العبء الأعظم انما يقع عليهن ، وان عليهن ان يجددن ويدأبن بقوة وسعة في سبيل الاستعداد لممارسة الحقوق والقيام بالواجبات من جهة ، وفي سبيل اقرارها للمرأة العربية من جهة ، وفي سبيل بث الثقة في حركتهن وفي انصارهن بل وغيرهم وكسبها من جهة .

(٨) مشاكل القرية والعمال ومشاريع البر

- ١ -

اولاً - مشكلة القرية .

ان حالة القرية والفلاح سيئة جداً من جميع نواحيها في جميع الأقطار العربية ، واذا لوحظ ان سكان القرى يؤلفون ٧٥٪ من مجموع سكان بعض هذه الأقطار وان هذه النسبة ترتفع في بعضها الآخر ظهر لنا مقدار تأثير تلك الحالة في حياة المجتمع العربي وتعثر تقدمه في ميادين الحياة المختلفة .

ومن اهم مشاكل القرية ومن اهم اسباب سوء حالة الفلاح هو سوء توزيع ملكية الاراضي الزراعية . وترجع هذه المشكلة الى اصل غير عادل وغير منطقي في ظل ظروف نشأتها . فان عدداً كبيراً من القرى التي تملكها الاسر المحدودة في سورية والعراق والاردن وفلسطين قد اعتبر محلولا حين وضع نظام الطابو لأن مزارعيها لم يتقدموا لتسجيلها على اسمائهم خوفاً من الجندية والضرائب والالتزامات فبيعت بالمزاد بأثمان بخسة وكانت من نصيب الاغنياء والوجهاء والاسر النافذة ، وان عدداً كبيراً آخر منها استغرقته ضرائب الاعشار والويركو فباعتها الدولة كذلك بالمزاد فكانت من نصيب هذه الطبقة ، وان المساحات الكثيرة التي كانت تنزل فيها قبائل البدو سجلت على اسماء مشايخها دون افرادها فصاروا من الوجهة القانونية مالكيها ، وان ما كان لأمراء المماليك في مصر من قرى واقطاعات واسعة تكاد تكون معظم أراضيها الزراعية استولى عليها محمد علي باشا وتصرف فيها فاقطع منها ما اقطع لرجاله واختص قسماً منها لنفسه وفعل مثل ذلك في

الأراضي التي استصلحها ، وما رأى ان يبيعه منها كان من نصيب الأغنياء القادرين دون غيرهم على الاغلب ، وهناك مساحات واسعة تعتبر قانوناً من املاك الدولة في سوريا والاردن والعراق ومصر غير انها لم يكن ينتفع منها في السابق بسبب اهمالها وتركها او ضعف تربتها وحينما أخذت الدولة تهتم لاصلاح شيء منها جنحت الى بيعه بالمزاد فوقع من نصيب الأغنياء القادرين دون غيرهم على الاغلب، هذا الى مساحات كبيرة من اراضي الدولة قد نهبتها هذه الطبقة ومساحات كبيرة اخرى كانت اقطعت قديماً للامراء والزعماء البارزين من قبل السلاطين وتوارثها الابناء عن الآباء ، ومنها ما أوقف حتى لاتتعرض للمصادرة والاغتصاب.

ولهذا نرى الأفراد والأسر المعدودة يملكون آلاف الدونمات والافدنة وعشرات القرى والمزارع في هذه الأقطار بينما نرى عدداً كبيراً بل العدد الأكبر من الفلاحين لا يملكون أو لا يكادون يملكون شيئاً ، وانما يشتغلون في أراضي الملاكين مزارعين ومستأجرين وعمالاً .

وما يمكن أن يكون هناك من قرى وأراض مملوكة للفلاحين فان كثيراً منه ما زال مشاعاً غير موزع توزيعاً مستقراً على أصحاب الحصص كما أن حصصه ضئيلة بسبب كثرة النسل والتوزع . ولذلك فان استغلاله ضعيف من جهة وهو مثار نزاع وخصام دائمين بين أهل القرية من جهة ثانية . ومثل هـذا يقال بالنسبة لما يمكن أن يكون هناك من أراض ومزارع مملوكة للأسر القروية أيضاً.

وما يمكن أن يكون هناك من أراض مملوكة لأفراد قرويين بعد كل هـذا فأكثره دون الكفاية من حيث المساحة . وقد تبين من الاحصاءات ان الذين لا تزيد ملكياتهم في مصر مثلاً عن الفدان الواحد هم الأكثرية العظمى بالنسبة للمالكين . ومنهم قسم كبير لا يملك الا قراريط محدودة من الفدان(١) . وما

(١) يستفاد من الاحصاءات التي اطلعنا عليها ان عدد من يملكون اراضي من سكان القطر المصري (٢و٧٣١و١٣٠) شخصا اي ١٤٪ من سكان القطر فقط . وان من المالكين (١و٤٠١و٣٨٥) شخصا اي ٥٢٪ منهم يملكون (٤٢٠و٩٧٨) فدانا اي بمعدل ثلث فدان وأن (٥٥٣و٧١٨) شخصاً أي ٢٠٪ منهم يملكون (٣٦٧٦٢٦) وان (٦١٨و٢٦٢)

شذ عن هذا فهو قليل ليس من شأنه أن يعدل المستوى تعديلا ذا بال . وهؤلاء الذين يملكون هذه الأجزاء القليلة التافهة مثقلون بالديون بسبب عدم الكفاية بحيث لو بيعت لما وفت بها . ومثل هذا أو قريب منه في سوريا والعراق وفلسطين ، ونحن نعرف انه كان على بعض القرى في فلسطين من الديون ما هو ضعف ثمن أراضيها .

ونزيد في سوء نتائج هذا التوزيع السيء أن الفلاحين الذين يعملون في أملاك الملاكين مزارعين ومستأجرين وعمالاً غير متمتعين بالحماية ، والملاكون يتحكمون فيهم تحكماً قاسياً . فاذا كانوا عمالاً فبأبخس الأجور واذا كانوا مستأجرين فبأعلى الايجار وأقسى الشروط .

ومن الحوادث المألوفة الكثيرة أن يرجع المزارع والمستأجر من بيدره (جرنه) خالي الوفاض حيث يكون صاحب الملك من جهة ومأمور الضرائب من جهة والمرابي من جهة قد تقاسموا هذا البيدر .

ولهذا السبب اضطر الفلاح الى الاستدانة ووجد المرابون من ملاكين وغير ملاكين فيه مستغلاً دائمياً . وكثيراً مايكون ربا الدين ٥٠٪ لمدة ستة أشهر أي ١٠٠٪ سنويا . وهكذا لايكاد معظم القرويين ينالون من كدحهم مايقيهم الموت

شخصاً أي ٢١ ٪ منهم يملكون (٣٠٣و٥٠٠و١٣٠٣) فدادين اي معدل فدانين وعشر الفدان . واذا لاحظنا ان لا بد من وجود تفاوت في الحيازة بين هؤلاء المالكين جاز لنا ان نفرض ان عدداً كبيراً من الفئات الثلاث التي هي ٩٣ ٪ من المالكين يملكون اقل كثيراً من المعدلات المذكورة التافهة . اما باقي الاراضي الزراعية وهو اربعة ملايين فدان – لأن اراضي مصر الآن ستة ملايين – فهو ملك ٧ ٪ من المالكين أو اقل من ١ ٪ من السكان ، وبعبارة اخرى ان ٦٧ ٪ من الاراضي الزراعية يملكها أقل من ١ ٪ من السكان ... ومع ذلك فالاحصاءات تدل على تفاوت عظيم في الحيازة بين هذه القلة الضئيلة ، فهناك مثلا ٢٥٠ شخصا يملكون (٥٣٥و٧٠١) فدان أي معدل (٢١٤٠) فدانا للواحد . وهناك ٦٠ مالكا يملكون ٢٦٧ر٠٨١ فدانا اي معدل (٤٤٤٠) فدانا . وهناك طبعاً اناس كثيرون من هذه الاقلية الضئيلة يملكون المئات العديدة بحيث يصح ان يقال ان عدداً كبيراً منها قد ينزل معدل حيازتهم عن حد الكفاية المعقولة .

من جاف المأكل وزري الملبس وزريبة السكن إلا بشق النفس وبحيث يعد مستوى المعيشة في القرية العربية من أحط مستوى في الدنيا .

ولقد قدرت بعض الاحصاءات والدراسات أن تكاليف معيشة الأسرة القروية العربية لا تزيد عن الجنيهين او العشرين ليرة سورية . وعلى هذا الأساس قدرت وكالة اغاثة لاجئي فلسطين مساعداتها للاجئين بحيث لا تزيد قيمة مايتناوله الفرد من مواد غذائية عن الخمس ليرات او مايعادل ستين قرشاً مصرياً أو ٦٠٠ فلس عراقي ، وبحيث لا يزيد ما تتناوله الأسرة اللاجئة التي تتألف من زوجين وولدين عن عشرين ليرة سورية ، أو جنيهين ونصف ... واذا كان هذا المبلغ هو معدل المستوى ولوحظ ان بعض الناس يتفاوتون عن بعضهم في الكسب ظهر ان هناك من لا يستطيع الحصول على هذا المعدل ويعيش بما دونه اذا كان هناك بشر يمكن ان يعيشوا بما دون ذلك !(١)

ولقد سمعنا أناساً من فلسطين والأردن بل وسورية يغبطون او يحسدون اللاجئين على ما ينالونه من قدر تافه مما فيه مصداق لما نقول .

ومهما بالغنا في تقدير نسبة الميسورين أو الذين يعيشون عيشة معقولة نوعا ما من القرويين فانها لن تزيد في أحسن الحالات عن ١٠٪ من مجموعهم ، ويرتكس الباقون في ذلك المستوى المنحط البائس الذي ذكرناه . والباقون هؤلاء هم بالنسبة لمجموع سكان الدولة ٦٧٫٥٪ اي غالبيتهم الكبرى اذا اعتبرنا ان سكان الريف هم ٧٥٪ من المجموع .

---

(١) في اثناء كتابة هذا الفصل نشرت بعض الصحف المصرية بعض محتويات التقرير وضعته مؤسسة روكفلر الاجتماعية نتيجة لدراسة قامت بها في القطر المصري جاء فيه فيما جاء :

١ - ان مصر اشد بؤساً في مستوى المعيشة من الصين والهند .

٢ - ان ١٢٪ من اسر القرى تعيش على الخبز الفطير واللبن المقشوط والجبن و٥٦٪ منها لا تأكل الخضر الا مرة في الاسبوع و ٥٪ منها تكسب اقل من ثلاثة دولارات في في الشهر (جنيه واحد) و ٦١٪ تكسب مابين ٣ دولارات و ١٤ دولارا ونصف (اي بين جنيه وخمسة جنيهات) و ٣٠٪ دخلها الشهري بين ١٥ و ٢٩ دولار اي بين خمسة جنيهات وعشرة جنيهات و ٧٪ يزيد دخلها عن هذا المعدل ..

يضاف الى هذا ما حرمته القرية من العناية من النواحي الأخرى حرماناً شديداً . فالقرى التي فيها مدارس ما زالت اقل بكثير جداً من التي ليس فيها حتى لتكاد النسبة في بعض الأقطار العربية تكون واحداً الى عشرة ولا تزيد في أحسن الحالات عن واحد الى اربعة . وهكذا ترتكس القرية في الجهل والغباء وتنطفىء مواهب كثير من أبنائها وتهدر قواهم وحيويتهم . واكثر القرى بل معظمها مازال محروماً من المياه الكافية الصالحة للشرب ومن أبسط وسائل الصحة والعلاج والوقاية . ومعظم المساكن في القرى كالزرائب أو أسوأ من حيث القذارة والظلمة وسوء التهوية وفقدان المرافق فتكون القرية بذلك عرضة لمختلف الأمراض وكثرة وفيات الأطفال . وقد غدا كثير من القرى بل معظمها مستقراً لأمراض وبيئة محلية تنهك قوى الفلاح وتفتك فيه فتكاً ذريعاً من بلهارسيا الى زهري الى تراخوما الى ملاريا حتى بلغ عدد المصابين بالبلهارسيا في مصر عشرة ملايين وعدد المصابين بالأمراض الأخرى مئات الألوف.

فمن الطبيعي أن تكون الأمة العربية التي غالبيتها العظمى في مثل هذه الحالة السيئة التي ليس بعدها سوء في المعيشة والغباء والجهل والمرض والفقر والكدح وسوء الاستغلال والحرمان من الحماية والعناية الصادقتين في أحط الدركات وأن تكون هذه الحالة من أشد العثرات التي تحول دون تقدمها في مختلف مجالات الحياة القوية الكريمة .

فما لم يجعل الفلاح صاحب ارض كافية لحاجته ، وما لم يساعد على استثمارها بالقروض والبذار والآلات ، وما لم يرفع عنه ظلم الملاكين واستغلالهم ، ويهيأ له الاستقرار والطمأنينة والانتفاع بكده ورفع مستوى حياته ، وما لم يحم المزارع والمستأجر والعامل الزراعي حماية وافية من الملاكين والمرابين ، وما لم تغد عناية الدولة بالقرية جدية وعاجلة وعن ايمان وصدق فان حالة الفلاح العربي والقرية العربية تظل على المنوال الزري البائس اليائس وحالة الأمة تظل نتيجة لذلك على ماهي عليه من تعثر وارتكاس .

ونلح على وجوب العناية الجادة العاجلة عن ايمان وصدق لأننا نعرف أن

هناك محاولات كثيرة ومن أمد طويل في سبيل معالجة حالة القرية والفلاح وتحسينها وحماية المزارع ووضع حد لاستغلاله الى آخر الاسطوانة .. . فهناك قوانين وضعت وهناك تجارب أجريت وهناك مشاريع أعدت غير انه لم يبد أثر مهم لكل ذلك في اي ناحية من نواحي المشكلة ... ثم هناك أراض واسعة للدولة يمكن استصلاحها بسهولة بل هناك منها ما هو صالح منهوب من قبل ذوي النفوذ والجاه يمكن استرداده وتوزيعه على المحرومين غير أن الاهتمام لهذه الناحية لايكاد يخرج هو كذلك عن نطاق الترداد والكلام والنية ...

— ٢ —

وقد تكون مشكلة سوء توزيع ملكية الأراضي التي هي من أهم المشاكل ومن أهم أسباب سوء حالة الفلاح معقدة الحل . لأن الملكية الفردية من الحقوق المحترمة الأساسية في بلاد العرب كما ان اصحاب الملكيات الكبيرة في الأغلب اصحاب نفوذ قوي راسخ ، ومتمسكين بملكياتهم تمسكاً شديداً لان كيانهم الاجتماعي والاقتصادي قائم بها . غير ان الجد والحزم والجرأة تضمن التغلب على هذه المشكلة ، ولا سيما ان معظم اراضي البلاد العربية ان لم نقل كلها هي اراضي اميرية — أي خراجية — تعود ملكيتها الأصلية للدولة ، وللدولة الحق الصريح المنطقي والشرعي معاً في سن ما تراه من صالح جمهور الشعب من قوانين ، وقد اصدرت الدولة العثمانية تشريعات عديدة في هذا النطاق ما تزال نافذة الى اليوم في بلاد الشام والعراق .

ولقد واجهت الجمهورية التركية هذه المشكلة بالجد والحزم والجرأة فتغلبت عليها . ففي تركية ملكيات كبيرة كما فيها مئات آلاف الأسر المحرومة من الأرض أو التي ليست لها أراض كافية . وقد أصدرت في سنة ١٩٤٥ قانوناً سمته قانون الأرض استهدف ثلاث غايات :

الأولى — تمليك أرض لمن لا أرض له أو لمن ليس له ارض تكفيه من القرويين أو من يريد الاشتغال بالفلاحة من أهل المدن . **الثانية** — مساعدة المحتاجين من الفلاحين على تحسين أشغالهم الزراعية . **الثالثة** — تشغيل الأراضي الصالحة بأوسع وأحسن ما يمكن .

وهذه الأحكام الجوهرية في القانون بسبيل تنفيذ هذه الخطوة المهمة:

١ — خول القانون وزارة الزراعة حق استملاك الأراضي التالية وما عليها من منشئات ومساكن متصلة بالعمل الزراعي لتوزيعها على الذين لا ارض لهم او لا ارض كافية لهم :

آ — جميع الأراضي الوقفية المضبوطة أو الملحقة التي في تصرف مديرية الأوقاف او تحت ادارتها بالنيابة او في ادارة المتولين .

ب — الأراضي العائدة الى ادارة الولايات (المحافظات او المديريات او المتصرفيات) الخصوصية او البلديات ولا تستعمل في عمل ما .

ت — الأقسام الزائدة عن خمسة آلاف دونم[1] مما يملكه الأشخاص الحقيقيون أو الحكميون . ويجوز عدم اخذ الزائد عن هذا المقدار مما تملكه مؤسسات تعود منافعها الى المصلحة العامة او لمؤسسات الدولة الاقتصادية او لمؤسسات اكثر من نصف رأس مالها للدولة .

ث — الاراضي التي لاتستغل بعد هذا القانون . (وهي التي تهمل ثلاث سنين متوالية بدون عذر) .

ج — الاراضي التي يعمل فيها المزارعون والمستأجرون والعمال الزراعيون الذين لا ارض لهم او لا ارض كافية لهم لاجل توزيعها عليهم ولو كانت اقل من خمسة آلاف دونم بشرط ان يترك لصاحبها مساحة تبلغ ثلاثة اضعاف الحد

---

(١) ١٢٥٠ فدانا . ويجب ان يلاحظ ان هذا الحد الذي يبدو كبيرا هو متناسب مع سعة مساحة الاراضي الزراعية في تركية التي يبلغ مسطحها نحو (٧٦٠) الف كيلومتر مربع ثلثها اي مئتين وخمسين مليون دونم او اثنان وستون مليون فدان قابل للزراعة .

الذي يعتبر حداً أصغر للكفاية في المنطقة التي تكون فيها الارض مع ترك حق اختيار الاقسام له ومع عدم نقص ما يترك له عن خمسين دونماً في حال.

٢ ــ اعتبر القانون ضريبة الاراضي أساساً لتقدير قيمة الاملاك المستملكة. أما بدل الاستملاك فتدفعه وزارة الزراعة باقساط سنوية خلال عشرين سنة من السنة التي تليه بموجب تحويلات على خزينة الدولة. ويؤدى عن كل قسط ربح سنوي قدره ٤٪ والكسور التي تقل عن مئة ليرة تدفع نقداً مع التحويلات (السندات الرسمية على الخزينة). والتحويل الذي بقيمة الف ليرة يدفع في السنة التي تلي الاستملاك. وتصدر التحاويل بقرار من مجلس الوزراء وباقتراح من وزارة الزراعة حسبما يراد استملاكه في كل سنة. والتحويلات تتمتع بنفس الحقوق والامتيازات التي تتمتع بها تحويلات الخزينة الاخرى. وتوضع قيم وفوائد الأقساط السنوية في ميزانية كل سنة في باب خاص من فصول ديون الدولة مع قيد واجب الأداء وتصرف وفقاً للأصول.

٣ ــ تعطى الاراضي المستملكة لرئيس الأسرة على أن يقدم الذين ليس لهم أرض بالمرة ويعملون في اراضي الغير كمزارعين او مستأجرين ثم الفلاحون الذين ليس لهم ارض كافية، ثم الذين ليس لهم ارض بالمرة ويعيشون عادة عمالاً زراعيين متوطنين، ثم الفلاحون من العشائر الرحل أو التي تعيش في الفلاة، ثم الذين يتخلون بحكم القضاء عن ميراث ارض لهم، ثم الذين ليس لهم ارض او ليس لهم ارض تكفيهم ممن درسوا في مدارس الزراعة أو عملوا في مزارع التجارب او داوموا على فصول زراعية معترف بها واتموا الدراسة في مدارسهم او فصولهم، ثم الذين تقتنع وزارة الزراعة بقابليتهم للزراعة ممن ليسوا زراعاً في الأصل ويرغبون في احتراف الزراعة من جديد، ثم الذين يدخلون في شمول هذه الفئات ويقدرون على ادارة عمل مستقل ولو لم يكونوا رؤساء أسرة. ويراعى الدور في كل فئة من الفئات السابقة فيقدم الذين لهم اولاد، ثم الذين لهم بيوت وعندهم وسائل كافية للعمل، ثم الذين لهم بيوت وليس عندهم وسائل كافية للعمل، ثم الذين ليس لهم بيوت ووسائل.

٤ – أوجب القانون ان تكون المساحة المعطاة كافية لمعيشة فلاح وأسرته ، ومتناسبة مع قابلية أفراد الأسرة وقوتهم على الاستغلال ومع نوع وقابلية الارض ايضاً وضمن حدود الملكية الصغيرة . والذين لهم ارض ولكنها غير كافية يحسب ماعندهم ويوفى عليه ضمن الاسس المذكورة . ويجب ان تكون الارض المعطاة قطعة واحدة او في مكان واحد بقدر الامكان . واذا لم يوجد ارض في المكان الذي يسكنه الفلاح فتعطى له ارض في منطقة سكنه فان لم يوجد ففي جوارها فان لم يوجد ففي مكان آخر .

٥ – تعطى الارض وما عليها من ابنية ومنشآت بالبدل وبطريق الدين المقسط وتقدر القيمة من قبل وزارتي المالية والزراعة وتنظم بها سندات دين على أصحابها لأمر المصرف الزراعي مقسطة على عشرين قسطاً سنوياً . ويجب دفع أولها في أول السنة السادسة من بعد سنة التسليم وبدون فائدة . وينزل من الأقساط الباقية ٥ ٪ عن كل ولد من اولاد المديون في سن الدراسة ، والأقساط التي تؤدى قبل عدتها ينقص عنها فائدة سنوية قدرها ٥ ٪ كذلك.

٦ – اوجب القانون فتح فرع تسليف خاص في المصرف الزراعي لتسليف المبالغ التي يحتاج اليها الذين يعطون أرضاً للتأسيس والاستغلال . ووعدة سلفة التأسيس خمس وعشرون سنة ووعدة سلفة الاستغلال سنة واحدة . وتعين أسس ومدة وفوائد السلف وما يتصل بها من قبل وزارات الزراعة والتجارة والمالية معاً على ان لاتزيد الفائدة السنوية عن ٥ ٪ .

٧ – اوجب القانون رصد مبالغ سنوية في الميزانية لتمويل فرع التسليف المذكور ، ورصد أقساط بدلات الاراضي المجبية من الفلاحين لهذا الفرع أيضاً أي أن ميزانية الدولة حملت بدل الاستملاك الذي يدفع للملاكين وجعلت الأقساط التي تجبى من الفلاحين كرأس مال دائر لفرع التسليف بالاضافة الى ما يمكن رصده من الميزانية لذلك .

٨ – تسجل الأراضي المعطاة وما عليها من منشآت باسم صاحبها على أن تكون رهناً باسم المصرف الزراعي مقابل ماعليها من ديون أصلية وفرعية . وليس لصاحبها حق التصرف التملكي فيها ولا باحداث مثل هذا الحق لغيره ما لم يسدد

ماعليه من ديون وان لا يحجز عليها لصالح ديون الأشخاص الحقيقيين أو الحكميين. ويطبق هذا على وسائل الاستغلال المعطاة أيضاً . وتطبق كذلك على الأراضي والوسائل التي تكون لمن أعطي أرضاً بسبب عدم كفاية ارضه مع حفظ الحق المكتسب للآخرين من حجز ودين وارتفاق على الأرض التي كانت له . وفي حالة وفاة المسجل عليه الارض تشغل من قبل الورثة بالاشتراك .

٩ ـ الذين لا يدفعون أقساط ثمن الأرض او أقساط السلف يحصل ما هو مستحق منها بذمتهم بموجب قانون تحصيل أموال الدولة ومما يدخل في نطاق الجائز حجزه أي دون الأرض والبناء والتأسيس ووسائل الاستغلال اذا كان كافياً للسداد . أما إذا لم يكن كافياً فيحصل المستحق بحجز وبيع الأرض والبناء والتأسيس ووسائل الاستغلال بشرط اقتران ذلك بحكم قضائي . وهذا لا يطبق الا في الظروف القاهرة التي يعود تقدرها الى وزارتي المالية والتجارة . وفي هذه الحالة يكون لهاتين الوزارتين الحق في تأجيل الدفع وفقاً لما تريانه متناسباً مع هذه الظروف .

١٠ ـ لا يجوز تأجير الأراضي المعطاة إلا بسبب الجندية او المرض المزمن.

١١ ـ يجوز استرداد الارض ممن يخالف احكام القانون على شرط ان يقترن ذلك بحكم قضائي .

ومن الجدير بالذكر ان الحكومة التركية طلبت من مكتب عصبة الأمم تقريراً عما جرى في موضوع اصلاح وتوزيع الارض عند الدول الاخرى فارسل المكتب التقرير المطلوب محتوياً تفصيل ماتم من مثل ذلك في ثلاث عشرة دولة ، فاقتبست من هذا التقرير القانون الذي اوجزنا احكامه الجوهرية والذي احتوى احكاما تفصيلية اخرى بسبيل التنفيذ والتطبيق .

كذلك من الجدير بالذكر ان الموافقة على القانون لم تتم بسهولة . فان الحكومة التركية منذ سنة ١٩٣٧ وهي تحاول استصداره فكانت اللوائح تلقى معارضة وتعويقا . غير انها حزمت أمرها وتمكنت من أخذ الموافقة على القانون بعد نقاش حاد شغل صحف تركية وأوساطها أياماً عديدة ، وكان نقاش

شديد حوله في هيئة حزب الشعب النيابية - حزب الحكومة - قبل عرضه على مجلس النواب حتى أن الهيئة اضطرت أزاء كثرة المعترضين الى تقرير جعل التصويت حراً .

فلا بد من خطوة جادة وجريئة مماثلة لحل هذه المشكلة من مشاكل القرية التي قد تكون أهم مشاكلها .

والقانون التركي لم يتعرض لموضوع توزيع الاراضي التي تملكها الدولة والتي منها ماهو قابل للاستغلال ومنها ماهو في حاجة الى الاصلاح، ويظهر ان هذا الأمر اعتبر طبيعياً مفروغاً منه فانصبت الجهود على استملاك الزائد والمعطل من اراضي الأفراد والمؤسسات الأخرى .

فمن الواجب ملاحظة ذلك في سياق الخطوة التي لابد منها في سبيل حل المشكلة بحيث توضع اراضي الدولة في رأس القائمة فتبذل الجهود لتحريرها وإصلاح مايحتاج منها الى اصلاح واسترداد ماهو منهوب منها وتقسيمها وتوزيعها على أسلوب مماثل لأسلوب القانون التركي بالاضافة الى الأراضي الزائدة عن حاجة الملاكين وقدرتهم والواجب استملاكها وتوزيعها على المحتاجين والمحرومين .

وقد ضربنا المثل بما فعلته تركية في هذه المشكلة لأن بنيتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والثروية مشابهة الى درجة كبيرة لبنيتنا .

- ٣ -

وطبيعي أن حل هذه المشكلة لايعني أن مشكلة القرية قد حلت . فالى جانب هذه الخطوة يجب أن يسار خطوات عديدة جادة وحازمة وصادقة لاصلاح حالة القرية والفلاح .

ولقد أصدرت تركية قانوناً بسبيل ذلك احتوى أحكاماً جديدة جديرة بالاقتباس وكفيلة بالاصلاح المطلوب إذا عني بتنفيذها عناية جادة وصادقة .

وها نحن نورد منه مارأيناه جوهريا ضاربين صفحاً عن مواد وأحكام ثانوية تتصل بالتنفيذ والتنظيم .

١ ـ تتألف القرية من سكان يعيشون في منطقة واحدة ولهم أمور مشتركة كجامع ومدرسة ومرعى ومحتطب ومحجر وماء ويقل عددهم عن الفين.

٢ ـ للقرية شخصية حكمية وحقوقية . ومالها العام يحمى مثل مال الدولة. وكل من يمد يده اليه يعاقب بمثل عقاب مختلس مال الدولة .

٣ ـ المختار (العمدة) هو رئيس القرية . وهو صاحب الحق بموجب هذا القانون بالكلام باسم القرية واصدار الأوامر والعمل على تنفيذها وهو موظف دولة . ويقوم بواجبه بهذه الصفة . ويحاكم هو ومن يعمل معه في أمور القرية على مايصدر منهم من إساءة تصرف ويعاقبون كموظفي دولة .

٤ ـ إن على أهل القرية أعمالاً جبرية وأخرى اختيارية . ومن لا يقوم بالاولى يجازى . واذا قرر مجلس القرية جعل أحد الاعمال الاختيارية جبرياً وصادق على ذلك القائمقام أو الوالي حسب صلة القرية الادارية يصبح جبرياً .

٥ ـ الاعمال الجبرية هي :

تجفيف المستنقعات داخل حدود القرية ـ جلب الماء الى القرية بقناة مغطاة وانشاء مشرب صحي له ـ سد الخروق التي تكون في الأقنية وتحويل طريقها عن مجامع الأقذار ـ تعلية فتحات آبار الماء متراً وتحويطها بدكة ـ تفريق محلات النوم في المسكن عن زريبة الماشية بجدار ـ انشاء بيت خلاء مستوف ذي حفرة عميقة او مجرى في كل بيت ـ انشاء بيت خلاء عمومي بعيد عن مجرى مياه الشرب وآبارها ـ العناية بنظافة الازقة وتكنيس أمام البيوت من قبل اصحابها ـ عدم وضع الزبل والقمامات عند المشارب والآبار والينابيع ـ انشاء مجرى للماء حتى لا يستنقع ـ جعل مزابل القرية وقماماتها في مكان بعيد عن المساكن ـ انشاء طريقين متقاطعين في القرية يجعل في ملتقاها ساحة للقرية ـ انشاء ساحة اخرى في طرف القرية مناسبة مع سكانها ـ انشاء غرفة في طرف هذه المساحة لتكون

محل اجتماع مجلس القرية واعمالها — اذا كانت القرية ممراً فيجب انشاء منزل ينزل فيه عابروا السبيل ويكون له موقد ومربط للدواب — انشاء مسجد في القرى التي لا يوجد فيها في طرف ساحة القرية — انشاء مدرسة وفق المخطط والنموذج الذي تقدمه ادارة المعارف في محل نقي الهواء والحاق ارض بها لتكون حديقة للمدرسة — غرس الأشجار في طرق القرية وساحتها وعلى منابع المياه والمقابر وبين القرية والقرية المجاورة واتخاذ التدابير لصيانتها من الدواب — صيانة حرش القرية والعناية به — انشاء القسم الواقع في حدود القرية ورفع كل ما يعرقل السير عليه من صخور ومرتفعات — حرث وزرع وحصاد اراضي الجنود واليتامى الذين ليس لهم من يفعل ذلك والعناية بكرومهم وبساتينهم — انشاء دكاكين للقرية احداها للبيطار وثانيتها للبقال وثالثها للسواق وعجلته — تعيين ما يلزم للقرية من رعاة وحراس — اخبار الحكومة بما يحدث من امراض وبائية وسارية عند حدوثها ومنع الاختلاط بالمريض الى ان يصل موظف الحكومة — فعل مثل ذلك في حالة حدوث مرض سار ووبائي في الماشية — المسارعة الى تغيير مجرى السيل اذا داهم القرية — قتل وابادة كل دابة وطير وحشرة وطفيلية من شأنها الاضرار بالمزروعات والأشجار المثمرة وغير المثمرة والكروم — صيانة مزروعات القرية ومغروساتها من اي ضرر وطارئ — عدم وضع اشياء في الطرق تعرقل السير — هدم ما يخشى انهياره من غرف وسطوح وجدران — عدم ترك الحيوانات المفترسة والشكسة سائبة — المساعدة على دفع الخطر وانقاذ حياة كل من يتعرض للخطر والهلاك — عدم تحميل الدواب احمالا لا تطيقها — اجابة دعوة مجلس القرية للشهادة حتماً ما لم يكن مرض مانع من الاعتذار في هذه الحالة — عدم حفر حفائر في الممرات والطرق.

٦ — الأعمال الاختيارية هي :

انشاء المساكن بحيث تكون زرائب الدواب في مكان خاص — طراشة البيوت والزرائب والمستراحات داخلاً وخارجاً كل سنة مرة — رصف طرق

القرية بالحجارة – انشاء مقابر للقرية بعيدة عنها وعن الطريق الدام وعن مجرى الماء وتسويرها والعناية بها وعدم رمي القمامات فيها – انشاء حمام ومغسلة عامتين – انشاء مكان للسوق العام – تحريج الامكنة المناسبة من أراضي القرية وهضابها – تنظيم مجرى الماء الذي يسقي اراضي القرية وتوزيعه – شراء آلات زراعية حديثة متنوعة مشتركة للقرية – شراء آلات لصنع الجبن والسمن – انشاء مطحنة مشتركة للقرية – بذل الجهد لنسج ملبوسات القرية فيها – تعليم أو أكثر من أبناء القرية الحلاقة وآخرين الحدادة والبيطرة وجلاء الأواني وسوق العربات وصنع الاحذية – جلب سماد صناعي لتكثير الغلات – جلب كتب لتوسيع المعرفة – مساعدة فقراء القرية وايتامها بالمال والطعام – ختان الأطفال الذين لا كافل لهم – مساعدة الفتيات على الزواج – مساعدة الفقراء على تجهيز موتاهم – التعاون على بناء بيوت الفقراء التي تصاب بالحريق والانهيار – استقراض مال من المصرف للقرية ومساعدة المحتاجين في اشغالهم الزراعية وتحصيل الدين وسداده – تشجيع العاب المصارعة والجريد والرمي – تبديل طرز عجلات الثيران بطرز جديد وانشاء معمل مشترك في القرية لانشائها وتعميرها – انشاء مخزن للقرية واخذ مقدار مناسب من غلة كل فلاح في ايام الحصاد وخزنه لاقراض المحتاجين في غير ايام الحصاد لطعامهم وبذارهم وتحصيل القروض في ايام الحصاد وهلم جرا – تخصيص حقل او اكثر في كل سنة وحرثه وحصاده ورصد ثمن الغلة بعد اخراج البذار اللازم للسنة القابلة لمصالح القرية المشتركة – شراء فحول من البقر والجاموس والضأن من الجنس الجيد لحساب القرية – تنشئة حرج ومحطبة للقرية اذا لم يكن لها – ايجاد خبير صحي في القرية أو تنشئة احد ابنائها لمثل هذه المهمة .

٧ – يرصد لميزانية الأعمال العامة في القرية الغرامات التي تجبى بموجب هذا القانون على المخالفات وايراد الأراضي والأملاك المسجلة باسم القرية وغلة الاراضي التي تزرع باسم القرية واجرة مصانع ودكاكين القرية ورسوم الاوراق

التي يصادق عليها المختار ومجلس القرية والتي يعين مقدارهـا القائمقام ورسوم المقالع والنقل على البحيرات ووسـائطه ورسوم ذبحية الحيوانات وايرادالاشجار التي لا صاحب لها ورسوم المياه المعدنية وما يفرضه مجلس القرية من فريضة نقدية على كل ساكن فيها أو ذي علاقة مادية بهـا مقابل مرتبات المختار والامام والـكاتب والخفراء وخبير الصحة وما تعجز الايرادات الاخرى عن أدائه من نفقات القرية العامة .

٨ — للقرية مجلس الى جانب المختار والمختار هو رئيسه . وينتخب الجميع كل أربع سنين مرة . ومعلم القرية وإمامهـا عضوان طبيعيان في المجلس . وعدد أعضاء المجلس ثمانية للقرى التي يقل عدد سـكانها عن الف واثنى عشر لما يزيد .

٩ — لـكل تركي متوطن في القرية قبل ستة أشهر من الانتخاب وأتم الثامنة عشرة من عمره وغير محكوم بجناية وحجر حق الانتخاب ذكراً كان أو أنثى .

١٠ — واجبات مجلس القرية انشـاء الطرق والمدرسة والمسجد والحمام والدكاكين وتقرير التـكاليف التي يجب أن يقوم بهـا أهل القرية بدنياً أو يدفعونها نقداً وشراء الأراضي المناسبة لمنشئات القرية وتدبير أرض لمن ليس له أرض او لمن ليس له أرض تـكفيه والقضـاء في الديون والحقوق التي لا تزيد قيمتها عن عشر ليرات والاصلاح بين المتنازعين فيما يزيد عن ذلك الى خمسين ليرة اذا رضي الطرفان .

١١ — يغرم كل من لا ينفذ الأعمال الاجبارية او لا يدفع الفرائض النقدية التي يقررها المجلس بغرامة تتراوح بين القرش والمئة . وتضاعف على من يمتنع عن الدفع وتجبى منه قانوناً .

١٢ — اذا أسيئ استعمال مال القرية يغرم المختـار ومجلس القرية بالضرر وتجبى الغرامة وفقاً لقانون تحصيل أموال الدولة . واذا قصر المجلس والمختار في تنفيذ الأعمال الاجبارية وعدم جباية الأموال اللازمة لها يغرم كل منهم بخمس وعشرين ليرة .

١٣ ـ أشغال القرية الكتابية يتولاها كاتب القرية فاذا لم يكن فالمعلم فاذا لم يكن فالامام .

١٤ ـ ممنوع على الاشخاص الحقيقيين والحكميين من الأجانب ان يتملكوا اراضي وعقارات في القرى . وليس لأجنبي ان يقيم في قرية ما الا باذن من وزير الداخلية .

ولا ندعي ان القرية التركية قد صلحت بعد هذا القانون الواسع الشامل الذي صدر سنة ١٩٢٤ . ولسنا نجهل ان القانون ليس هو كل شيء في حل المشاكل . وهذا ما يجعلنا نلح ونكرر القول بوجوب الجد والصدق في العناية والتنفيذ . غير ان القانون هو من دون ريب ناظم او ضابط مهم يجعل للحكومة سلطان التنفيذ اذا ماعزمت وحزمت وجدت .

ـ ٤ ـ

وعلى كل حال فالقرية مشكلة جوهرية من مشاكل الأمة العربية ، والعناية بحلها بجد وصدق وايمان وسرعة من أوجب الواجبات على القائمين بالحكم في الدول العربية .

والمشكلة مهمة جداً تتحمل أن يكون لها أدارة حكومية خاصة ومستقلة ذات صلاحيات واسعة ولا تتأثر بتيارات الحزبية والانتخابات حتى تسير في مهمتها الخطيرة بدون تردد ولا تعثر وحتى تتمكن من تحقيق منهج اصلاحي شامل يمكن تلخيص خطوطه بما يلي :

١ ـ جعل الفلاح صاحب أرض كافية لمعيشته حتى يستطيع الشعور بالاستقرار والطمأنينة والانتفاع بكده .

٢ ـ تخليصه من المرابي وتسهيل اقراضه قروضاً طويلة الأمد تساعده على تأسيس العمل وأخرى قصيرة حين الحاجة تساعده على تسيير العمل .

٣ ـ حماية المستأجر والمزارع والعامل الذي يشتغل في أراضي الملاكين

حماية كافية تضمن لهم المعيشة المعقولة والمعالجة المجانية والمسكن الصحي والماء النقي .

٤ — انشاء مدرسة في كل قرية . وانشاء مدرسة داخلية زراعية صناعية لكل مجموعة من القرى المتجاورة .

٥ — ادخال نظام البناء والهندسة الحديث على القرية .

٦ — إنشاء ما يسمى بالمجموعة الاجتماعية التي تشتمل على عيادة وصيدلية ومولدة وممرضة ومرشد اجتماعي وآخر زراعي في كل قرية كبيرة يبلغ تعدادها الفاً وما فوق . وإنشاء مثل هذه المجموعة لوحدات من القرى الصغيرة المتجاورة أيضاً .

٧ — مكافحة الأمراض المحلية والسارية في القرى مكافحة شديدة وإزالة أسبابها .

٨ — تشجيع تأسيس الجمعيات التعاونية التي تساعد الفلاح مساعدة عظيمة على حسن الانتاج والتصريف والطرائق والوسائل الفنية ووقاية الفلاح من المرابين والمستغلين وتعميمها حتى تشمل جميع القرى .

٩ — ترتيب دورات متتابعة للمحاضرات الاخلاقية والاجتماعية والصحية والفنية والقومية استهدافاً لبث الوعي القومي وتقويته وتركيزه والدعاية للصلاح الاخلاقي والاجتماعي والصحي والفني .

١٠ — انشاء مسجد في كل قرية يتولى امره رجل نابه نير .

١١ — وضع قانون مماثل لقانون القرية التركي الذي ألممنا باحكامه الجوهرية لتنظيم شخصية القرية المالية والحقوقية وايجاد المسؤولين عن نظافتها وأمنها وصحتها وتحسين شؤونها وحل مشاكلها المحلية الخ .

١٢ — فسح المجال لمشاركة ذوي العقل والنباهة من القرويين في الحياة العامة وتمثيل القرية تمثيلاً صادقاً في مؤسسات الدولة المتنوعة فلا تظل تلك الحياة وهذه المؤسسات وقفاً على ذوي الجاه والثراء والألقاب والاقطاع من أبناء المدن والقرى .

١٣ — فسح المجال لأبناء القرى النابهين ليسيروا على حساب الدولة في أشواط التعليم العالي مجاناً .

ولقد أحدثت الحكومة المصرية أخيراً منصباً وزارياً باسم وزير الشؤون القروية والبلدية وجمل الرئيس علي ماهر لشؤون القرية وزارة خاصة ، وهذا صواب يدل على أن مشكلة القرية مما يشغل حيزاً في رؤوس الصالحين من الحكام، غير أن الذي نعتقده أن إناطة شؤون القرية واصلاحها بادارة مستقلة مستمرة هي الأنجع لأن الذين يتولون الوزارات هم على الأغلب سياسيون وحزبيون وهم عرضة لتيارات الحزبية والسياسة والانتخابات وما يرافق هذا في بلادنا من تصرفات واعتبارات شخصية كثيراً ما تحبط المسعى وتعرقل الوصول الى نتائج إيجابية وجدية .

وفي مصر مشكلة خاصة بالنسبة للأراضي الزراعية ليست قائمة بالنسبة للبلاد العربية الأخرى . فمهما يكن من سوء توزيع الأراضي الزراعية فيها ، ومهما حزم القائمون بأمرها في صدد تحديد الملكية الزراعية واستملاك الزائد عن الحد الأعلى ، فان الأكثرية العظمى من الفلاحين ستبقى بدون ارض لأن الصالح من الاراضي للزراعة في هذا القطر الآن قليل جداً حيث لايكاد يزيد عن ستة ملايين فدان في حين أن سكان الريف المصري يبلغون نحو خمسة عشر مليوناً . وكثافة السكان في مصر بالنسبة للأراضي الزراعية الصالحة عالية جداً حتى لتضارع اكثر بلاد العالم كثافة . وقد قلنا إن مصر تكاد تنفرد في هذه المشكلة بين البلاد العربية . فسكان العراق مثلاً نحو أربعة ملايين ونصف وأراضيها الصالحة للزراعة تزيد على سبعين مليون دونم أو ١٧ مليون فدان ، وسكان سورية نحو ثلاثة ملايين ونصف وأراضيها الصالحة للزراعة تزيد على ٥٠ مليون دونم أو ١٢ مليون فدان .

ولمعالجة هذه المشكلة سبيلان : الأولى تزييد الأراضي الصالحة الزراعية باستصلاح ما يمكن استصلاحه من الصحاري على طرفي النيل الشرقي والغربي وفي صحراء سيناء حيث توجد مساحات واسعة يمكن استصلاحها بالري واستنباط

المياه الجوفية ، وقد جرت في هذا المجال محاولات ونجحت . أما الثانية فهي تيسير الهجرة أمام الريفيين المصريين الى السودان والعراق وسورية ومساعدتهم على الاستثمار الزراعي فيها حيث يوجد أراض شاسعة صالحة للزراعة تزيد كثيراً عن حاجة أهلها وكثافتها . ومن الممكن الى هذا وذاك أن يكون في تصنيع مصر حلاً ما للمشكلة بحيث يقوم فيها مشاريع صناعية كبرى تستوعب عدداً كبيراً من أهل الريف الذين لا يجدون عملاً ولا كفافاً في الريف والأعمال الزراعية.

ونحن نقدر ما يمكن أن يقوم من مصاعب متنوعة أمام تنفيذ هذه المعالجة وما تستلزمه من جهود جبارة . ولكنها مما لا معدى عنه وهي متصلة بصميم حياة مصر ومستقبلها .

هذا ؛ ومما يمكن الحاقه بمشكلة القرية والفلاح وسوء حالتهما من مختلف النواحي ويدخل في بابهما مشكلة القبيلة والبدوي . واذا لاحظنا أن البدو في سورية والعراق والأردن نحو عشر السكان أو أكثر ظهرت لنا خطورة هذه المشكلة . أما المشكلة في دول جزيرة العرب فهي أشد خطورة لأن مدن هذه الدول لا تكاد تضم الخمس من السكان . واذا كان هناك قرى وهجر فان سكانها لا يكادون يزيدون عن خمس آخر ، وهكذا يكون البدو فيها ٦٠ ٪ أو أكثر . فمن الواجب توجيه العناية بجد وصدق وإيمان نحو حل هذه المشكلة . والمنهاج الذي شرحناه آنفاً ليكون منهج مؤسسة القرية صالح للتطبيق في حل هذه المشكلة . غير أنه من المتعذر تطبيقه بمقياس واسع ومجد مالم يغير طرز معيشة البدو وتتبدل حياة القلقلة والترحل بحياة الاستقرار والاستمرار . والوسيلة الى هذا هي بطبيعة الحال تحضير البدو وابدال مخيمات الشعر بقرى وتهيئة أسباب العمل الزراعي لهم ومساعدتهم عليه . وفي أملاك الدولة من جهة الأراضي الواسعة المسجلة على أسماء مشايخ البدو والتي هي في الحقيقة حق أفراد القبيلة من جهة امكانيات واسعة لتحقيق هذه الغاية . ولقد جنح كثير من البدو الى الزراعة فاستمرأوها وأخذوا يستبدلون حياة الترحل بحياة الاستقرار نتيجة لذلك. وهذا مما يضمن النجاح للخطة اذا ماسير فيها بجد وصدق وإيمان .

— ٥ —

ثانياً — مشكلة العمال والمدينة .

وإذا نحن نوهنا بسوء حالة القرية والفلاح وانحطاط مستواهما فان هذا لايعني أن سكان المدن العربية في حالة حسنة في مستوى المعيشة والصحة والعمل . فاننا اذا استثنينا في كل مدينة كبيرة بضعة احياء وشوارع جديدة بدا المظهر كريهاً في ناحية التنظيم والقذارة في سائر الأحياء والمساكن والشوارع والجواد . وهذه الحالة أشد سوءاً في المدن الصغيرة لأن أكثرها يفقد ذلك الاستثناء .

ولا تكاد نسبة الذين هم في حالة اقتصادية حسنة ومستوى رفيع في المعيشة من سكان المدن تبلغ العشر ونسبة الذين حالتهم متوسطة تبلغ الربع . والباقون وهم ٦٥ ٪ أي الأكثرية الساحقة من سكان المدن في حالة دون المتوسط ومعظمهم في حالة سيئة جداً في المسكن والملبس والمعيشة والصحة والعمل . وجل هؤلاء هم من الطبقة العاملة الكادحة في مختلف المهن والأعمال . وهم بسبب حاجتهم الشديدة مضطرون للرضوخ لأصحاب الأعمال والمصانع والورشات يستغل هؤلاء كدهم مقابل مالايكاد يسد رمقهم ، ويفرضون عليهم شروطاً شاقة في الأوقات والأعمال ، وقلما يبالون بصحتهم وسلامتهم ومصيرهم، وكثيراً ماتعرض العمال للطرد والحرمان لأتفه الأسباب ، كما أن كثيراً مايكون كثير منهم عرضة للتعطل بسبب ضيق مجال العمل ؛ وطبيعي انهم عاجزون عن السكنى في مساكن تتوفر فيها أسباب الصحة والراحة وعن المعالجة في حالة المرض التي هم عرضة له أكثر من غيرهم بسبب سوء الغذاء ورداءة المسكن والعمل الشاق .

ونسبة البائسين التي ذكرناها وهي ٦٥ ٪ هي بالنسبة لسكان الدولة ١٦ ٪ وهي نسبة خطيرة من شأنها أن تزيد في أسباب تعثر خطوات الأمة العربية وضعفها ، لأنها اذا أضيفت الى نسبة ٦٧٫٥ ٪ وهي نسبة البائسين من سكان

القرى ارتفعت نسبة البؤساء في معيشتهم وصحتهم وسوء حالتهم الى ٨٣٫٥٪ من مجموع السكان .

ولقد بدا حقاً شيء من الاهتمام لناحية العمل والعمال في الحكومات العربية غير أن ماجرى ليس متناسباً مع سوء الحالة وشدة الحاجة ، والواجب يقضي بمضاعفة الجهد والعناية بهذه الطبقة ضمن منهاج يمكن أن تكون خطوطه كما يلي :

١ — يجب سن القوانين القوية التي تحمي العامل من الاستغلال والأخطار وتضمن له حق الحياة المعقولة في المسكن والمطعم والملبس والعلاج والوقاية والترفيه أو تضمن الحد الأدنى على الأقل الذي يكفل هذه الحياة المعقولة ، وتضمن الى هذا له في شيخوخته ولأرملته وأيتامه بعده الحد الأدنى للحياة المعقولة أيضاً .

٢ — يجب العناية بمساكن العمال وأحيائهم بحيث توفر لها النظافة والماء والاضاءة والمرافق الأخرى ، وبحيث يستبدل ما لايمكن اصلاحه بجديد يتوفر فيه ذلك أو باستملاك الزائد من عقارات الملاكين وتيسير سكناها وتملكها للعمال .

٣ — يجب تشجيع الحركة التعاونية والنقابية العمالية تشجيعاً قويا بحيث تشمل جميع العمال على اختلاف الأعمال وتمنح المنح والمساعدات المختلفة التي تمكنها من النجاح في أهدافها المتنوعة .

٤ — يجب أن يكون في كل مدينة مدرسة صناعية متوسطة لتخريج أبناء العمال فيها تخريجاً فنياً على حساب الدولة ويجب أن تتعدد هذه المدارس في المدن الكبيرة لتفي بالحاجة .

٥ — يجب أن يمكن النابهون والاذكياء من أبناء العمال من السير في أشواط التعليم العالي مجاناً .

٦ — يجب أن يعتنى بتنوير أذهان العمال بالمحاضرات الاخلاقية والاجتماعية والصحية والثقافية وأن يساعدوا على تأسيس أندية لهم يقضون فيها أوقات فراغهم فيما يفيدهم ثقافياً ورياضياً واجتماعياً .

٧ — يجب أن يشجعوا على المشاركة في الحياة العامة وأن يفتح المجال

لاذكيائهم وعقلائهم في هذه الحياة وأن يمثلوا في مؤسسات الدولة المتنوعة تمثيلاً صادقاً .

٨ — يجب أن يساعد العاطلون منهم على الحياة وعلى العمل معاً .

— ٦ —

ثالثاً — مشاريع البر .

وما في البلاد العربية من ملاجىء ومياتم ومستشفيات وعيادات مجانية ومؤسسات إحسان وتفريج وضمان اجتماعي ودور عجزة الخ قليل وضعيف جداً لايسد حيزاً ذا بال من الحاجة فضلا عن سوء حال أكثر الموجود منه صحياً وادارياً . ومع أن هناك التفاتاً الى هـذه الأمور اكثر من ذي قبل انسياقاً وراء التيار العالمي العام فان مافعل في هذا المجال لا يكاد يعدو التفكه ولا يزال بعيداً جداً عن تحقيق الغاية أو السير في سبيل ذلك والوصول اليه في مدة قصيرة فضلاً عن أن بعض البلاد لم تكد تخطو خطوة ما في هذا السبيل .

وهذا النقص مشكلة من مشاكلنا الاجتماعية الخطيرة . فالاكثرية الساحقة من الشعب التي تبلغ ٨٣٫٥ ٪ عاجزة كلياً تقريباً عن العلاج وعرضة للأمراض المستوطنة وغير المستوطنة بسبب سوء الغذاء ورداءة المسكن وشاق العمل . ولذلك فان الأمراض تستفحل ويتسع نطاقها هذا الاتساع الكبير الذي تذكره الاحصاءات ويعرف بنتيجة الدراسات ، والذي يستولي بعضها على معظم سكان البلاد كالبلهارسيا في مصر ويصل عدد المصابين ببعضها مئات الألوف كالتراخوما والسل والزهري في مصر وغير مصر .(١)

---

(١) مما ذكره تقرير مؤسسة روكفلر الاجتماعية الذي اشرنا اليه عن مصر في مناسبة سابقة ان البلهارسيا تهد من القوى الانتاجية ٩٢ ٪ من سكان القرى وان الديدان المعوية تصيب ٦٤ ٪ منهم . ويستفاد من التقديرات الاخرى التي اطلعنا عليها ان عدد المصابين بالبلهرسيا في مصر يزيد عن عشرة ملايين .

والفاقدون للكفيل المسؤول القادر من الأيتام والأطفال والطاعنين في السن والمبتلين بالعاهات المتنوعة المانعة عن العمل يملأون دروب المدن والقرى وساحاتها ويعرضون منظراً شديد المضاضة والاثارة والألم .

فالواجب يقضي بالالتفات الى هذه الأمور بعين الجد ووضع مناهج شاملة والسير حثيثاً في سبيل تحقيقها في أقصر مدة ممكنة واعتبار ذلك واجباً قومياً عدا وجوبه الاجتماعي والانساني ويمكن أن تكون خطوطها كما يلي :

١ — يجب أن تكثر المستشفيات والعيادات في المدن الكبيرة والصغيرة على السواء حتى تسد حاجة الناس على حساب الدولة وأن تجهز بما تحتاج اليه من وسائل الطب الحديثة والأطباء الاختصاصيين . وأن يعالج الناس فيها جميعاً فيؤخذ من القادرين أجورات معتدلة ويعفى الفقراء العاجزين منها ؛ أو أن يطبق مشروع من مشاريع الضمان الطبي الذي يطبق في انكلترة وغيرها مع استثناء الفقراء من الرسوم وتسديدها عنهم من خزانة الدولة .

٢ — يجب أن يجبر الأطباء على حسن التوزع في أنحاء البلاد كخدمة اجبارية وأن تحدد أجورات المعالجة تحديداً معتدلاً لا يعجز عنه متوسطو الحال وأن يجبر الأطباء على معالجة الفقراء مجاناً مقابل مساعدات تؤدى لهم من خزانة الدولة .

٣ — يجب بذل العناية التامة لمكافحة الأمراض المحلية والسارية وإزالة أسبابها في القرى والمدن على السواء .

٤ — يجب أن تنشأ في المدن الكبيرة والمتوسطة ملاجىء متنوعة لفقراء العجزة والشيوخ والزمنى وذوي العاهات والايتام بحيث تسد الحاجة وتختفي المناظر التي تجرح الكرامة والانسانية .

٥ — يجب أن يرتب لأسر فقراء العاجزين والشيوخ والزمنى وذوي العاهات والأرامل مخصصات شهرية تضمن لهم حياة معقولة .

ولا يقولن قائل أننا نضرب في بيداء الخيال وأن الكتابة ورسم الخطط شيء والتنفيذ والعمل شيء آخر . فليس ما نرسمه خيالاً ولا متعذراً وقد حققه غيرنا

تحقيقاً كاملا أو قريباً من الكامل . ولسنا من جبلة أخرى ولا ينقصنا ما فيهم من مواهب وقابليات وما عندهم من إمكانيات . وكل مانحتاج اليه عزيمة صادقة وجلد وإخلاص وحسن إدراك الواجب وهو مايجب أن تشتد الدعوة اليه .

-٧-

وطبيعي أن هذه المناهج تحتاج الى المال . وبالرغم من فقر سوادنا الأعظم فان في كل بلد من بلادنا طبقة قادرة على الدفع يحيا بعضها حياة فيها من البذخ والترف ما يصل الى السفه وتستطيع ان تسد فراغ المال ويجب أن تسده .

ولقد كثر ما قرأنا وقرأ الناس أن بعضهم في مصر مثلا يقيم الحفلات التي تكلف الواحدة منها آلافاً عديدة من الجنيهات ، وينفق على تبغه وسياراته ومشروباته وزينته وزهوره وكلابه ودجاجه فضلا عن ثيابه وخدمه وحشمه وطعامه وأثاثه شهريا مئات الجنيهات وأن آلافاً من الأغنياء يغادرون مصر سنوياً الى مغاني اوربا ويبلغ ما ينفقونه فيها عدد غير قليل من ملايين الجنيهات ، وأن هناك من يخسر في سهرة ميسر واحدة العشرة آلاف والعشرين الف جنيه ثم يخرج هادىء الأعصاب كأنه لم يخسر الا جنيهاً ، وأنه ليس من النادر أن يكلف فستان واحد الفاً والفين من الجنيهات،وأن من الأمور العادية أن يكلف الفستان الواحد مئتين وثلاثمئة جنيه ، وأنه ليس من النادر أن تشترى سيارات قيمة الواحدة منها اربعة آلاف وخمسة آلاف وستة آلاف جنيه ، وأن قيمة السيارات الملاكية في مصر تبلغ عشرات الملايين ، وأن هناك طبقة من الناس يعيشون في قصورهم وأثاثهم وتحفهم وخدمهم وحشمهم ومراسيمهم وولائمهم وحفلاتهم ولعبهم حياة برمكية ، وتبلغ نفقة الأسرة منهم الخمسين والمئة والخمسين الف جنيه في السنة . وأن هناك أفراداً وأسراً عديدة يصل رقم إيرادها أو ربحها السنوي مئة الف ومئتي الف جنيه وأكثر ، وشيء من هذا كله ولو نسبياً موجود في لبنان في الدرجة الأولى وفي سورية والعراق في الدرجة الثانية مما يدل على أن هناك طبقة غير قليلة العدد قد استقطبت فيها الثروة والغنى

بدرجة استقطاب الفقر والعوز في السواد الأعظم . وهذا الدليل قائم في توزيع الملكيات الأرضية فى الاقطار العربية على ماذكرناه قبل .

فهذه الطبقات يجب أن تغذي خزينة الدولة ومشاريعها الاجتماعية والخيرية فضلا عن مطالبها الأخرى لأنها هي التي تنتفع في الدرجة الأولى بما توفره الدولة من الأمن والسلام والنظام وحرية الاستمتاع وهي التي تسيطر على ثروة الدولة المنقولة وغير المنقولة وتتصرف فيها . ويجب أن تجبر على ذلك ، وان هذا في الوقت نفسه للوسيلة العظمى الى تخفيف الفروق الاقتصادية بين الطبقات وتخفيف روح التذمر في الفقيرة منها . ولا ندعو في هذا الى بدع . فجميع بلاد العالم تأخذ به وتسير فيه . وهذه الطبقة في بلاد العالم تقدر هذا الواجب وتؤديه بطوع ورضى نفس الا في بلادنا حيث تتهرب منه . واذا رأت أحياناً أن تساير الظروف بالتبرع فيكون تبرعاً تافهاً مع المن والطنطنة والقاب المحسن الكبير وبقصد التزلف الى الرؤساء والكبراء وابتغاء تأمين المصالح والمنافع الخاصة ونيل الأوسمة والألقاب التشريفية .

ولقد بلغ من أمر الضرائب التصاعدية في بريطانية مثلا ان تصل ضريبة الدخل الى ٩٠ ٪ منه بحيث يدفع صاحب ايراد المئتي الف جنيه (١٨٠) الفاً منها . وليست بريطانية هي المنفردة في هذا الأمر فجميع بلاد الغرب تسير على منوالها أو مايقاربه . وبذلك وحده يمكنها أن تهيىء الميزانيات الضخمة لمشاريعها المتنوعة الدفاعية والعمرانية والانشائية والاجتماعية والصحية ومشاريع البر بمقياس واسع أوصل هذه البلاد الى ما وصلت من العظمة والكمال والوفاء بالحاجة والقوة المادية والمعنوية حتى ليبلغ مايصيب الفرد في بعضها المئات من الجنيهات في حين لا يصيب الفرد في اكبر الميزانيات العربية الا عشرة جنيهات ، ومنها ما ينزل هذا المعدل فيها الى ثلاث جنيهات . وجل الميزانيات في الغرب يسددها القادرون والاغنياء بطبيعة الحال . ولقد فرضت تركيه في أثناء الحرب ضريبة خارقة على الثروة بقيمة خمسمئة مليون ليرة لنفقات الجيش وقالت ان السواد الأعظم يدفع ضريبة الدم بما يحتشد من مئات الالوف من أبنائه في الجيش

على القادرين والاغنياء أن يدفعوا ضريبة المال مقابل ذلك وفي هذا كل الحق والمنطق . وفي الغرب مشاريع خيرية كثيرة جداً تقوم على تبرع الأغنياء والقادرين في حين لانكاد نستطيع أن نذكر مشروعاً هاماً قام وعاش على تبرع أغنيائنا .

وهناك اعتبار آخر يجب ان يلاحظه اغنياء البلاد العربية وان يحملهم على الدفع ، وهو ماتنبج الأفكار به اليوم من الدعايات المنبهة الى ما يقاسيه الفقراء من بؤس وحرمان ومرض بسبب استغلال الأغنياء وجشعهم والى تخمة الترف والبذخ وسفه التبذير الذي يرتكس فيه هؤلاء وما ينطوي في هذا من خطر وشر عليهم . فاذا ما أدركوا هذا ودفعوا أمكن تهدئة بال السواد الأعظم بما تقدمه لهم الحكومات من خدمات تساعدهم على رفع مستواهم وتعليمهم وتمريضهم وتشغيلهم وضمان الحياة المعقولة لهم في حالة امكان العمل والعجز عنه .

والأمر اولاً وأخيراً يحتاج الى حزم وقوة وارادة ورغبة صادقة وبعد نظر فيمن يتولى مقاليد العرب من رؤساء ووزراء وموظفين ونواب . وهذا ما يمكن ان يكون اذا ما اشتدت الدعوة اليه ووجه الوعي نحوه مما يترتب على منظماتنا وكتابنا وخطبائنا ووعاظنا وصحافتنا بحيث لايبقى محيص لأولئك من التجاوب مع الدعوة أو التخلي عن المقاليد الى من يتجاوب معها .

وهناك منابع اخرى لتوفير المال لتنفيذ هذه المناهج . فحكوماتنا تسرف في المظاهر والفخفخة كثيراً . ولا يندر أن نقرأ انفاق مبالغ عظيمة على مبنى حكومي وزخرفته يمكن ان تكفي لعدد من تلك المشاريع الخيرية . ولا يندر أن نقرأ تبرع بعض العظماء بمبالغ طائلة لانشاء منشئات لاحاجة كبيرة لها يمكن ان تكفي لعدد آخر منها . ولا يندر ان نقرأ خبر انفاق آلاف وعشرات الألوف ومئات الألوف على حفلات ومشاريع يمكن ان يكفي فيها عشر المبلغ او ربعه لو جنحنا الى جانب الاعتدال وصرفنا النظر عن الفخامة والضخامة ومظاهر الترف .

وهناك ملايين عظيمة أخذت تنهال على بعض رؤساء العرب من النفط، ويبذر قسم عظيم منها تبذيراً عجيباً في القصور والزخارف والاثاث والرياش والسيارات والطيارات والرحلات والحفلات والهدايا والسهرات الخ الخ ، ولو عدوا هذه الملايين ملكهم الخاص لما جاز ذلك في عقل ولا شرع ولا منطق بينما ملايين العرب في بلادهم وغير بلادهم من الأقطار العربية يقاسون ما يقاسون من البؤس والحرمان والجهل وانحطاط المستوى والمرض بل منهم من لايكاد يجد ما يستر عورته ويمسك حشاشته ، وفي حين ان للعرب جميعهم حقاً فيها سيسألهم الله عنه . وعلى كل حال ان هذه الثروة ملك للدولة وليست ملكا للملوك والأمراء، وان الحق هو انفاقها على مصلحتها ومصلحة اهلها في الدرجة الأولى .

فمن الواجب أن تشتد الدعوة لحمل الحكومات من جهة ورؤساء العرب الذين جعلهم الله مستخلفين في ثروة البلاد العربية الهائلة من جهة اخرى على الكف عن تبذير المال فيما لا ضرورة له ولا نفع وفي الأهواء والشهوات والمشاهد والزخارف والكماليات ، وانفاقه فيما يعود على البلاد وأهلها بالخير والنفع والاصلاح وخاصة في حل مشكلة هذا البؤس الأليم الذي يرتكس فيه جمهورهم الأعظم .

(٩) ضعف استثمار امكانيات وثروات البلاد العربية

وآثاره وصلته بجهاز الحكم والاساليب الحزبية والنيابية فيها

- ١ -

إن الدخل القومي السنوي في مصر يقدر بسبعمئة مليون جنيه ، وفي سورية بألف ومئتي مليون ليرة سورية او نحو (١٣٠) مليون جنيه كما يستفاد من التقارير والدراسات الرسمية . فيكون معدل دخل الفرد الواحد السنوي علي هذا في مصر نحو (٣٥) جنيهاً وفي سورية نحو (٣٥٠) ليرة سورية أو(٣٨) جنيهاً مصرياً .

والدخل القومي في العراق الآن مقارب الى مصر وسورية . ومع ان المنتظر أن يزداد بازدياد إيراد النفط الا أن الزيادة لن تزيد الدخل القومي زيادة كبيرة بالنسبة للمجموع . وربما صار معدل دخل الفرد بها مثل معدل سورية ومصر أو أكثر قليلاً . والدخل القومي في المملكة الاردنية لايكاد يصل الى خمسة عشر مليون جنيه ولا يكاد يبلغ نصيب الفرد الواحد اثنى عشر جنيهاً لأن سكانها نحو مليون وربع خمسهم لاجئون ! والقسم الجنوبي من جزيرة العرب الذي لم يقسم له الحظ بعد في ثروة أرضية كما قسم للقسم الشمالي أسوأ حالاً وأضعف . ومع ان القسم الشمالي قد قسم له حظ كبير ممثل في إيراد النفط الا أن هذا الحظ لايعتبر دخلاً قومياً لأن ملوك هذا القسم وامراءه يعتبرونه حظهم الخاص

ويعتبرون إيراده إيرادهم الخاص الذي لهم الحق في التصرف فيه كما يشاؤون ويرون . وإذا انفقوا منه شيء على البلاد والسكان فهو منهم كرماً ومنة . ومع ذلك فان دخل النفط في المملكة السعودية التي هي صاحبة السيادة على معظم القسم الشمالي إذا وزع على أفراد الشعب السعودي لايصيب الفرد الواحد منهم أكثر من عشرة جنيهات ! وليس هناك دخل قومي كبير آخر بحيث يصح أن يقال ان الدخل القومي في هذا القسم — باستثناء الكويت — منخفض جداً أيضاً . وسكان الكويت لايكادون يبلغون مئتي الف فالاستثناء لايكاد يعني شيئاً بالنسبة لمجموع الأمة العربية . ويقال مثل هذا بالنسبة الى لبنان الذي يمكن أن يكون أحسن حالاً بعض الشيء من البلاد العربية الأخرى حيث يقدر دخل الفرد بخمسين جنيهاً مصريا .

والعرب في المغرب العربي أسوأ حالاً لأن خيرات المغرب الارضية والمعدنية والصناعية والزراعية والتجارية والمائية معظمها مستغل للمستعمرين الأفرنسيين ولأن جمهور الشعب العربي ليسوا إلا عمالاً كادحين بابخس الأجور وأقسى الشروط بل هم بمثابة عبيد عمل لأولئك المستعمرين بقوة الحاجة والقانون معاً على مايستفاد من الكتب والدراسات التي وضعت عن حالة المغرب المذكور (١) .

ومعدل الدخل الفردي السنوي في مصر وسورية والعراق ولبنان الذي هو أحسن معدل للدخل الفردي في البلاد العربية هو في الواقع من أحط المعدلات بالنسبة لغير البلاد العربية . ويبدو الفرق صارخا إذا ماقيس بمعدل الدخل الفردي في اميركا الشمالية وهو ١٧٠٠ دولار أي نحو (٧٠٠) جنيه وفي بريطانيه وهو (٣٧٥) جنيهاً وفي فرنسة وهو ٢٦٠ جنيهاً على ما يستفاد من التقديرات التي اطلعنا عليها . بل ان الدخل القومي في اسرائيل التي تمتلأ الصحف بأخبار ضيقها وافلاسها أحسن بكثير من أحسن المعدلات العربية . فان هذا الدخل سنة ١٩٥٠ كان (٣٣٧) ميليون جنيه . ومعدل الفرد هو (٢٦٦) جنيه في السنة (٢) . وعلى

(١) في الجزء الثاني من كتابنا حول الحركة العربية الحديثة بيان واف عن حالة المغرب العربي السيئة .
(٢) من رسالة اسرائيل خطر سياسي وعسكري واقتصادي لمكتب مؤتمر الغرف التجارية والصناعية والزراعية العربية .

حساب هبوط قيمة الجنيه الى ربع قيمته الحقيقية فان القيمة الحقيقية لمعدل دخل الفرد تكون نحو (٦٧) جنيهاً .

وهذا تأويل ما يرتكس فيه الجمهور الأعظم من العرب من الفقر المدقع والحالة الزريه في مختلف الاقطار . ولا سيما إذا لوحظ ان المعدل الفردي هو اعتباري وليس من نصيب كل فرد وان هناك من يبلغ دخلهم السنوي مئات الألوف وعشرات الالوف والالوف والمئات من الجنيهات وان المعدل الفردي السنوي للطبقة الفقيرة التي هي الاكثرية الساحقة ينزل بسبب هذا التفاوت الى أقل من المعدل الزهيد الذي ذكرناه وقد ينزل في سورية ومصر مثلاً اللتين معدلها أرقى من غيرهما الى عشرين جنيهاً أو أقل !

—٢—

وميزانيات الدول العربية ضعيفة جداً رغم ما يبدو من ضخامة أرقامها في نظرنا المسكين . ولا يكاد يزيد معدل مايصيب الفرد في احسنها وهي مصر عن عشرة جنيهات حيث تبلغ ميزانيتها مئتى مليون جنيه . ومعدل ما يصيب الفرد في سورية هو ستون ليرة سورية أي أقل من سبعة جنيهات لأن ميزانيتها تقرب من مئتي مليون ليرة سورية وسكانها نحو ثلاثة ملايين ونصف ومعدل مايصيب الفرد في العراق مقارب الآن الى سوريه ومعدل مايصيب الفرد في المملكة الاردنية أربعة جنيهات ونصف . أما المعدل في دول الجزيرة العربية فهو أوطأ بكثير من ذلك .

والمعدل المصري الذي هو أحسن المعدلات من أوطأ المعدلات بالنسبة لغير العالم العربي . ويبدو الفرق صارخاً اذا قيس بمعدل الولايات المتحدة الذي يبلغ نحو ٧٠٠ دولار منها ٤٠٠ لميزانية الاتحاد و ٣٠٠ لميزانية الولاية الخاصة وبريطانية الذي يبلغ نحو ١٤٠ جنيهاً على ما يستفاد من التقديرات التي اطلعنا عليها . وحتى اسرائيل فان معدلها يزيد على احسن معدل عربي . فان ايراداتها المحققة الذاتية العادية لسنة ١٩٥١ — ١٩٥٢ قد بلغت ١١٣ مليون جنيهاً وكسوراً (١) وقد بلغ سكانها نحو ميليون ونصف فيكون معدل نصيب الفرد منها نحو (٧٥) جنيهاً واذا اردنا ان نحسب هذا الرقم بقيمة الجنيه الاسرائيلي الخارجيه فيكون نحو (١٩) جنيهاً أي ضعف المعدل المصري الذي هو أعلى المعدلات (١) .

---

(١) الرسالة المذكورة قبل .

وميزانيات الدول الأوروبية والاميركية بل واسرائيل تعادل نصف الدخل العام في بلادها أو مايقرب منه في حين أن معدل أعلى نسبة بين الدخل العام والموازنة في الدول العربية لا تزيد عن ٣٠ ٪ في مصر وهو أقل في غيرها حيث لا تزيد في سورية عن ٢٠ ٪ . غير أن هذا لايعني أن المكلف العربي يستطيع أن يتحمل أكثر من ذلك كثيراً ؛ لأن رقم دخله العام منخفض جداً وليس من السهل زيادة الضرائب والاراد في حالة البلاد الحاضرة زيادة كبيرة مهما كان من المحتمل والامكان أخذ مبالغ كبيرة أخرى من الأغنياء المتخمين ، لأن هذه المبالغ لن تشكل رقماً ضخماً بالنسبة لمجموع الميزانية والحاجة لأن عدد هؤلاء الأغنياء ليس كبيراً .

ومعظم هذه الميزانيات يذهب لمرتبات الموظفين ونفقات الدفاع والأمن بحيث تبتلع هذه وتلك نحو ٧٥ ٪ منها إن لم يكن أكثر . والربع الباقي يخصص للمشاريع الصحية والاجتماعية والزراعية والتعليمية والانتاجية والعمرانية والطرق والموانىء وغيرها بحيث لا يمكن أن يسد من الثغرة إلا جزءاً يسيرا .

وهذا من اسرار مانعجب له من عدم ظهور آثار مهمة وعاجلة في هذه الميادين على شدة الحاجة الناتجة من سوء حالة البلاد واهلها ومن بقاء البلاد والسكان مرتكسين فيما هم مرتكسون فيه من الجهل والفقر والمرض والتأخر في كل مجال من مجالات الحضارة والقوة والنشاط .

- ٣ -

وقد يكون هناك استقطاب ثروة في فريق من السكان واستقطاب فقر واعسار في فريق آخر منهم . غير ان العلة ليست كامنة مع ذلك في سوء توزيع الثروة على ما في هذا التوزيع من سوء . لأن الفريق الثري ضئيل العدد جداً والفريق الفقير عظيم العدد جداً . ولو وزع الدخل القومي في مصر وسورية توزيعاً متساوياً على جميع افراد الشعب لما زادت حصة الفرد في مصر عن (٣٥) جنيهاً

وفي سورية عن (٣٨) جنيهاً في السنة . ودخل مصر وسورية القومي احسن دخول البلاد العربية على ما ذكرناه قبل . وليس من شأن هذا الرقم البائس الذي يعد بالنسبة لغير العالم العربي من اوطأ المعدلات ان يضمن مستوى حياة معقولة لقروي او مدني . ويقال مثل هذا بالنسبة للثروة القومية او ما يصح ان يسمى رأس المال القومي في حالته الراهنة بحيث لو وزع على جميع افراد الشعب توزيعاً متساوياً لما نتج اكثر من أن يصبح الأغنياء والميسورون فقراء اسوة بالجمهور الأعظم ، وكل ما يمكن ان يكون هو ان تتعدل قيمة ونسبة الفقر قليلاً .

كذلك فان علة هذه الأرقام البائسة في ميزانيات الدول العربية وفي الدخل القومي ومستوى المعيشة في البلاد العربية ليست كامنة في ضعف امكانيات هذه البلاد الطبيعية او في نقص طبيعي في جبلة وقابلية اهلها .

فالمعطل من الاراضي الزراعية القابلة للاصلاح والاستثمار في البلاد العربية يزيد أضعافاً مضاعفة عن المستغل المستثمر. وقد وهب الله هذه البلاد نعماً عظيمة متنوعة ظاهرة وباطنة لا ينتفع بها الا في حدود ضيقة جداً . ومركز البلاد العربية ممتاز من كل اعتبار والعربي لا يقل عن أحسن الشعوب ذكاء وقابلية بينما هو يفوق كثيراً من الشعوب فيهما ايضاً على ما ثبت من التجارب الفردية في مختلف مجالات العلم والعمل .

وانما تكمن العلة في ضعف استغلال تلك الامكانيات والقابليات وفي ضيق مجال العمل والانتاج مما هو الوسيلة الوحيدة الى رفع مستوى المعيشة وتحسين احوال العرب حكومة وشعباً وبلاداً .

وهذا عائد في الدرجة الأولى الى ضعف واعداد الشعب للعمل المنتج وضعف السياسة التوجيهية والاعدادية الجادة الدؤوبة المخلصة وما يرافق سير حكومات العرب من بطوء وارتجال وتقصير في حين ان ظروف العرب وحالتهم في اشد الحاجة الى خطوات او قفزات أو بالأحرى الى ثورات جادة تشريعية وتنفيذية لبلوغ الغاية المنشودة أو على الأقل للسير في طريقها قدماً .

وهذه الخطوات او القفزات او الثورات ليست مستحيلة على العرب ولا مما لا تتحمله البلاد العربية كما قد يظن البعض . بل هي ممكنة ومستحملة بل نستطيع ان نقول ان البلاد واهلها ونعني السواد الأعظم على أتم استعداد لتعيضدها لأن وعيه وان كان سلبياً وجامداً كما وصفناه ، وكان هذا من اسباب سكوته تجاه ما ترتكس فيه البلاد من حالات مريرة فانه في حالة يستطيع معها ان يدرك خطر وضرر هذه الحالات المريرة وما يلحق بالامة والبلاد من هوان وذل وخسارة بسببها ، وما تستمتع به الأمم المتحضرة من رفاه ومستوى رفيع في الحياة وما هي عليه من قوة وثروة وعظمة ونشاط وعمران ، وما في بلاده من ثروات وقابليات عظيمة ، وما في أمته من قوى كامنة، وما يعود من ذلك كله اذا استثمر احسن استثمار واستخدم احسن استخدام من رفاه ورفعة مستوي وقوة ومجد وكرامة ؛ وان يتجاوب مع كل دعوة الى ذلك .

— ٤ —

وفيما سارت عليه تركية من منهج مجال للاقتباس في امور كثيرة مما ذكرناه. وقد ذكرنا تركية خاصة للتماثل القوي بين بنيتها وبنية البلاد العربية .

(١) ففي سبيل انعاش العمل الزراعي وتمليك المحرومين من الأرض خطت الخطوة المهمة بقانون الأرض الذي ذكرناه قبل ففتحت بهذا القانون الانقلابي الجريء المجال امام الألوف المؤلفة من الأسر القروية وأمام من يرغب في العمل الزراعي من أهل المدن للاشتغال والعمل والكسب والانتاج ورفع المستوى ، مما اخذت تباشيره تدل على ان هذه المؤسسة ستغدو مصدر ربح عظيم ونفع عميم لخزانة الدولة واقتصاديات البلاد (١)، وعملت على تزيد موارد ميزانيتها مماسوف تجبيه من ضرائب جديدة بسبب اتساع مجال العمل والكسب .

(١) قرأنا ونحن نكتب الكتاب في جريدة المصري عدد ١١ حزيران سنة ٩٥٢ برقية من انقرة جاء فيها انه سيوزع خلال عام ١٩٥٢ — ١٩٥٣ (٤٠٠) الف فدان (اي ١,٦٠٠٠٠٠) دونم من الاراضي على المزارعين الذين لاأرض لهم وانه وزع في الشهر الماضي (٤٠) الف فدان . وهذا الخبر يعني ان الحكومة التركية سائرة في تطبيق هذا القانون العظيم بهمة ونشاط . واذا لاحظنا ان القانون قد صدر سنة ١٩٤٥ ادركنا مدى ماعاد منه على الفلاحين والخزينة من فوائد عظيمة .

(٢) وفي تركية من الاحراج ما يزيد مساحته عن تسعين مليون دونم وفي سبيل تنظيم استغلالها وضع قانون باستملاك احراج الأوقاف والأشخاص ومجالس القرى والبلديات وجعلها ملكاً للدولة ، وانشىء مؤسسة خاصة ذات شخصية حكمية اخذت تبذل جهودها الفنية العظيمة السريعة في سبيل الاحراج تخشيباً وتحطيباً وتفحيماً مما أخذت تباشيره تدل على ان هذه المؤسسة ستغدو مصدر ربح عظيم ونفع عميم لخزانة الدولة واقتصاديات البلاد .

(٣) ولقد كانت الصناعة التركية ضعيفة . فتدخلت الحكومة في هذا الميدان فانشأت مصرف « سومر بنك » برأس مال غدا ضخماً بالتدريج (صار في سنة ١٩٤٥ ثمانين مايوناً) وجعلته ذات شخصية حكمية مستقلة ، واناطت به تشغيل مصانع الحكومة والمصانع التي تشترك الحكومة فيرؤوس اموالها ، ودرس وتحضير وانشاء وتشغيل المؤسسات الصناعية المساهمةفي رؤوس أموال المؤسسات الصناعية الموجودة التي يمكن ان تستفيد من تقويتها وتوسيعها اقتصادياً وصناعياً وفتح المدارس لتنشئة عمال ومعلمين للمصانع وايفاد البعثات وتخريج المهندسين والفنيين والاختصاصيين وتسليف المؤسسات الصناعية الخ . وكان مما رسم من خطط لهذا المصرف ان ينشىء مصانع قوية للغزل والنسيج والورق والمعادن والمواد الكيماوية استهدافاً لخلق صناعة وطنية وقومية والانتفاع بخامات البلاد . وكان مما تقرر تحويل المصانع التي ينشئها المصرف الى شركات مساهمة ليتيسر اشراك الجمهور فيها . وقد سير في العمل على طريقة مشروع السنوات الخمس وكان من أثره ان انشىء في السنوات الخمس الأولى (١٩٣٤ — ١٩٣٩) عشرون مصنعاً كبيراً للغزل ونسيج الصوف والقطن والحرير النباتي والورق والأدوات المعدنية والشمنتو والقرميد والآجر والفولاذ والحديد كما دعمت مصانع عديدة للغزل والسكر والزجاج والاسفنج بالمساهمة المالية والاشراف الفني والاداري . وفي أثناء الحرب وسعت المصانع وزيد عددها واستطاعت ان تسد القسم الأكبر أو قسماً كبيراً من حاجة البلاد وخاصة في الأقمشة القطنية والصوفية والورق والأواني والمواد الحديدية والفولاذية والترابية ، وغدت تستهلك نصف محصول

القطن التركي الذي زيدت العناية به بسبب ذلك حتى بلغت مساحة زراعته سنة ١٩٤٢ (٣،٢٦٨،٨٧٠) دونماً بعد ان كانت سنة ١٩٣٢ (١،٥٨١،١٦٠) دونماً . ولا بد من أن نشاط المصرف قد استمر واتسع عما كان عليه حينما كنا في تركية وكتبنا كتابنا « تركية الحديثة » سنة ١٩٤٥ . وهكذا نشأت فعلاً صناعة تركية وطنية قوية شغلت عشرات الالوف من العمال وصار فيها الالوف من الفنيين ووفرت بها عشرات الملايين من المال الذي كان يدفع للخارج مقابل الحاجات المصنوعة المستوردة ، وعاد بالجملة نفع عظيم على البلاد واهلها وميزانية حكومتها .

(٤) وبالاضافة الى هذا فان الحكومة وجهت المصرف المعروف باسم «مصرف العمل» والذي نصف رأس ماله منها الى صناعة السكر فانشأ شركة انشأت فوراً اول معاملها ثم انشأ بالاشتراك مع المصرف الزراعي والمصرف الصناعي الحكوميين معملاً ثانياً ثم وحدت شركات السكر في شركة واحدة وجعل السكر حكراً لها . وقد كان لها في سنة ١٩٤٤ اربعة معامل كبيرة . ولم تكن زراعة الشمندر ولا صناعة السكر مألوفتين فاهتم لهذه الزراعة حينما قامت معامل السكر ،وغدا انتاجها سنة ١٩٤٤ (٥٨٩٦٩٠) طناً ونتاج سكرها (٨٩٨٠٣) طناً بعد ان كان الأول سنة ١٩٢٦ (٤٧١٠٠) طناً والثاني (٥٣٥٠) طناً وبعد أن كان كان يجلب السكر لتركية من الخارج بعشرات الاطنان ـ كان المجلوب من السكر سنة ١٩٢٦ (٦٢٠٠٠) طن ـ غدت معامله تفي بحاجاتها وتفيض قليلاً للتصدير .

(٥) ولقد كانت حركة التعدين في تركية ضعيفة واكثرها في يد شركات أجنبية أو امتيازات أجنبية أو مرهونة لشركات أجنبية . فتدخلت الحكومة في هذا الميدان أيضاً . وانشأت سنة ١٩٣٥ معهداً فنياً باسم معهد الابحاث والدراسات لتنظيم خريطة جيولوجية مفصلة لاجناس ومواقع وقيم عروق المعادن وبحث افضل الوسائل لاستثمار المعادن المكتشفة والممكن اكتشافها كما أنشأت مصرفاً برأس مال حكومي غدا ضخماً بالتدريج سمته « مصرف المعادن » وجعلته ذات شخصية حكمية مستقلة، وعهدت اليه بتنفيذ مشروع سنوات خمس في مجال التعدين

اسوة بمصرف سومر في مجال الصناعة . وكان من آثار نشاطه أن اشترى اسهم الشركة الالمانية لنحاس أرغني وأربعة وعشرين امتيازاً معدنيا أخرى ، واشترى شركة مناجم فحم اركلي وزونغولداق وأنشأ شركة لاستثمار معدن الكروم . وقد أصبح له في سنة ١٩٤٥ منشئات ومعامل عظيمة مجهزة باحدث وأقوى الأجهزة لاستثمار الفحم المعدني والفحم اللينيت والكروم والحديد والنحاس والكبريت وهكذا نشأت حركة تعدينية عظيمة شغلت كذلك عشرات الالوف من العمال والمئات من الفنيين وغدت مصدر ربح ونفع كبير للبلاد والخزينة .

ويبدو مما ذكرناه أن الحكومة التركية سارت في خطواتها على اسلوب الدولية الاقتصادية أو التأميم حيث رأت أنه لا يمكن للبلاد أن تخطو خطوات واسعة في هذا المجال إلا على هذا الاسلوب مما هو وجيه جداً فيما نعتقد بالنسبة لحالة تركية الثقافية والخلقية والاجتماعية المماثلة لحالة البلاد العربية في الجملة .

وقد سارت تركية على هذا الاسلوب في شؤون اقتصادية أخرى رامية بذلك الى تكثير موارد الخزينة من جهة والاشراف والصيانة من جهة أخرى حيث جعلت التبغ والكحول والمشروبات الروحية والكبريت والملح والسكر والنفط صناعة واستثماراً وبيعاً واشرافاً في يد مؤسسة حكومية مستقلة ذات شخصية حكمية . وكذلك صنعت تقريباً في وسائل النقل البحرية والبرية والجوية .

ولقد كان في تركية عام ١٩٢٥ (٤٠٨٦) كيلو متراً من الخطوط الحديدية منها (٣١٦١) لشركات أجنبية فاشترت لغاية سنة ١٩٤٣ (٣١٦١) كيلو متراً منها كما أنشأت (٣٣٢٨) كيلو متراً جديداً على نفقتها . وقد حصرت النقل البحري في يدها ويد الشركات التركية القوية وقصرت حق الافراد على النقليات والاسفار القصيرة والصغيرة ، ثم أممت شركة البواخر التي تشتغل في البوسفور فغدا لها سنة ١٩٤٣ أسطول بحري تجاري مؤلفاً من (١٢٠) قطعة بين صغيرة وكبيرة تديره مؤسسة حكومية ذات شخصية مستقلة وحكمية . وحسنت دار الصناعة البحرية التي كانت في عهد الدولة العثمانية حتى غدت داراً عظيمة كانت تسد في

سنة ١٩٤٤ حاجة تعمير الاسطولين الحربي والتجاري وتنشىء سفناً بخارية من حمولة (١٥٠) طناً وقد رسمت خطة لتوسيع الدار لتكون قادرة على صنع بواخر وآلات بواخر لحمولة (٥٠٠) طن واكثر ولا بد من أنها قد حققتها الى الآن .

وجل المرافىء ومستودعات المرافىء في تركيه حكومية منها ما أنشأته الحكومة انشاءً ومنها ما أممته بعد ان كان لشركات اجنبية . وكانت تنشىء في سنة ١٩٤٥ مرفأين عظيمين على حسابها واحـــداً على البحر الأبيض في الاسكندرونة والآخر على البحر الاسود في أريكلي .

كذلك الامر في النقل الجوي . فهو محصور في يد الحكومة ويدار من قبل مؤسسة حكومية ذات شخصية حكمية ومستقلة .

ولقد وضعت تعريفة جمركية استهدفت حماية الصناعات والغلات التركية الطبيعية والناشئة وتشجيعها كما استهدفت تقليل استيراد الكماليات ، واختطت في الاستيراد والتصدير خطة حكيمة بحيث جعلا على أساس التقايض فلا يسمح بالاستيراد من بلاد إلا بنسبة ماتصدره تركيه اليها من غلات وخامات ومصنوعات ، وتعاقدت مع الدول الموردة والمصدرة على هذا ، فأدى ذلك الى نتائج باهرة من حيث نشاط الحركة الصناعية وسد معظم الحاجة المحلية ، ومن حيث حفظ ثروة البلاد من التبدد على الكماليات ومن حيث تحسن الميزان التجاري تحسناً بارزاً وغدوه في صالح التصدير بعد اختلاله وتفوق الاستيراد فيه على التصدير .

ومن الجدير بالذكر ان الحكومة التركية استطاعت ان تفعل كثيراً من هذا قبل الحرب العالمية الثانية وفي حين كانت ميزانيتها تتراوح بين ٢٥٠ و ٣٥٠ مليوناً من الليرات التركية وكانت نفقات الدفاع والبوليس والديون العمومية تستغرق نحو نصف هذه الميزانية .

— ٥ —

وما تم في تركية في هذه المجالات التي ذكرنا طرفاً منها بايجاز على سبيل المثال يمكن ان يتم مثله في البلاد العربية بطبيعة الحال بل ويجب ان يتم مثله واكثر

منه . فامكانيات هذه البلاد وثروتها الظاهرة والمكنوزة عظيمة جداً وأهلية سكانها ونباهتهم عظيمتان كذلك . والزمن قد تقدم وتقدمت معه الاسباب والوسائل وسهلت في ذات الوقت . وحاجتنا الى الاصلاح وتحسين المرافق والاحوال الماشية للجمهور الاعظم وجعله منتجاً كاسباً شديدة جداً بالنسبة للحالة المحزنة الرهيبة التي يرتكس فيها هذا الجمهور . هذا الى ماهو ضروري ومهم جداً من تصنيع البلاد العربية . فان معظم نشاطها الانتاجي على ضئالته وتعثره مصروف الى الزراعة . وهذا مما يبقيها وأهلها في نطاق متأخر وفي حاجة دائمة الى الغير مستغلة منه ويستنفد أموالها ويذهب بما يفيض عن حاجاتها من الغلات بالأثمان البخسة .

— ٦ —

على أن من الحق ان نقرر ان الذي يعوزنا ليس هو المناهج ولا الخطط والافكار ، وانما هو نبذ الروح الوانية المترددة التي كل همها تزجية الايام والحلول السطحية العابرة والتي تدعو العالم المتحضر الى احتقارنا والاستهتار بنا والتكالب على استغلالنا ، واستبدالها بروح تجددية انقلابية وان تشتد الدعوة الى ذلك اشتداداً يجعل استجابتها مما لامناص منه في الاقدام على نهضة كبرى في في مختلف المجالات تشريعاً وتنفيذاً وحسن استغلال امكانيات البلاد والامة وقواها ومواهبها وثرواتها العظيمة . فقد آن للعرب ان ينتبهوا من هذه الحالة البائسة التي تجعلهم وتجعل بلادهم في عداد البلاد والامم الدنيا المتأخرة ، وان يلتحقوا بقافلة العصر الجدة التي استطاعت ان تسخر قوى الكون وان تفعل المعجزات والعجائب في ميادين العلوم والفنون والابتكارات والاختراعات ، وان تنتفع بذلك الى اقصى حدود الانتفاع في تحسين بلادها وحالة امتها ثروة ومستوى وعمراناً وصحة وثقافة ورفاها ونظاما وان يتداركوا امرهم وكرامتهم وثرواتهم وقضاياهم بروح تجددية وانقلابية .

فنحن نسمع ونقرأ مع الناس منذ سنين كثيرة عن تقارير خبراء ودراسات خبراء كلفت عشرات آلاف الجنيهات واحتوت الاقتراحات والنصائح الكثيرة المفيدة والخطط والمناهج التفصيلية ، ونحن نسمع ونقرأ مع الناس منذ سنين

عن مشاويع كهربائية وزراعية وارووائية ومعدنية وصناعية واستثمارية وثقافية وعمرانية وانشائية وتحريجية وتخطيطية وتجفيفية درست ووضعت لها الخطط والمناهج التفصيلية في مختلف البلاد العربية ، ونحن نسمع ونقرأ مع الناس منذ سنين كثيرة عن لوائح قانونية قدمت وقوانين وضعت وانظمة قررت في شؤون اصلاحية متنوعة في مختلف البلاد العربية ، مالو انجز ونفذ عشره لتبدلت حالة البلاد واهلها تبدلا عظيما . ولكن الآثار التي نراها لكل هـذه الاعلانات والطنطنات والدراسات والتقارير والمناهج لاتتناسب مع ظروف الدنيا وشدة الحاجة وسعة الثغرات في بلادنا .

والبعض يعزو هذا الى قلة المال في يد الحكومات العربية . ومع ما يمكن ان يكون لهذا من صحة ما فليس هو العلة فيما نعتقد . فتركيه استطاعت كما قلنا ان تقوم بما قامت به من مشاريع اقتصادية وعمرانية وانشائية وصناعية وتعدينية كبيرة ، وان تنشيء وتمول أربعة مصارف كبرى وهي مصارف العمل والمعادن والزراعة والصناعة وان تنشيء ثلاثة آلاف كيلو متراً من السكة الحديدية، وان تشتري ثلاثة آلاف ونيفاً من السكة الحديدية ، وان يكون لها الى جانب ذلك جيش لم يكن ليقل عدده عن نصف مليون من ميزانيتها التي لم تكن لتبلغ مقدار ميزانية مصر قبل الحرب وفي أثنائها ، وعدد سكانها مقارب لعدد سكان مصر ولم تكن حالة تركيه الاقتصادية والعمرانية والثقافية احسن من حالة مصر ان لم نقل ان مصر تفوقها من بعض النواحي . ومعظم ما تم في تركية مما ذكرناه قد تم أكثره قبل الحرب العالمية الثانية أي قبل ان تنهال عليها المساعدات النقدية والعينية الانكليزية والاميركية والافرنسية قبل الحرب وفي أثنائها . وبفضل ما استطاعت ان تفعله وان تحتفظ به من جيش قوي استطاعت أن تجعل لنفسها مركزاً محترماً في أثناء هذه الحرب عند المعسكرين المتقارعين على السواء وان تجنب بلادها ويلاتها وان تخطب كلاهما ودها وان تصيب منافع مادية عظيمة منها . واذا كان من الممكن ان يحتج على مقايسة مصر بتركية بما كان يعوق مصر من عوائق الاستعمار فان مصر قد تحررت كثيراً خلال السنوات الستة عشر التي مرت

على معاهدة سنة ١٩٣٦ وتضخمت ميزانيتها كثيراً وكان في امكانها فيما نعتقد ان تفعل أشياء عظيمة في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية على الأقل. وهذا الذي نقوله وارد كله بالنسبة لغير مصر من البلاد العربية بطبيعة الحال.

ومها تكن الثروة القومية قليلة وعدد الأغنياء ضئيلاً فان في ايدي هؤلاء والطبقة المتوسطة مبالغ عظيمة يمكن ان تسد حيزاً كبيراً من المال الذي يحتاج اليه في النهضة الاقتصادية المنشودة. ولقد أنفق في دمشق وحدها خلال سبع سنوات ١٩٤٥ — ١٩٥٢ مالا يقل عن (٥٠٠) مليون ليرة على بناء المساكن وحدها تحت مشاهدتنا الشخصية، وأخبار بيروت وحلب وبغداد ومشاهدها تنبيء عن ان ما انفق فيها لا يقل عما انفق في دمشق. ولا شك في ان ما أنفق في القاهرة هو أضعاف مضاعفة لما أنفق في هذه العواصم مما تؤيده المشاهدات والأخبار. وهذا فضلاً عما أنفق في الاسكندرية والمدن الكبرى والمتوسطة والصغيرة الأخرى في القطر المصري والأقطار العربية الأخرى. فبلاد تستطيع ان تنفق على العمارات وحدها خلال سبع سنين هذه المبالغ الطائلة التي قد يبلغ مجموعها الف مليون جنيه مصري تستطيع بطبيعة الحال ان تمول مشاريع عظيمة متنوعة صناعية وتجارية وزراعية ومعدنية اذا وجدت الجد والتوجيه القوميين.

- ٦ -

والذي يتبادر لنا من كل ذلك ان عقدة هذه المشكلة وعلتها متركزتان في جهاز الحكومات العربية وروحها، وانها السبب في تعثر الخطوات والمشاريع واللوائح والقوانين والتقارير والخطط والمناهج والدراسات والعزائم والقرارات التي نسمع ونقرأ أخبارها الطنانة دون أن نرى لها آثاراً هامة تشريعاً وتنفيذاً. وهما في نفس الوقت عاملان كبيران في ما يقع من أخطاء ويقترف من منكرات في مختلف الميادين. فقد كانا من العلل المهمة في ضياع فلسطين وما كان من جراء هذا الضياع من عار الابد الذي لحق بالعرب ودولهم السبع لانها حالا دون

الانتفاع بالامكانيات الميسورة لدى الدول العربية في حرب فلسطين وكانت هذه الامكانيات على ضآلتها كفيلة بالقضاء على اليهود . ولقد فرضت الحكومات العربية على نفسها في اجتماعات الجامعة العربية مقادير معينة من الأسلحة والاعتدة والمتطوعين لترسل الى فلسطين في مرحلة النضال الاولى ، فلم تنفذ القرارات تنفيذاً صادقاً وكاملا ، فتأخر تسليم ما سلم من الأسلحة والاعتدة وارسال من ارسل من المتطوعين كثيراً ، وما سلم من الأسلحة كان أقل مما فرض من جهة وكثير منه كان في حالة لا يمكن الانتفاع به ، قدما وطرازاً وعطلا وعتادا حيث ارسل من المخازن المهجورة والمتروكات القديمة . وكانت الخطوات في كل موقف ومرحلة من مواقف حرب فلسطين ومراحلها وانية ضعيفة ارتجالية حائرة مترددة متفككة ، وبدا ضعف مدهش وتقصير خطير فيما يجب ان يكون لدى دوائر استعلامات الجيوش العربية للدول المجاورة لفلسطين من معلومات ضرورية حول فلسطين والاستعدادات اليهودية . ولقد كانت فضائح وسرقات وجرائم عديدة في ظروف هذه الحرب وفي سياق شراء السلاح والعتاد كان لتقصير الدواوين الحكومية والاشخاص المسؤولين واهمالهم وغفلتهم في ذلك اثر كبير . ونقرأ ونسمع حوادث يومية كثيرة من حوادث الدواوين الحكومية وموظفيها فيها ما لا يكاد يصدق من الاهمال والبطوء والارتجال والغفلة وتعسير الأعمال وسوء سلوك كثير من الموظفين وغطرستهم واعتبارهم أنفسهم من غير طينة الناس واعتبارهم أصحاب المصالح خولاً لهم . وتنشر الصحف احياناً نتفاً من تقارير ومراسلات دواوين المحاسبة فيها شيء كثير من مثل ذلك . والجهاز الحكومي الى هذا فضفاض حتى انه ليبتلع ثلث ميزانية الدولة ويرافقه بذخ يصل في بعض الظروف والدول الى حد السفه والتبذير كما يرافقه ضعف الانتاج وفقدان المسؤولية وسوء الاستعمال والاستغلال والرشوة والمحسوبية مما تردد منه ومن آثاره الشكوى على كل لسان وفي كل مكان وآن . فما لم تتبدل الروح والجهاز تبدلاً جوهرياً فان التعثر في سبيل الغاية المنشودة سيظل مستمراً وحالة البلاد السيئة واهلها في مختلف النواحي ستظل قائمة .

ولقد جرت محاولات متنوعة في مختلف البلاد العربية بسبيل هذا التبدل فلم تجد شيئاً مهماً مع الأسف ، بل لقد تضخم الجهاز اكثر من ذي قبل في بعض البلاد حتى زاد عدد الموظفين في مصر مثلا أكثر من عشرة آلاف خلال ست سنين بسبب ما احدث من دوائر ودواوين، وزاد رقم مرتبات الموظفين اكثر من عشرة ملايين جنيهاً بالتبعية واستمرت مع ذلك بل زادت الشكوى من تلك المظاهر المشينة التي ذكرناها.

— ٧ —

وتلعب الاعتبارات الشخصية والحزبية دوراً خطيراً في هذا الجهاز فتزيده خللا إلى خلل بما تشيعه فيه من اضطراب وقلقلة وضعف كفاءة . وكثيراً ما يعمد الحزب الحاكم الى ملء الوظائف المهمة بل والثانوية بالمنتسبين واضطهاد الذين ينتسبون الى الحزب الحاكم السابق. وكثيراً ما حمل هذا الموظفين على التزلف والنفاق لرجال الحزب الحاكم مهما كان لونه واقتراف المخالفات القانونية والاقدام على ما لا يتفق مع مصلحة الدولة والبلاد في سبيل تحقيق مطالب ورجال وانصار الحزب الحاكم مما كثرت منه الشكوى واستشرت اخطاؤه وساءت آثاره. ومع ان بعض الحكومات حاولت التظاهر بالنزاهة والترفع وأعلنت البلاغات بسبيل منعه الا أن الأمور ما زالت على ماوصفناه في اكثر البلاد العربية . وقد جنحت بعض الحكومات الى احداث وكلاء دائميين وأمناء فنيين واداريين دائميين للوزارات تقليداً للغرب على اعتبار ان الوزراء سياسيون ومتبدلون وان مصلحة الدولة تقضي أن يكون جهاز الحكومة ومشاريعها مستقرة يقوم على أمرها موظفون دائميون ذو سلطات وخبرة كافية ، غير أن هذه المحاولة لم تلبث ان بدت تقليداً مسيخاً حيث ادرك اثر الحزبية الذي ذكرناه هؤلاء بشره أيضاً من حيث القلقلة ومسايرة الأهواء والرغبات على حساب مصالح الدولة وجهازها .

وكثيراً ما يعمد الوزراء الجدد إلى تغيير أو تعديل مناهج وخطط الوزراء السابقين اما للكيد الحزبي واما لمباهاة في أحيان كثيرة فتتعثر بذلك تلك الشؤون ويذهب كثير من الجهود والأوقات والنفقات هدراً وهباء.

يضاف إلى هذا اعتبار كثير من الذين يتولون الحكم أن الدولة مزرعة لهم ولهم الحق في ادارتها والتصرف فيها تصرف صاحب المزرعة بمزرعته ، فيملأون دوائرها بالاقارب والاخصاء والانصار أو يختصونهم بما يعود عليهم منه المكاسب والمنافع مباشرة ومداورة . وليس من النادر أن تقرأ وتسمع خبر قيام مشروع من مشاريع الري والطرق والمعابر والاستملاك والمناقصات والمزايدات والمقاولات أو خبر صدور قرارات مانحة أو مانعة ثم يسفر الأمر عن أن هـذا قد جرى لخدمة الاقرباء والاخصاء . وهذا مايجعل الذين يتولون الحكم في بلادنا يتهالكون على الكراسي ويحللون الحرام ويحرمون الحلال ويناقضون أنفسهم ويخلفون وعودهم ويحنثون بإيمانهم في سبيل الاحتفاظ بها واذا اضطر بعضهم الى تركها قهراً فانه لا يتوانى لحظة واحدة في استهداف العودة والعمل لها بكل قوة ووسيلة وصفة ليستأنفوا تصرفهم المنبثق عن الاعتبارات الشخصية والحزبية في الدرجة الاولى واذا كان هناك استثناءات فهي نادرة جداً وتعد من الأحداث المثيرة .

— ٨ —

وتلعب الاقطاعية الاسروية والمالية دوراً كبيراً كذلك في هذا المجال حيث انها كثيراً ما تكون صاحبة الشأن والمرشحة في الدرجة الاولى للحكم بسبب ما يكون أصحابها عليه من المال والجاه والنفوذ والانصار . وهكذا يقوم على الحكم في ظروف كثيرة أناس متخمون مترفون أصحاب مصالح ومطامع خاصة قلما يشعرون بآلام الجمهور ومشاكله ومتاعبه الاقتصادية والاجتماعية ويكون كل همهم الاحتفاظ باقطاعيتهم ومصالحهم وتوطيدها والدفاع عنها وعرقلة كل مشروع قد يؤثر فيها من قريب أو بعيد ، والتفنن في أساليب استغلال الحكم لأنفسهم وذويهم وانصارهم وأخصائهم . وكل منا يعرف أن في مجالس النواب ودواوين الحكومة مشاريع قوانين عديدة مهمة وخطيرة في باب الاصلاح والانشاء والتحسين تنام السنين الطوال بسبب ما تضعه هذه الطبقة في طريقها من عثرات وعراقيل . وكل

منا يعرف أن هناك قوانين وأنظمة مقررة معطلة أو شبه معطلة، أو معطلة في حق فريق نافذة في حق فريق آخر بسبب تدخل هذه الطبقة .

وفي كل معركة انتخابية تجري في بلادنا تبذل الأموال الطائلة حتى ليقدر ما يبذل فيها وخاصة في مصر بملايين من الجنيهات وحتى ليبذل المرشح ثلاثة أو أربعة أضعاف ما سوف يتقاضاه من مرتب النيابة طيلة مدتها الكاملة ... وليس لهذا الا تفسير واحد وهو حرص الاقطاعيه الاسروية والمالية على اشغال مناصب الدولة وكراسي الحكم واطمئنانها الى أن ما يعود عليها من ذلك سيكون أضعافاً مضاعفة .

وقد غدت الحياة النيابية في بلادنا بسبب ذلك مسخاً مشوهاً لا يكاد يعدو نصيبنا منه المظاهر والشكليات واشباع رغبة الكلام والتبجح . والحكومات التي تشرف على الانتخابات النيابية تتدخل في الأعم الأغلب فيها وتوجيهها الى حزبها الى جانب الدور العظيم الذي يلعبه المال فيها كما قلنا قبل . ويغدو كثير من النواب لا يهمهم إلا ضمان مصالحهم واسترداد ما بذلوه من مال وجهد أضعافاً مضاعفة فيتزلفون من أجل ذلك الى الحكومة القائمة مهما كان لونها ويمنحونها الثقة مقابل ما تقضيه لهم من مطالب ورغبات خاصة . وهكذا تضمن الحكومات استمرارها في الكراسي بالتواطىء مع النواب . ولم يكد يسجل في حقبة ربع القرن التي مارست فيها البلاد العربية هذه الحياة أن أسقط مجلس نيابي حكومة ما مهما كان لونها بسبب هذا التواطىء . وإذا كان يدخل أحياناً الى مجالس النواب رجال من غير هذه الطبقة لظروف محلية أو حزبية أو خارقة فانهم يظلون أقلية تذهب صرخاتها سدى أو يضطرون إلى الاندماج في الاكثرية الاقطاعية . هذا إلى ما اعتاده الملوك والرؤساء من التدخل في الكبيرة والصغيرة من شؤون الدولة والحكم وتكييفها حسب آرائهم أو بالأحري أهوائهم رغم ما تنص عليه الدساتير من عدم مسؤولياتهم ؛ ويجاريهم الوزراء في ذلك تزلفاً وخنوعاً ورغبة في الاحتفاظ بالكراسي . فكل هذا يعمل عمله في جهاز الحكومة وروحه وسيره،

ويعقّد المشكلة تعقيداً شديداً أو يجعل السير نحو الاصلاح والتقدم الاقتصادي والاجتماعي والعلمي والانتعاشي بطيئاً متعثراً .

— ٩ —

وتلعب الطائفية في لبنان بالدرجة الأولى والعراق بالدرجة الثانية دوراً كبيراً كذلك في هذا الجهاز . فالطائفية في لبنان أساس كل مظهر من مظاهر الدولة ومشاريع الحكومة ومناصبها . وتوجب هذه النزعة التي قوّتها السياسة الافرنسية الاستعمارية الهادفة الى اشغال أهل لبنان بالتناظر والتنافس المحلي وابعادهم عن نطاق الوحدة القومية والوطنية العامة ان يكون التوازن مرعياً كل الرعاية في تلك المشاريع والمناصب . وكثيراً ما أدّى الأمر إلى توسيد الأعمال والمناصب الرفيعة وغير الرفيعة إلى أناس ليس لهم ميزة إلا أنهم من الطائفة التي يجب أن يكون لها نصيب معين في الأعمال والمناصب ؛ وقد قويت هذه الروح مع الزمن حتى صار كل موظف يعتبر نفسه ممثلا لطائفته ومن واجبه قبل كل شيء أن ييسر مصالح هذه الطائفة ويرعى منافعها ومآربها دون مبالاة بمصالح الطوائف الأخرى مع أن المنطق والمصلحة يوجبان أن يكون الشخص الأصلح في المكان الأصلح وحسب، وأن يعتبر القائمون بشؤون الحكم والأعمال الحكومية للجميع لا لطائفة خاصة ولا لملة خاصة ولا لحزب خاص . وقد حوولت محاولات متنوعة لتخفيف هذه النزعة الوبيئة فكان نصيبها الاخفاق بسبب معارضة رؤساء الطوائف الدينيين وغير الدينيين لأنهم يرون في بقائها ضماناً لمآربهم ومنافعهم وسلطانهم . وشيء من هذا واقع في العراق لأن المسلمين الذين هم كثرة سكانه الكبرى منقسمين إلى سنيين وشيعيين ؛ وكل منهم مناظر للاخر ويرى من حقه أن يكون له نصيبه المتناسب مع عدده في مشاريع الحكومة ومناصبها وسائر مظاهر الدولة بقطع النظر عن المؤهلات والمنطق والمصلحة العامة . وقد حوولت هنا أيضاً محاولات متنوعة لتخفيف هذه النزعة ، وبرغم أن الحالة آخذة بالتحسن

وأن هناك فرقاً كبيراً في شدة التزام النزعة بين العراق ولبنان فانها مازالت تلعب دورها الكبير في نطاق جهاز الحكم العراقي .

— ١٠ —

ومما يلعب دوراً خطيراً في تعقيد المشكلة كذلك الحياة الحزبية الراهنة في بلادنا التي تكون الاعتبارات الشخصية ناظمة لها في الأعم الأغلب مما هو سر كثرة الأحزاب عندنا مع تماثلها وتقاربها في المناهج والغايات ، وسر ما ترتكس فيه من الارتكاسات المتنوعة . ولانستثني من هذا تلك الاحزاب التي يبدو عليها من حيث التسمية والمنهج انها قامت على فكرة ودعوة معينة ، سواء أكان ذلك في مجال المبادىء والنظم الاقتصادية أم الاجتماعية فان كثيراً منها متماثل في الخطط والاساليب وفي التسمية كما ان الاعتبارات الشخصية فيها بارزة بروزاً قوياً حتى لتكاد تكون الفكرة قد جعلت وسيله او تكأة لقيامها بحيث تكون جهود الحزب ونشاطه وقوته منوطة بالشخص او الاشخاص البارزين الذين انشأوه وبحيث يكاد يكون هدف هذه الجهود والنشاط هو بروز هـــذا الشخص او الاشخاص . والاحزاب التي قامت على دعوة او فكرة وتوخت العمل القومي او السياسي او الاجتماعي لذاته قليلة جداً . وقد ظلت ضيقة النطاق محدودة النشاط لانه يعوز القائمين بها الايمان والاستغراق والمطمح الاعلى والوسائل ، وقل ان سلمت مع ذلك من تأثير الاعتبارات الشخصية .

والمستعرض لظروف الحركات السياسية والنضالية وحركات الاحزاب ونشوءها وانشقاقاتها في بلادنا يرى انه قد عاد منها على القضايا القومية افدح الاضرار وان مامنيت به الجهود السياسية والنضالية في سبيل هذه القضايا من اخفاق وعدم جدوى وعدم انتفاع من ما كان من روائع البطولة وجسيم التضحيات التي كان يبديها الشعب حينما تتقد حماسته ؛ وان ما كان من تمكن المستعمر من الاحتفاظ بمركزه وسيطرته ونفوذ دسائسه ومكائده ونجاحه في تفريق الصفوف واضاعة

ثمرات الجهاد والضحايا ، كل ذلك يكاد يكون بسبب مكايدات الاحزاب وتجاذبها وتدافعها وأنانية القائمين بها واعتباراتهم الشخصية . وهذا فضلاً عما يرتكس فيه جماعات الاحزاب وصحافتها من ارتكاسات ترخص فيها الاعراض وتختل فيها موازين الاخلاق وتهون فيها الكرامات وتسود فيها الصفحات ويبدو فيها من كريه المشاهد وبشع المناظر وشديد العداء والجفاء والقطيعة والأذى بين ابناء البلد الواحد بل بين ابناء الاسرة الواحدة مما لايدخل تحت اي ضابط من عقل ومنطق وخلق وكرامة وصدق وامانة شفاءً لحزازات النفوس وسخائم الصدور وتأثراً بالاهواء والاعتبارات والمصالح الخاصة مما كان منه صور اليمة جداً في مصر وسورية وفلسطين والعراق ولبنان . وتبعاً لذلك اصبح الوصول الى الحكم لاجل الحكم نفسه هو الهدف الاول لجهود هذه الاحزاب ونشاطها وتنافسها . وقل ان توخت في تشكيلاتها ايقاظ الشعب وتنويره واصلاح شؤونه . واذا ما كان لحزب فرصة في التوسع في التشكيلات والنفوذ الى الشعب بسبب موقف من المواقف اوظروف من الظروف او بسبب نشاط القائمين عليه ومطامحهم فيكون كل همه استغلال الفرصة ضد الحزب الآخر او الحكم القائم حتى اذا استلم الحكم نسي كل ما كتبه في منهجه من مبادىء وخطط وما وعد به من وعود طويلة عريضة وما كان ينعيه عن الحزب الحاكم من اخطاء وعيوب ، واخذ ينتفع من ظروف الحكم وينفع انصاره بما تسعه قوته ووقته وطاقته ، وتتخذ الاحزاب الاخرى حينئذ خطة التربص والتجريح والتشهير والطعن واللمز واغداق الوعود واستغلال الفرص حتى اذا آل الحكم لواحد منها سلك نفس الطريق الذي سلكه من قبله ...

وقلما وجه نقد للحزب القوي اوالحزب الحاكم في بلادنا بنية حسنة وبقصد الاصلاح والتقويم من جانب الاحزاب الأخرى . وقلما قابل الحزب القوي او الحزب الحاكم نقداً او معارضة بصدر واسع ايضاً . وقلما اعترف حزب معارض بما قد يصدر عن الحزب القوي او الحزب الحاكم من اعمال ومواقف ومشاريع فيها نفع ومصلحة وخير . والشعور القوي بين احزابنا يتمثل في كون الحزب

المعارض عدواً للحزب الحاكم او الحزب القوي يتربص به الدوائر ويثير ضده الكراهية ويبذل جهوده في هدمه للنكاية وشفاء النفس ، وفي كون الحزب القوي او الحزب الحاكم ينظر الى الحزب المعارض بنفس النظر فلا يألو جهداً في اضطهاده وتجريحه ونشر الدعايات والمطاعن والمغامز ضده وسد المنافذ عليه وتعطيل مصالح افراده وأنصاره . وكثيراً ماأندمجت الأسر والحمولات برمتها في هذه العواطف العدائية المتقابلة او اثيرت الأسر والحمولات برمتها وحملت على الاندماج فيهـــا ، وغدا الامر بين جماعات الاحزاب عصبية قبلية جاهلية يستباح بتأثيرها وفي ظلها مالا يجوز من مال وعرض وملك ومصالح بل ودماء وظلم وعدوان وتزوير ...

ولقد تقلب مختلف الاحزاب في بلادنا التي يقوم بها الحكم النيابي الحزبي على الحكم بحيث يقال ان الاحزاب جميعها قد تولت الحكم ، كما تقلب مختلف الاعمار عليه من الشيوخ والشبان ومارسه كذلك رجال اتصفوا بالاستقلال عن الاحزاب ، ومع ذلك فانه لم يكد يطرأ تحسين مهم يمكن ان يكون سبيلا الى الغاية المنشودة ولم تتبدل الروح التي تسيطر على الحكم وجهازه في اي عهد تبدلا ذا بال مما ينطوي فيه شدة العقدة وعمقها ومما يبرر القول انها عقدة خلقية وبنيوية .

ونقول والاسف يحز القلب ان من أهم علل تشكيلاتنا وحركاتنا الحزبية والسياسية والحكومية وتعثرها عدم ظهور زعماء اقوياء عباقرة مؤمنون في بلادنا تؤهلهم مواهبهم وايمانهم للقيادة الصالحة المصلحة التي تنفخ في الروح فتبدلها وتثير القوى الكامنة في رجال البلاد وجمهورها فتجعلها تكتسح مافي طريقها من عقبات وتسير قدماً في سبيل الاصلاح او الانقلاب المنشود . وجل الذين برزوا على مسرح السياسة والحكم والحزبية في بلادنا عاديون في مواهبهم برغم ما يمكن ان يكون بعضهم عليه من ثقافة علمية وفنية وغيرة وطنية وقومية وصلابة في العقيدة . ويفسر هذا ماقلناه من عدم ظهور اثر لهم في جهاز الحكم وروحه رغم تقلب مختلف الفئات والاحزاب والاسنان على الحكم .

والمشكلة ليست هينة من دون ريب لانها كما قلنا متصلة ببنية الامة الضعيفة في مختلف قواها وتشكيلاتها المادية والادبية والثقافية والخلقية والمرانية. غير ان اليأس غير جائز وغير مؤد الى نتيجة ايجابية بطبيعة الحال. وهذا فضلا عن انه لامحل لليأس والتشاؤم في الحقيقة ؛ لان الامة العربية على كل حال متحركة نحو الامام في مختلف النواحي اذا ما قيس حالها الحاضر بحالها قبل ثلاثين او أربعين سنة.

ومها كان الوعي الآن سلبياً وجامداً في سوادها الاعظم فانه ضد هذه النقائص والانحرافات، راغب أشد الرغبة في التطهير والاصلاح والتحسين، ومستعد لتلبية اي دعوة صادقة مخلصة الى الاصلاح وتعضيد كل من يتقدم اليه ويقوم باي حركة تجديدية وانقلابية وتطهيرية بسبيله. ومن الواجب على كل واع قادر من شبابنا وصحفيينا ووعاظنا وكتابنا واساتذتنا وخطبائنا وهيئاتنا ورجالاتنا أن يشتدوا في الدعوة الى التطهير واصلاح النقائص والسير المخلص الصادق في طريق التقويم والتحسين وان يشجعوا كل حركة تهدف الى ذلك وان يعضدوا كل من يبدو عليه القابلية والاستعداد له وكل من يتقدم اليه دون التأثر بأي اعتبار.

بواعث الانقلابات السورية والمصرية واللبنانية وخطواتها

-١١-

ولقد كان معظم ماذكرناه من الذرائع التي تذرع بها الجيش السوري الى القيام بحركته الانقلابية في شهر مارس ١٩٤٩ ثم بحركاته الاخرى التي كانت تتمة وتصحيحاً لها لأنها انحرفت عن القصد ولم تحقق الأمل المنشود. وهذه الحالة نفسها كانت كذلك الذريعة التي تذرع بها رجال الجيش المصري الى القيام بحركتهم الانقلابية في شهر تموز ١٩٥٢ ؛ مما فيه دلالة على قوة التململ والتذمر في الشعوب

والبلاد العربية من هذه الحالة السيئة والرغبة في الخلاص منها . ويزيد في هذه الدلالة ان الشعوب العربية قد قابلت هذه الحركة بكل ابتهاج واغتباط وتأييد .

ولقد كانت حركة المعارضة القوية في لبنان التي توجت بالبيان الجريء الذي القاه رئيس الوزارة سامي الصلح وضمنه تقريرات رسمية خطيرة عن استشراء الفساد وأسبابه ، والتي أدت الى الاضراب العام ثم أدت الى نوع من الانقلاب باستقالة رئيس الجمهورية تعبيراً قوياً عن ذلك التململ والتذمر .

ونحن من المستبشرين المغتبطين بهذه الحركات . لان الحالة السيئة التي وصفناها لا يمكن اصلاحها الا بحركات انقلابية جريئة يكون هدفها القضاء على الفساد المستشري في نظام الحكم وجهازه وروحه الوانية ، وتخفيف التفاوت العظيم بين طبقات الامة ان لم نقل ازالته ، وانقاذ اكثرية الامة العظمى من الهوة السحيقة التي ترتكس فيها ، والاصلاح والتطهير والتحسين في مختلف شؤون الدولة الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية والثقافية والقروية والعمالية والحزبية والنيابية بخطوات سريعة وحازمة يختصر بها الزمن ، ولا تقف الاشكال والتقاليد والمفاهيم الراهنة في طريقها وتكون نزيهة مجردة من المطامع والمآرب الخاصة .

ولقد اصدر القائمون بحركات سورية ومصر في برهة وجيزة كثيراً من التشريعات الاصلاحية المهمة في مختلف الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتنظيمية والاصلاحية مما بحثناه واقترحناه في الفقرات والفصول السابقة ؛ كما اخذوا يسيرون في سبيل تنفيذ هذه التشريعات ، وتحقيق كثير من المشروعات وانجاز كثير من الوعود مما يبعث في النفوس الآمال بالتحسن والاصلاح المنشود بعد فترة من الوقت اذا ماواصلوا نشاطهم ونفذت التشاريع حققت المشاريع وانجزت الوعود .

ومما يثلج الصدر انهم أكدوا بمختلف الاساليب والمناسبات ان هدف الاصلاح والتطهير والتحسين في مختلف شؤون الدولة بسرعة وحزم هو هدفهم ،

وانهم تجردوا عن كل ما يسيء الى هذا الهدف القومي من المآرب والنزوات الخاصة ، وانهم ليسوا بسبيل فرض ديكتاتورية شخصية ، وان الاسلوب القائم ليس إلا مرحلة انتقالية لا بد منها سيعقبها حياة نيابية سليمة الأساس والبنيان ، كما ان بياناتهم وتصريحاتهم تدل على انهم يصدرون فيما يقولون ويفعلون عن وعي وادراك واخلاص .

ولقد دعا رجال العهد في القطرين الى حركة جديدة باسم حركة التحرير ووضعوا لها منهجاً قومياً واصلاحياً شاملاً احتوى جميع الأهداف التي يتحقق بها بعث دولة قوية في بنيانها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعمراني والدفاعي، مضمون فيها الحريات المتنوعة هادفة الى توفر أسباب الحياة الكريمة المعقولة والصحة والعلم لجماهير الشعب في المدن والريف على أساس حكم نيابي سليم ؛ متوخين جعلها حركة شعبية قومية عامة يتضامن أفراد الأمة على اختلاف فئاتهم في تحرير البلاد مما يعيقها من عوائق ويشوبها من شوائب داخلية وخارجية واجتماعية واقتصادية لتحقيق تلك الأهداف السامية ؛ وقد أخذ آلاف الناس من مختلف الفئات والميول تقبل على هذه الحركة المباركة ان شاء الله وتندمج فيها مما يدعو الى الاستبشار والاغتباط .

واننا لندعو الله أن يثبت القائمين بالحركات الانقلابية في عزائمهم ويسدد خطواتهم ، ويجنبهم المآزق والنزوات ؛ واننا لنتمنى أن يتضامن ذوو الشأن والدراية في تحقيق الأهداف الاصلاحية التي تستهدفها هذه الحركات ؛ وأن يندمج الجميع في مفهوم وروح الثورة الانقلابية التجديدية التي بها وحدها يستطاع اختصار الزمن والتغلب على كل عثرة في طريق تلك الأهداف ؛ وان تشتد دعوة الواعين الى ذلك ؛ وان تسري هذه الروح التجديدية الانقلابية الى البلاد العربية الاخرى حتى يتم الانسجام والاتفاق فيما يجب أن تسير عليه الأمة العربية من خطوات عاجلة وجريئة بسبيل الاصلاح والتحسين . في هذا العلاج القوى الناجع للحالة السيئة التي ترتكس فيها امتنا وبلادنا ، وايذان للعالم بأن الامة العربية أخذت تجد في سبيل الحياة الصالحة العزيزة الكريمة .

ولقد يسرت الحركة الانقلابية المصرية سبيل التضامن والتعاون والانسجام بين مصر وسوريه خاصة لأنها غدتا تشتركان في طبيعة النظام والاسلوب والهدف والحافز. فعلى الواعين المخلصين من ابناء البلدين ورجال عهدهما أن يستفيدوا من فرصة هذا التشارك بأوسع مقياس ، وان يتسقوا ويتضامنوا فيما يعتزمونه من خطوات اصلاحية في مختلف الشؤون ، بل وان هذه الفرصة لتسمح لهم بتوثيق صلات البلدين توثيقاً أقوى مما هو قائم بينهما وبعبارة ثانية توثيقاً اتحادياً اقتصاديا وسياسياً وعسكرياً وثقافياً وتشريعياً واجتماعياً ليكون نواة الاتحاد العربي العام الذي هو غاية وضرورة معاً للبلاد العربية والشعوب العربية ، والذي كانت الحالة السائدة قبل الانقلاب من الاسباب الحائلة دونه . ومما لا شك فيه انهم سيؤثرون فيما يعملونه في هذا المجال في سائر البلاد العربية ويجعلونها تجاريهم وتسير معهم فيه .

ولقد انتخب لرآسة الجمهورية اللبنانية نتيجة للحركة التي أشرنا اليها كميل شمعون الذي كان من قواد المعارضة للفساد المستشري في جهاز الحكم وروحه وفي سائر أوضاع الدولة ومن طلاب الاصلاح ، والذي عرف الى هذا بنشاطه وروحه العربية القومية وسخطه على ما يرتكس فيه لبنان وسائر بلاد العرب من اوضاع سيئة في مختلف النواحي . وقد دشن عهده بخطاب قوي وعد فيه بالسير في خطة إصلاحية وتطهيرية وتجديدية شاملة وتحسين حالة الشعب وتحقيق العدالة الاجتماعية وخلق شعب واحد تسود فيه الوحدة الوطنية وتزول منه النزعة الطائفية ؛ والسير في سياسة عربية قومية عامة ترفع من هيبة العرب وتحقق أهدافهم في مختلف قضاياهم ؛ مما يبعث في النفس الأمل في أن يندمج لبنان فيما دعونا اليه سورية ومصر من الانسجام والتضامن والانتفاع من فرصة التشارك في الحافز والهدف بأوسع مقياس . وعلى الواعين المخلصين في لبنان أن يشتدوا في الدعوة الى ذلك .

-١٢-

هذا ؛ ومن المسائل الجديرة بمزيد الاهتمام والعناية والتي يمكن ان تكون وسيلة قوية وناجعة لاصلاح جهاز الحكم وروحه تزويد دوائر الحكومة بالخبراء الاجانب الصالحين . فمها تكن ثقافة الموظفين العرب وفنهم وخبرتهم فان روح النظام والتنظيم والانتاج والتنفيذ وحسن استعمال الوقت والوسائل مما ينقص كثيراً منهم لأن ذلك كله مظهر من مظاهر الخلق والروح والمران أكثر منه نتيجة تعليم سريع . ودليل ذلك انه أصبح في دواوين الحكومة وأعمالها عدد عظيم ممن حصلوا على أحسن الشهادات من الجامعات العربية والغربية في مختلف العلوم والفنون دون أن يكون لذلك أثر كبير وناجع في تبدل روح الجهاز الحكومي . فنحن والحالة هذه في حاجة الى خبراء لكل فرع من فروع العمل الحكومي ، لاعادة تنظيمها أولاً وبث روح النظام والتنظيم والانتاج والتنفيذ وحسن استعمال الوقت والوسائل ثانياً . ومن الواجب أن نستكثر منهم دون أن يهولنا عدد مها كان كثيراً لأن الحاجة شديده الى روح جديدة لا يبثها إلا من هي فيه خلقاً وروحاً ومرانا . هذا فضلاً عن الاحتمال القوي في أن يكون المال المبذول في هذا السبيل مثمراً من حيث ان تنظيم الخبراء سيقلل في الارجح عدد الموظفين ويزيد في الانتاج . وهنا مسئلة جديرة بالتنبيه وهي وجوب العناية الشديدة في اختيار الخبراء وعدم الانخداع بالمظاهر والالقاب اولاً والابتعاد عن نطاق الدول الطامعة والقادرة بقدر ما يمكن ثانياً .

نقول هذا ونحن نعرف ان حكوماتنا اخذت تستعين بالخبراء الاجانب ، غير ان هذا ما يزال في نطاق ضيق أولا ، وكثيراً ما عسرت أعمال الخبراء وجهودهم ومقترحاتهم من قبل الموظفين نكاية وحسداً وتبجحاً ثانياً ، مما يجب أن تشتد الدعوة الى اصلاحه والتنبيه عليه .

ومن الوسائل التي تخطر بالبال ان يعهد بالمشاريع الكبرى التي ترمي الى استغلال ثروات البلاد وتقوية انتاجها بل وبالشؤون التعليمية والعمرانية

والاجتماعية الى مؤسسات حكومية مستقلة لها صفات حكمية لضمان الاستقرار والاستمرار لها وعدم تأثرها بتيارات وتبدلات وازمات الوزارات والاحزاب والانتخابات على النحو الذي اقترحناه في صدد العناية بشؤون القرية والذي سارت عليه تركيا في نهضتها الاقتصادية الحديثة مما المنا به قبل . لان هذه المشاريع والشؤون تسير عادة وفقاً لخطط ومناهج مراحلية تستغرق مدة طويلة ، ويجب ان تكون الاداة القائمة عليها بمنأى عن تلك التيارات .

ومن أهم ماينبغي الاهتمام له بشدة وقوة في هذا المجال امر الامتيازات الاجنبية التي تجعل كثيراً من مرافق البلاد وثرواتها تحت سيطرة الشركات الاجنبية وتسمح لها باستدرار وافر الارباح مما لايعد ماتستفيده البلاد وخزينة الدولة منه إلا شيئاً تافها ، فضلا عما لها من آثار ضارة في السيادة والسياسة العربية القومية من حيث يدرى العرب ولا يدرون ، حتى كادت تكون نعم الله على البلاد العربية بسبب ذلك نقما وكاد يصير ماوهبها الله إياه من اسباب القوة والثروة والمركز الممتاز اسباب ذل وضعف .

فمن اوجب الواجبات ان تشتد الدعوة الى معالجة هذا الامر معالجة ناجعة وحازمة إما بتأميم هذه الشركات واستثمارها من قبل مؤسسات حكومية مستقلة وهو الافضل ، وإما باعادة النظر في شروطها بعد الدراسة الوافية وضمان معظم الربح والفوائد لخزينة الدولة وأهل البلاد وازالة كل قيد يمس بسيادة الدولة والمصلحة القومية من قريب او بعيد وابقاء هذه الشركات في نطاق المستثمر المالي المعقول . ولقد كان كثير من هذه الامتيازات ان لم نقل جميعه املاء وتحكما وفي ظروف قاهرة ، وحالة العالم تيسر امكان اعادة النظر فيها كان وضمانة حق الخزينة واهل البلاد في ثروات بلادهم وعدم استمرار استنزافها من قبل الاجانب في حين يقاسي اهل البلاد مايقاسون من بؤس وحرمان وضنك عيش وجهل ومرض ، وتقاسي خزينة الدولة ماتقاسيه من عنت وضيق شديدين . وليس من محل لتهيب الدول التي تقبع وراء هذه الشركات والتي لن تستطيع ان تعمل شيئاً غير التهويش الفارغ امام الجد والحزم .

ونريد أن نخص امتيازات النفط وأنابيبه بالذكر في هذا المقام . فان الله قد منّ على البلاد العربية بثروة نفطية هائلة من شأنها ان تؤثر في مجرى سياسة العالم جميعه سلبا وايجابا . ولقد كان من شأنها أن تكون أقوى وسيلة إلى حل قضايا العرب فضلاً عن أن تكون أعظم وسيلة إلى اصلاح شؤونهم الداخلية لو أحسن رؤساؤهم الانتباه واغتنام الفرص وتحلوا بالاراده والعزيمة والصدق والتجرد . ومع ذلك فظروف العالم وتطوره يسمحان للعرب في كل ظرف ان يستفيدوا من هذه النعمة أعظم فائدة حينما يجدون ويصدقون في الرغبة ويتجردون من الاهواء سواء في مجال نيلهم حقهم الطبيعي باعتبار انهم اصحاب الثروة وان الشركات ليست إلا صاحبة راس مال ليس له إلا الربح المعقول ، فيستولون على معظم الارباح وينفقونها على مشاريع الاحياء والعمران والاصلاح الكبرى ، وسواء في مجال السياسة العالمية الذي تجعلهم فيه ذوي شأن كبير يساعد على المساومة وحل قضاياهم القومية . ولقد آن لهم ان يجدوا ويعتزموا ويصدقوا في الرغبة ، وان تكون لهم سياسة نفطية موحدة وان يكون لهذه السياسة اداة في أمانة جامعة دولهم ، ومن الواجب أن تشتد الدعوة الى ذلك بقوة ودأب واستمرار . ونقولها ثانية ان من الواجب عدم تهيب الدول القابعة وراء هذه الشركات فلن تفعل الا تهويشا ولا ينبغي ان يؤثر هذا فينا اذا ما عزمنا وصدقنا الرغبة .

ومن تحصيل الحاصل ان نقول ان من الواجب ان تتشدد الحكومات العربية بعد الآن كل التشدد ازاء اي عروض شركات وامتيازات اجنبية وان لا تمنح اي ترخيص لأجنبي الا عند الضرورة الفنية والمالية وفي نطاق يضمن مصلحة الدولة من كل ناحية وبالنسبة للحاضر والمستقبل ، ولشركات من دول غير طامعة ولا ترمي الا الى العمل الاقتصادي لذاته ، وان عليها ان تضطلع هي بالمشاريع الاستثمارية الكبرى الزراعية والصناعية والمعدنية والكهربائية — والنقلية الخ على حسابها وبمساهمة الاهلين في رؤوس الاموال اللازمة وبادارة مؤسسات حكومية مستقلة على النمط الذي سارت عليها الحكومة التركية على ماذكرناه قبل . فهذا هو الذي

يمكن ان يتسق مع مصلحتنا القومية من ناحية سياسية ومن ناحية اقتصادية وفيه كل الخير والفائدة .

وليس من مانع من الاستعانة في تأسيس وادارة هذه المشاريع بخبراء من الاجانب بل انه واجب ولو لمـــدة من الزمن مع تفضيل من لا عت الى الدول الغادرة . وفي خلال هذه المدة يجب الاهتمام لتخريج شباب العرب بمقياس واسع في مختلف الفنون والعلوم والصناعات ليسدوا الحاجة ويتولوا انشاء وادارة الاعمال والمشاريع فنياً واداريا ويقتبسوا معجزات الغرب في مختلف مجالات العلوم والفنون ليحققوها في بلادهم وقد أثبت كثير منهم قابلياتهم العظيمة لهذه المهام .

وفي البلاد كما قلنا قبل برغم فقر جمهورها الاعظم طبقة ميسورة تستطيـــع ويجب ان تشارك في تمويل هذه المشاريع بمقياس واسع ، ويمكن أن يتم هذا اذا لم تستجب الدعوة الى المشاركة الحرة بطريق قروض وطنية إجبارية مقابل فوائد محددة وحينئذ تستقل الحكومات بالعمل .

وايراد المناطق العربية من الثروة النفطية السنوي عظيم ربما زاد مجموعه عن مئة وخمسين مليون جنيه ، وهو قابل للزيادة وخاصة بالنسبة للعراق . وطاقة بعض هذه المناطق أقل من أن تتحمل انفاق هذا المبلغ الضخم في مشاريع نافعة لقـلة السكان وضيق الرقعة وضعف الامكانيات الطبيعية . ويبذر بسبب ذلك قسم عظيم منه على أشياء كمالية وشخصية لا نفع فيها ولا دوام . وانه لمن الممكن والواجب معاً ان يسعى لدى رؤساء هذه المناطق ويطلب اليهم المشاركة الواسعة في ذلك أيضاً . وانه لمن الممكن ان يسد بنصف هذا الايراد السنوي الضخم الذي يحار أصحابه كيف ينفقونه ثغرة واسعة من حاجات البلاد العربية التي فيها امكانيات عظيمة لمشاريع اقتصادية متنوعة والتي ينقصها المال اللازم لها ، ويكون عوناً كبيراً على استغلال امكانياتها العظمى وخاصة على تصنيعها الذي هو مهم جداً وذو تأثير كبير في دعم نشاطها وحيويتها وقوتها ، وان من الواجب ان تشتد الدعوة الى ذلك . والمال بعد لا يطلب هبة ولا منحة وانما يطلب للتنمية والربح الذي يعود بالنتيجة

على أهل هذه المناطق بدلاً من تبذيره فيما لانفع أو لاخير فيه للأمة والبلاد العربية .

-١٣-

اما معالجة موضوع الاحزاب فالذي نراه هو وجوب اهتمام القائمين بالحركات الانقلابية والاصلاحية لجعل الفكرة والمبادىء وقصد التضامن فيها وتنظيم الجهود والاساليب في سبيل تحقيقها هو الناظم لها ؛ ولا مانع من ان يحولوا دون تعدد الاحزاب المتماثلة أو المتقاربة في مناهجها وأساليبها ، ودون التكتلات الحزبية التي لايكون سندها ومظهرها الا الاعتبارات الشخصية مما هو طابع معظم الاحزاب التي قامت في بلادنا ؛ بحيث يتيسر بذلك ان تكون الفكرة والمبادىء المميزة هي الناظمة وان يندمج الذين يكونون قانعين بالفكرة والمبادىء في الحزب سواء اجمعتهم مع مديري دفته ومؤسسيه جامعة من معرفة أو صداقة ام لم تجمعهم .

ونذكر هنا على سبيل المثال الافكار التي يحسن ان تقوم الاحزاب عليها في بلادنا وتمايز :

١ — ففي الدنيا فكرتان متنازعتان احداهما الاشتراكية على اختلاف مداها وثانيتهما الفردية الاقتصادية أو الحرية الفردية الاقتصادية . ولكل منهما انصار مؤيدون ومستندات واقعية ونظرية . فيصح ان يكون في البلاد العربية حزب اشتراكي وآخر حر اقتصادي فيكون الفرق بارزاً ومفهوماً بين هذين الحزبين فيؤيدهما الناس بالانتماء والتعضيد عن علم وبينة .

٢ — ومهما يكن مفهوماً من ان مسائل العامل والفلاح والاصلاح الاجتماعي مما تتناوله مناهج هذين الحزبين وخاصة الاشتراكي فان حالة العامل والفلاح وضعف المنشئات الاجتماعية مع شدة الحاجة اليها في بلادنا تتحمل ولو لامد محدود ان يكون حزب اجتماعي اصلاحي يتفرغ لهذه الناحية ويبذل جهوده في سبيلها .

٣ — وبالنسبة لدنيا العروبة هناك فكرة الوحدة الشاملة التي تهدف الى وحدة الدولة وهناك فكرة الاتحاد مع احتفاظ الدول العربية الراهنة بكياناتها الذاتية

في مجال السلطان الداخلي . فلا مانع من ان يكون لكل من يقول باحدى الفكرتين كتلة حزبية خاصة .

٤ — وهناك فكرة وجوب توطيد الحياة النيابية على اوسع مداها كما ان هناك فكرة الاقتصاد في ذلك بحيث يكون للسلطات التنفيذية صلاحيات واسعة بعض الشيء . وكل منها مستند الى مؤيدات نظرية وواقعية . فلا مانع من ان يكون لكل من يقول باحدى الفكرتين كتلة حزبية خاصة .

٥ — وهناك كذلك من يرى النظام الملكي والادارة المركزية هما الاصلح لشكل الحكم والادارة في البلاد العربية في حين ان هناك من يرى النظام الجمهوري واللامركزية هما الاصلح . وكل منها مستند كذلك الى مؤيدات نظرية وواقعية . فلا مانع من ان يكون لكل من الفكرتين كتلة حزبية خاصة ايضاً في الدول التي لا تزال تسير على النظام الملكي والمركزية الادارية .

ولا يؤخذ من هذا التعدد ضرورة تعدد الاحزاب بنفس النسبة . فمن الممكن ان تكون هذه الفكر المتضادة مجموعة في حزبين أو ثلاثة مثلاً .

وننبه على اننا شخصياً لا نؤيد الحرية الاقتصادية الفردية على اطلاقها كما اننا لا نؤيد فكرة الحياة النيابية على أوسع نطاقها ولو لمدة محدودة من الزمن على الاقل . ونعتقد ان الحياة النيـــابية المحدودة التي تسمح للحكومات بسلطات واسعة هي الافضل الآن بسبب حاجة البلاد العربية الى الاستقرار والاسراع في الخطوات الاصلاحية والتجديدية مما قد يتعثر بالشكليات البرلمانية المعروفة ثم بسبب ما رأيناه من مشاهد الانتخابات النيابية والمجالس النيابية في بلادنا والتي لم تكن تلك الحياة عندنا بها الا تقليداً مسيخاً مشوهاً ادت في الاعم الاغلب الى استشراء الفساد في الحكم والاستغلال السيء وتعثر المشاريع والرغبات الاصلاحية . والافضل ان يكون النظام النيابي جامعاً بين حق رقابة الامة على السلطات التنفيذية وبين تمتع هذه السلطات بصلاحيات واسعة لا تقيدها إشكالات الحياة النيابية وشكلياتها على ان يوضع ضمانات للتوازن بين سلطات الدولة بحيث يحاط الحق في نزع الثقة من

الوزارة باوضاع وقيود من شأنها ان تجعل مركز الحكومة غير مزعزع حتى تقوى على احتمال مسؤولياتها في اعمال الاصلاح الواجبة ، وبحيث يكفل استقرار السلطة التشريعية فلا يكون البرلمان عرضة للحل لأتفه الاسباب، وبحيث يكفل مبدء سيادة الدستور وسيادة القانون وذلك باقامة رقابة قضائية نافذة على دستورية القوانين التي تسنها السلطة التشريعية وعلى شرعية القرارات التي تصدرها السلطة التنفيذية .

ولا يعني شيء من هذا ان تكون حرية الرأي والنقد والنشر والاجتماع والعمل ضيقة محدودة . بل يجب ان تكون في كل حال مطلقة اطلاقاً تاماً لا يقيدها الا حرية الغير وحقه وكرامته والمصلحة القومية العليا .

ومن ناحية النظام الاقتصادي فالذي نعتقده ان الاشتراكية المعتدلة الوطنية هي خير المناهج ؛ ونعني بها التي تهدف الى إزالة أو تخفيف الفروق العظيمة بين الناس في الثروة والملك والمراتب الاجتماعية وحق الاستمتاع بنعم الله في كونه على التساوي ، والمساواة التامة الفعلية في الحقوق والواجبات العامة ، وسيطرة الدولة على المرافق والمنشآت العامة التي لها مساس بمصالح الجمهور وحياته بقصد التيسير والتخفيف عن الجمهور ، والحيلولة دون استغلال العمال والفلاحين واضطهادهم وارهاقهم ، وتوفير أسباب العلم والصحة والعمل والحياة المعقولة لكل الطبقات ، وكفالة العاجزين عن الكسب من الشيوخ والاطفال والمرضى على ما رسمناه في سياق الكلام عن الشيوعية ؛ ومما هو من تلقينات القرآن وملهماته ، ومما نعتقد انه العلاج الوحيد الذي يمكن ان تستقر به البشرية وتقر عينها بالهدوء والرضاء . ومهما ساق اصحاب النظرية الاقتصادية الحرة من حجج فلن يستطيعوا ان يقنعونا بصواب نظريتهم لأنها تصطدم مع حقيقة الواقع من كونها تؤدي الى تجمع الثروة في أيدي فئات قليلة وبقاء السواد الاعظم في حالة الحرمان مهما كان هناك اختلاف في مدى هذه الحالة . واذا كنا نرى حياة العامل والفلاح حسنة ومستواهما مرتفعاً في بعض الدول وقد نالا عناية كبيرة من الحكومات وأصحاب الاعمال في

الظروف الاخيرة فان الذي نعتقده ان ذلك انما هو استجابة بوجه ما الى الدعوة الاشتراكية او الرغبة في تفاديها وليس ذلك اصيلاً في طبيعة النظرية التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الفردي .

وقد قيدنا الاشتراكية التي نفضلها بالمعتدلة الوطنية احترازاً مما توسوس به الشيوعية من التنكر للكرامة القومية والمصلحة القومية والتقاليد القومية ومن محاربة الملكية والحيازة اطلاقاً ومن تسخير الفرد تسخيراً شديداً حيث نرى في هذا كله محاولة غير مجدية لتعديل الطبائع البشرية أو بالأحرى لتعديل الغرائز ؛ واهداراً للقوى والمواهب البشرية دون ضرورة ولا مبرر ؛ وأكره مانكرهه في هذه الاشتراكية الشيوعية انها دعوة أجنبية وأن الذين يندمجون فيها من العرب وغير العرب ينسلخون من قوميتهم وما تستلزمه من مقتضيات ويسيرون بوحي موسكو سلباً وايجاباً مها كان في هذا الوحي من مفارقات ومغالطات ومناقضات على ما ألممنا به باسهاب اكثر في أحد الفصول السابقه .

اما من ناحية شكل الحكم والادارة فالذي نعتقده ان النظـــام الجمهوري واللامركزية هما الاصلح . وقد كان ذلك النظام هو شكل الدولة الاسلامية بعد النبي عليه السلام ، وكان عهده مضرب المثل في العدل والاستقامة ومصلحة الشعب. وسلسلة المآسي الدامية المتصلة الحلقات في تاريخ العرب والاسلام انما كانت بسبب الملكية التي كانت الأنانية والاعتبارات الشخصية والاهواء الفردية هي كل شيء فيها بالأعم الأغلب . واذا كان تنظيم وراثة العرش قد خفف من بلاء المنافسات والمكايدات فانه لم يغن شيئاً في صدد ولاية الصالحين خلقاً وعلمـاً واخلاصاً حيث ظل ذلك رهن الصدفة وحيث ظل الباب مفتوحاً لتولي الأغرار والأغبياء والفاسدين لأنهم ورثاء الملوك الراحلين وحسب ؛ هذا فضلاً عن التكاليف الباهظة التي تحملها الملكية للشعب في نفقاتها ودبدباتها وقصورها ثم فضلاً عن دسائس الملوك وجنوحهم الى الطغيان والتحكم . والقول بان النظام الملكي أضمن للاستقرار قول جزاف . فمها تكن الانتخابات للجمهورية فانها انما تكون

في كل بضع سنين مرة . ويكفي للتدليل على كونه جزافاً ان الذين يقولون به لايقولون بالغاء الحياة النيابية بسبب ما في انتخاباتها من اثارة مع أنها عامة تتأثر بها جميع البلاد . ومهما كانت الانتخابات فان نتيجتها تكون على الغالب شخصاً ممتازاً ناضجاً لايخلو من مزايا خلقية وعلمية وقومية ؛ وهي على كل حال اضمن دائماً من الوراثة لتولي الأصلح لرآسة الدولة كما هي التعبير الحاسم لسيادة الأمة الذي يتجدد من حين لآخر . والخلاص من الرئيس المنتخب اذا ظهر فساده اسهل بكثير من الخلاص من الملك . ومن الممكن تفادي الهزات وضمان الاستقرار بجعل مدة رآسة الجمهورية طويلة أو مدى الحياة مثلاً كما كان الأمر في جمهورية الخلفاء الراشدين التي هي التقليد الاسلامي الاول الواجب احتذاؤه في نظـــام الحكم في الدول العربية . أما الادارة المركزية فمن شأنها ان تشل البلاد وتعرقل حركتها الاقتصادية والعمرانية بسبب سيطرة المركز وما تؤدي اليه من مطل واهمال وما قد تفسح له من مآرب ومحاباة وشهوات ..

الفصل الثاني

المشاكل السياسية

- ١ -

١) علاقات الدول العربية ببعضها .

قد تكون هذه المشكلة رأس تلك المشاكل وعقدتها . فليس خافياً ان علاقات الدول العربية ببعضها لا تقوم على ما يجب ان تقوم عليه من التواثق والتضامن والتعاون والانسجام والصراحة والمودة ، وانه يسودها أحياناً كثيرة تخاذل وتراخ وشكوك وتنافس وجفاء ومكايدات وتعسيرات تعود على العرب ومصالحهم وكراماتهم بأشد الاضرار وتكون من أشد العثرات في سبيل قوتهم وتقدمهم .

وعقدة هذه المشكلة هي السياسية الاقليمية والشخصية التي تسيطر على تلك العلاقات وتنظمها وتحول دون صدق التعاون والتواثق وتحفز بعضها للتربص بالآخر والكيد له أو عدم الاهتمام لمصالحه بصدق واخلاص وجد .

فالبعض يحسب حساب قوة البعض الآخر واشتداد نشاطه وتحسن أحواله وقوته ويرى في ذلك تهديداً أو خطراً عليه فلا يتورع عن اقامة العراقيل وبث الدسائس والمكائد في سبيله حتى يظل متعثر الخطوات في المجال السياسي والاجتماعي والاقتصادي . والبعض يرى ان مصلحته الخاصة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

تقضي بأن لا يندمج مع غيره اندماجاً قويا حتى لا تضيع شخصيته ولا تتأذى مصلحته الاقليمية فيقف عثرة في سبيل أي حركة أو دعوة او رغبة اندماجية وتواثقية وتعاونية . والبعض يرى في اندماج بعض الاقطار ببعضها اندماجاً قوياً وصادقاً ، اضعافاً لمركزه وشخصيته فلا يتوانى في احباط أي حركة من مثل ذلك بأي وسيلة يقدر عليها . والبعض يسير في علاقاته ببعض الدول الكبرى سراً وعلانية على غير مايحب البعض الآخر بل وعلى غير ما تقتضيه مصالح العرب **ويقررونه في اجتماعاتهم الرسمية العامة** ، ولا يبالي بالوقوف موقف الخاذل أو الناقض أو المعطل ...

-٢-

والمتتبع لسير وظروف كارثة فلسطين الحاطمة التي سجلت على العرب عار الأبد وأذلتهم في عيون أهل الأرض وسمحت لأذل أمة في الارض أن تزهو عليهم وتهزأ بهم وتدعي كذباً بأنها كسرت دولهم السبع ، وتفعل بفلسطين وأهلها الأفاعيل ، وتظل تعتدي عليهم الى الآن بمختلف الصور والاساليب وتكيد لهم ، ولا تبالي بهم في كثير ولا قليل يجد ان السياسة الشخصية الاقليمية واعتباراتها كانت سبباً قوياً بل السبب الأقوى فيها كما أنها لم تزل السبب القوي لمنع العرب من الأخذ بالثأر وغسل العار مع قدرتهم على ذلك .

فقد كان التضامن والتعاون والتواثق مفقوداً بالمرة في الحرب المسرحية الهزيلة التي أقدمت عليها الحكومات العربية بتأثير تلك السياسة بينما كانت تقضي بذلك ابسط البداهة لأنها حرب واحدة الغاية والحافز من جهة وكانت نتيجة لقرار اشترك فيه الجميع من جهة اخرى . وظل هذا التضامن والتواثق والتعاون مفقوداً بتأثيرها في مراحل الحرب الفلسطينية التالية حتى بلغ ذروته الأليمة المحزنة في ظروف معارك النقب وضم فلسطين ومفاوضات الهدنة المنفردة وعقدها واستمر مفقوداً الى الآن في جميع ماله صلة بهذه القضية الشهيدة ، واستغله اليهود وأعداء العرب أوسع استغلال وأقواه مادياً ومعنوياً وما يزالون يستغلونه في صدد القضية الفلسطينية !

وقد لعبت هذه السياسة دوراً عجيباً في مراحل قضية فلسطين قبل التقسيم والحرب أيضاً . فقد بدا من انكلتره والولايات المتحدة الأميركية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية من المواقف المضادة لمصلحة العرب ما أثار الأفكار في مختلف الفئات والأوساط العربية ، وكان من أهمها نسف انكلترا سياسة الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ في صدد الهجرة اليهودية والذي نص على ان انكلتره قد قامت بكل ما يجب عليها نحو انشاء الوطن القومي اليهودي حيث فتحت باب الهجرة اليهودية المغلق واتفقت مع الولايات المتحدة على اجراء تحقيق جديد في قضية فلسطين غير عابئة بما قطعته على نفسها من عهود صريحة ولا بمذكرات العرب واحتجاجهم وهياجهم كما كان من أهمها موقف الرئيس الأميركي ترومان موقفاً صريحاً مضاداً لحق العرب ناقضاً للوعود الصريحة التي قطعها سلفه لملوك العرب وساستهم ، ولما أصدرت لجنة التحقيق المشتركة قرارها الذي يساير مطالب اليهود الى أبعد حد ويقضي على حق العرب الصريح أشد القضاء ازداد هذا الهياج ، وعقد ملوك العرب اجتماع انشاص التاريخي في ٢٩ مايس ١٩٤٦ وأعلنوا بعده أن قضية فلسطين هي قضية العرب جميعاً وأنه يتحتم على دول العرب وشعوبها صيانة عروبتها وحملوا الأمين العام لجامعة الدول العربية نتائج أبحاثهم ومداولاتهم وتوجيهاتهم في هذا الشأن لاتخاذ أفضل الوسائل لصيانة مستقبل هذا الوطن العزيز على قلوب العرب أجمعين ، وعقد مجلس الجامعة اجتماعه الخارق التاريخي على أثر ذلك في بلودان (حزيران ١٩٤٦) فقرر رفض أي شكل من أشكال التقسيم ووجوب الاصرار على استقلال فلسطين وعروبتها وارسال مذكرات للولايات المتحدة وانكلترا بنقد تقرير اللجنة والاحتجاج عليه ، وانذارهما بسوء العلاقات بينها وبين العرب اذا لم تبدلا موقفها وتعترفا بحقوق العرب ، وقرر الى هذا قرارات سرية سجل فيها خطورة الحالة في فلسطين وحق الدول العربية في الدفاع عنها بالقوة اذا لم تحل قضيتها حلاً مرضياً ومساعدة أهل فلسطين على ما يساعدهم على النضال والنظر في مقاطعة الدولتين السكسونيتين المتآمرتين أدبياً واقتصادياً وسياسياً وإلغاء مايكون لهما من امتيازات في البلاد العربية ، واستمرت الدولتان الغادرتان في خطتها العدائية نحو العرب المسايرة لمطالب

اليهود ومطامعهم بكل وقاحة واصرار ، ولما انتقلت القضية الى هيئة الامم لعبت الولايات المتحدة دوراً كبيراً أو الدور الأكبر الايجابي الاثيم في حمل الدول على تقرير التقسيم كما لعبت انكلترا دوراً كبيراً أو الدور الأكبر الايجابي في داخل فلسطين بعد قرار التقسيم كان من نتيجته اتاحة الفرص الواسعة لليهود بالتسلح والتمكن من الاستيلاء على كل ما خصص لهم في قرار التقسيم ثم على لواء الجليل المخصص للعرب بحيث لم يأت يوم ١٥ مايس حتى كانت الدولة اليهودية قائمة في المناطق المخصصة لها وفي لواء الجليل معا (١) في حين انها كانت تعسر نشاط العرب في الداخل والخارج كل التعسير ، فلم يحفز كل هذا أي دولة من الدول العربية الى تغيير سياستها الودية المائعة مع انكلترا وأميركا الشمالية فضلاً عن اعلانها العداء والغاء امتيازاتها بتأثير السياسة الشخصية والاقليمية الذي نسف كل ما كان من هياج وتصريحات وقرارات ومكائد ونكايات واهانات مادية ومعنوية . .

-٣-

ولقد بدا للعرب جميعهم ان من شأن النفط العربي ان يكون وسيلة عظيمة للضغط وحل مشا كل العرب فضلا عن مشكلة فلسطين ، ولقد بدا العراق متحمساً كل الحماس لموضوع وقف النفط والغاء امتيازاته حينما بدا من انكلترا وأميركا ما بدا من اصرار واستمرار في خطتها العدائية ، وطلب مندوبه في أحد اجتماعات اللجنة السياسية الذي انعقد في ايلول ١٩٤٧ في ظروف كانت قضية فلسطين في أشد مواقفها خطورة تنفيذ قرارات بلودان السرية في صدد امتيازات النفط فجمجم المندوب السعودي بعض الشيء ودار الهمس بان المندوب العراقي انما يريد الاحراج ، وبدت مظاهر محوري الجامعة السعودي الهاشمي بارزة حيث انحاز بعض المندوبين الى المندوب السعودي وبعضهم الى المندوب العراقي ، وانتهى الموقف الى اعادة الأمر الى مجلس الجامعة ، واجتمع هذا المجلس في تشرين الاول ٩٤٧ وقرر ان مقررات بلودان السرية واجبة التنفيذ في حالة تطبيق أي حل من

---

(١) في الجزء الخامس من كتابنا حول الحركة العربية تفصيل كاف لهذه الأحداث

شأنه ان يمس حق فلسطين في ان تكون دولة عربية ، ولعبت الدولتان السكسونيتان دوريهما الكبيرين الذين ذكرناهما وقامت في فلسطين دولة يهودية وديست فلسطين العربية وأهلها بالنعال فلم تقدم الدول العربية صاحبة النفط او المرتبطة مع الدولتين بامتيازات على اي عمل تنفيذي لتلك المقررات بتأثير السياسة الاقليمية الشخصية ...

وقطع العراق النفط عن حيفا بعد قيام الدولة اليهودية بالرغم من فائدته الكبيرة وعظيم التضحية التي تحملتها الخزينة العراقية لم يكن تنفيذاً لقرارات مجلس الجامعة كما لا يخفى لان النفط ظل يجري من العراق الى طرابلس الشام بعد قرار التقسيم ، ولم ير العراق مانعاً من إسالة ما كان يسيل الى حيفا الى ميناء سوري وآخر لبناني . هذا مع التسليم بان في توقف العراق عن التنفيذ بسبب عدم تضامن المملكة السعودية معه شيئاً من الوجاهة .

ولقد أذاعت بعض الصحف خبر اعتزام الملك السعودي على الغاء الامتيازات وكون المنشآت والمهندسين الاميركيين في خطر فسارع الى اصدار تصريح ينفي ذلك معللا بان هذا عهد وعقد وان الدين الاسلامي قد أمر بالوفاء بالعهود والعقود وحماية من هم في ذمة سلطان المسلمين ... واشتدت الحملة والمطالبة بعد قرار التقسيم واستمرار اميركا في محاباتها لليهود فاستنكر الامير فيصل في حديث صحفي أدلى به الى مندوب جريدة المصري في أواخر شباط سنة ١٩٤٨ هذه الحملات وقال انه ليس من تناقض في موقف أبيه مع ما يجب ان يقفه العرب من المصالح الاميركية وان اميركا ليست وحدها التي ناصرت التقسيم ولم يسمع أن دولة عربية الغت امتيازات ومصالح الدول المناصرة ، وانه في الساعة التي يرى العرب جميعاً ان المصلحة تقضي بوقف اعمال الشركة فسترون اننا على استعداد لايقاف عملها حالاً كأن كل ما كان وتقرر لم يكن ...

ولسنا نعني فيما نقول اختصاص النقد لموقف السعوديين وانما أردنا الاشارة الى ما للسياسة الشخصية والاقليمية من تأثير في سياسة العرب وعلاقاتهم ببعضهم وفي جعلهم يقولون مالا يفعلون ويهضمون كل تناقض وإهانة واستخفاف . ولقد

قال الامير فيصل حقاً حينما قال انه لم يسمـــع أن دولة عربية ما الغت امتيازات ومصالح الدول المناصرة لليهود : فجميع الدول العربية ظلت على أحسن الصلات مع الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا وغيرها من الدول المناصرة ومنها من ازداد تقرباً واستسلاماً لايحائها وتوجيهها وتزلفاً في سبيل نيل رفدها ، بل ومنها من أبرم مع الشركات الانكليزية والاميركية بايحاء وتعضيد حكومتيها اتفاقات نفطية وغير نفطية بعد قرار التقسيم بالرغم من ان قرارات بلودان السرية تحظر هـذا بنوع خاص وبالرغم من قرار جديد اتخذته اللجنة السياسية بتاريخ ٢٢/٢/٩٤٨ في هذا الموضوع بالذات حيث نص على « الامتناع عن منح امتيازات بتمديد أنابيب البترول أو بتنفيذ الامتيازات التي منحت سابقاً بتمديد الأنابيب في داخل البلاد العربية لمصلحة شركات أجنبية تنتسب لدول تعمل من تقسيم فلسطين وتنفيذه سواء ا كانت مصادر البترول في المملكة العربية السعودية او في العراق ، وذلك مادامت الدول التي تنتسب لها هذه الشركات تعمل على ارغام العرب على قبول تقسيم فلسطين، ثم بالرغم من استمرار هذه الدول في موقفها المؤذي للقضايا العربية عامة وقضية فلسطين خاصة ...

ويستمر هذا التناقص الى اليوم بسبب هذه السياسة وتأثيرها فقد قرر مجلس الجامعة العربية في احدى اجتماعاته عام ١٩٥١ وبسبب التوتر الذي ساد العلاقات بين الدول العربية والدول الغربية في ظروف حركة القضية المصرية ومشاريع الدفاع المشترك وقضايا المغرب العربي « عدم التعاون اقتصادياً وعسكرياً مع الدول الغربية الي ان تحل القضايا العربية » ومع ذلك فان ا كثر من دولة من الدول العربية ظلت تتعاون تعاوناً اقتصادياً وثيقاً مع الدول الغربية ، ولم تر مانعاً من عقد معاهدات جديدة متنوعة مع الولايات المتحدة الاميركية بسبيل التعاون الاقتصادي وتوطيد الصداقة معها ونيل صدقاتها وهباتها الضئيلة التافهة التي لاتنوء بها خزانتها ، بل وانها لتتهالك على ذلك وتقبل بسبيله مواد فيها شيء غير قليل من

اسباب تمكين المخلب الاميركي منها في حين ان الولايات المتحدة الاميركية هي أشد الدول الغربية استهتاراً بالعرب وقضاياهم وتعضيداً لليهود (١) .

ولقد عقدت حكومة المانيا الغربية مع دولة اليهود اتفاقاً على منحها مبلغاً عظيماً كتعويضات عما فعله هتلر باليهود ؛ فقامت الحكومات العربية وقعدت لهذا الحادث الخطير جداً الذي يمد دولة اليهود بأسباب القوة الاقتصادية والحربية ؛ وأخذ رجالها يصدرون التصريحات القوية منذرة محتجة ؛ ثم قررت اللجنة السياسية مقاطعة المانيا الغربية اذا تم ابرام الاتفاقية ؛ وبدا العرب هذه المرة جادين حتى أقلق موقفهم حكومة المانيا وجعلها ترسل الوفود وتلتمس المخرج ؛ ولم تر اللجنة السياسية في ماعرضته مبرراً للتراجع ؛ ومع ذلك سارت هذه الحكومة حتى ابرمت الاتفاق ؛ وحبس الناس أنفاسهم ليسمعوا الكلمة الداوية في تنفيذ العرب لقرار المقاطعة ظناً منهم ان هذا واقع حتماً لأنه ليس لألمانيا من القوة السلطان على أحد منهم مايجعلهم يتراجعون عنه فاذا الحكومات العربية تخيب هذا الظن وتصمت صمت أهل الكهف ؛ واذا كل ما كان من هياج وانذار وتصريحات وقرارات وغضبات مضرية يتبخر لأنه بدا لبعض هذه الحكومات أن يتراجع لمصلحة اقليمية خاصة رآها دون مبالاة بما لهذا التراجع من ضربة شديدة على اعتبار العرب ووزنهم ومصلحتهم العامة العليا ...

---

(١) قالت جريدة المصري في عددها ١٩/٧/٩٥٢ في سياق تعليقها على المعاهدة الاميركية المصرية التي عقدت في هذه الايام « ودراسة نصوص هذه المعاهدة تكشف عن خطورتها بالنسبة لمستقبل الاقتصاد الوطني المصري وخاصة فيما يتعلق بتشجيع الاستثمارات الصغيرة وتنمية الكيان الاقتصادي المستقل في البلاد . ومع ان المعاهدة صرحت على تأكيد شرط التبادل في المعاملة بين المصريين والاميركيين الا ان حقيقة الوضع الاقتصادي والسياسي في مصر تنفي نظرية التكافؤ بين الطرفين المتعاقدين وهي النظرية التي لابد من توافرها في أي معاهدة تعقد بين دولتين او اكثر لغرض اقتصادي وسياسي . اما ان تسوي المعاهدة بين الاميركيين والمصريين في شؤون الاستثمار والملكية والاخراج والدخول بالدولارات وفي اقامة الشركات والمعاهد الدينية والثقافية والاجتماعية فهو ما يجعل من المعاهدة وسيلة لان تبتلع اميركا بامكانياتها الكبيرة المجتمع المصري الناشئ .

- ٤ -

ولقد أضاعت هذه السياسة على العرب فرصة سنحت لهم أثناء الحرب العالمية الثانية . فقد اشتد الشعور في الاوساط العربية القومية بضرورة الاستفادة من ظروف الحرب وتحقيق هدف عظيم من اهداف الحركة العربية وهو الوحدة بشكل من الاشكال . وكانت بريطانية هي صاحبة الحول والطول والسلطان العسكري في بلاد العرب فشجعتهم على ان يخطوا خطوتهم نحو هذا الهدف حيث صرح وزير خارجيتها في اجتماع عام بتاريخ ٢٩ مايس ١٩٤٢ قائلا : بان العالم العربي قد خطا خطوات واسعة منذ التسوية التي تمت في نهاية العالم الماضي (١) وقد رغب كثيرون من مفكري العرب في ان يكون للشعوب العربية نصيب من الوحدة اعظم مما تتمتع به الآن . وهم في سعيهم لبلوغ هذه الوحدة يرجون عون بريطانيه وتأييدها ومثل هذا النداء من اصدقائنا لا يمكن الا ان يلبى . وانه ليلوح انه من الطبيعي ومن الحق ان تتعزز الروابط الثقافية والاقتصادية بل والسياسية بين البلدان العربية . فحكومة صاحب الجلالة ستؤيد من جانبها كل التأييد كل مشروع تتم الموافقة الاجماعية عليه » ثم صدر منه تصريح ثان بتاريخ ٢٤ شباط ٩٤٣ أمام مجلس النواب جاء فيه « ان الحكومة البريطانية كما أوضحت قبل تنظر بعين العطف الى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافة والسياسية بينهم وان من الجلي ان الخطوة الاولى لتحقيق أي مشروع يجب ان تأتي من العرب أنفسهم .»

وبناء على هذا التشجيع بدأ مصطفى النحاس رئيس الوزارة المصرية مشاوراته بعد هذا التاريخ بقليل مع ممثلي الحكومة العراقية ثم مع ممثلي الحكومات الاردنية والسورية واللبنانية والسعودية واليمنية على التوالي . وكانت تسمى رسمياً بمشاورات الوحدة العربية واستمرت كذلك . وكان استبشار العرب عظيما بهذه المشاورات والتسمية ، وكان الظاهر ان النحاس غير بعيد عما تعنيه هذه التسمية على ما سجل من تصريحاته امام البرلمان المصري والمؤتمر الوفدي وخطاب العرش والتصريحات الخاصة والصحفية الاخرى . وفهمها العراق وسوريا والاردن على

(١) قصد بهذا مانالته سوريا ولبنان من الاستقلال والحياة النيابية .

حقيقة مداها ، واطمأنوا بتشجيع الانكليز فقالت سوريا بانها تؤثر اقوى اداة للتعاون المشترك وهي الحكومة المركزية فاذا تعذر ذلك اقيم نظـــام آخر من الاتحاد او الاتفاق او الحلف . وقالت العراق والاردن انها ترغبـان في تكوين اتحاد له سلطة تنفيذية وجمعية تمثل فيها الدول العربية الداخلة فيه على ان يعاون مجلس الاتحاد لجنة تنفيذية تمثل جميع نواحي التعـــاون السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي ويكون لقراراتها قوة تنفيذية على الدول الداخلة في الاتحاد كما جاء في محضر اللجنة التحضيرية المنعقدة في الاسكندرية . ولكن تلك السياسة كانت سببا في مسخ المفهوم حيث لم يرض الآخرون بفكرة الوحدة او الاتحاد أو الحلف بناء على اعتبارات اقليمية وشخصية لا تمت بأي صلة الى المصلحة القومية العامة. وقد يكون للاصابع الانكليزية اثر في ولادة نظام الجامعة بالشكل الذي ولد به لان الانكليز ليسوا من الطيبة وحسن النية التي تجعلهم يرضون بقيام اتحاد عربي قوي يشمل اربعين مليونا في منطقة يعدونها منطقة نفوذهم واستعمارهم وسلطانهم ويرون أهلها يظهرون لهم العداء في كل فرصة تسنح لهم . غير ان رؤساء العرب وساستهم لو تجردوا عن سياستهم الشخصية والاقليمية وكانوا أقوى ارادة وحزما وأبعد ادراكا وأوسع أفقاً لكان في امكانهم ان يفعلوا شيئاً في تلك الظروف التي كانت الحرب ماتزال دائرة فيها وكان للعرب وزن وفائدة في نظر الحلفاء .

ولو فعلوا هذا ولم يضيعوا هذه الفرصة الذهبية لكانوا تفادوا كارثة فلسطين الحاطمة حتما .

ومن المؤسف ان ممثلي العراق وسوريا والاردن لم يكونوا من الحزم والارادة وسعة الافق مايحفزهم على تنفيذ ما كانوا متفقين عليه من المبادىء الاتحادية حينما لم يرض بها الآخرون ولو كانوا على ماقلنا من الصفات لكان في الكيان الذي ينشئونه شيء من العوض وباب يمكن ان يلحق بهم منه غيرهم .

ولقد جاء في دستور هذه الجامعة الموقع في ٢٢ آذار ٩٤٥ ما يعوض بعض الشيء عما كان من تفاؤل ومسخ لفكرة الوحدة حيث فسحت المادة الثانية المجال

الى توثيق الروابط الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والثقافية مما يدخل فيه الجمارك والسكك والطرق والبرق والبريد والعملة والجوازات والجنسية ومناهج التعليم الخ ... كما ترى في نصها التالي[1].

المادة ٢ – الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة استقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها . كذلك من اغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاونا وثيقاً بحسب نظم كل دولة منها واحوالها في الشؤون الآتية :

آ – الشؤون الاقتصادية والمالية ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملة وامور الزراعة والصناعة .

ب – شؤون المواصلات ويدخل في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد .

ت – شؤون الثقافة .

ث – شؤون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الاحكام وتسليم المجرمين.

ج – الشؤون الاجتماعية .

ح – الشؤون الصحية .

وحيث فسحت المادة التاسعة المجال الى ماهو أوسع والى مايمكن ان يؤدي الى اتحادات ثنائية كما ترى في نصها التالي :

المادة التاسعة ـ لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون اوثق وروابط أقوى مما نص عليه في الميثاق ان تعقد بينها من الاتفاقات ماتشاء لتحقيق هذه الاغراض .

غير ان تلك السياسة جعلت هذه المواد حبرا على ورق ليس خطيرها فحسب مما يقع في مدى النص الذي اوردناه بل فيما اقل من ذلك خطراً وشأناً بحيث لم يتحقق وينجز من الاهداف المذكورة في الميثاق شيء عملي ذو بال حتى ولا قضية تنقل العربي بين البلاد العربية وعمله فيها بيسر مثلا مع ما بذلته امانة الجامعة

من جهود وانعقد من لجان وتقرر من قرارات ووضع من لوائح وتشريعات واتفاقيات ؛ وقصارى ما كان هو تنسيق مواقف الحكومات العربيـة ازاء الأحداث السياسية العربية وغير العربية من آن لآخر تنسيقا غير مضمون التنفيذ والاهمال والتجاهل مع ذلك ، مع مشاهد ملموسة اليمة من التشاد والمكايدات في كثير من المواقف ؛ ومع انقسام دول الجامعة في ظل كيانها الى محورين متشادين يتربص احدهما بالآخر ويكيد احدهما للآخر .

ولقد تدخلت دول الجامعة في قضية فلسطين قبل قرار التقسيم و بعده واشتبكت مع اليهود في الحرب نتيجة لقرارات الجامعة حقاً . وكان هذا من حيث المبدأ أعظم وأروع عملية عربية عامة . غير أن ما كان من سير مراحل هذا التدخل ونتائجه بسبب السياسة الشخصية والاقليمية التي لعبت دوراً كبيراً هو أسوأ ما يمكن ان يكون سيراً ومراحل ونتائج ، حتى ليتمني المرء ان لا تكون قد تدخلت ، وقدادي هذا التدخل الى اشتداد أثر هذه السياسة ومظاهرها فضلاً عن ما أدي اليه من تلك النتائج والمراحل السيئة .

— ٥ —

ولقد كان من اثر كارثة فلسطين الحاطمة ان أخذت الاصوات ترتفع داعية الى اتحاد الدول العربية كرد فعل لهذه الكارثة التي افقدت الامة العربية ثقتها في نفسها وسحقت معنوياتها، ثم انبثق في ربيع سنة ١٩٤٩ اتجاه الى اتحاد عسكري سياسي واقتصادي بين دول الهلال الخصيب فحورب هذا الاتحاد حرباً شديدة بدافع من الاجتهاد في البعض وبدافع من الاعتبارات الشخصية والاقليمية والتوازنية في البعض الآخر حتى حبط . وكان مما ساعد على حبوطه فكرة الضمان الجماعي التي تقدمت بها مصر في خريف السنة نفسها ، وقيل ان فيها العوض الأوسع والأشمل والأقوى . واستقبل الناس الفكرة بالارتياح والاغتباط لأنهم متشوقون الى حركة ترد لهفتهم وتعيد اليهم ثقتهم في أنفسهم وترد عليهم روحهم المسحوقة

وتبعث فيهم شيئاً من الامل المفقود . ومع ان السير في الموضوع كان كالعادة على اسلوب السير السلحفائي فقد امكن كالعادة ايضاً من وصولنا الى غاية ما في حدود الكلام والكتابة ان يصل الامر الى غاية حسنة حيث انتهى الكلام الى الاتفاق على نصوص قوية لمعاهدة سميت بمعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي :

فنصت مادتها الاولى — على اعتبار كل اعتداء مسلح يقع على أي دولة أو اكثر منها او على قواتها اعتداء عليها جميعاً ، والتزام كل منها بالمبادرة الى معونة الدولة او الدول المعتدية عليها واتخاذها على الفور منفردة ومجتمعة جميع التدابير واستخدام جميع مالديها من وسائل بما في ذلك استخدام القوى المسلحة لرد الاعتداء واعادة الامن والسلام الى نصابها .

ونصت المادة الثالثة — على مبادرة الدول المتعاقدة الى توحيد خططها ومساعيها في اتخاذ التدابير الوقائية والدفاعية التي يقتضيها الموقف في حالة خطر حرب داهم او قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها .

ونصت المادة الرابعة — على تعاون الدول المتعاقدة على دعم مقوماتها العسكرية وتعزيزها والاشتراك بحسب مواردها وحاجاتها في تهيئة وسائلها الدفاعية الخاصة والجماعية لمقاومة أي اعتداء مسلح .

ونصت المادة الخامسة — على تأليف لجنة عسكرية دائمة من ممثلي هيئة أركان حرب جيوش الدول المتعاقدة لتنظيم خطط الدفاع المشترك وتهيئة وسائله وأساليبه .

ونصت المادة السادسة — على تأليف مجلس للدفاع المشترك يختص بجميع الشؤون المتعلقة بتنفيذ المواد السابقة على أن تكون قراراته التي تصدر بأكثرية الثلثين ملزمة للجميع .

ونصت المادة السابعة — على تعاون الدول المتعاقدة على النهوض باقتصاديات بلادها واستثمار مرافقها الطبيعية وتسهيل تبادل منتجاتها الوطنية والزراعية

والصناعية وبوجه عام على تنظيم نشاطها الاقتصادي وتنميته وابرام مايقتضيه الحال من اتفاقات خاصة لتحقيق هذه الاهداف .

ونصت المادة العاشرة — على تعهد كل من الدول المتعاقدة بان لاتعقد أي اتفاق دولي يناقض هذه المعاهدة وبان لاتسلك في علاقاتها الدولية مسلكا يتنافى مع غرضها .

ووقعتها دول سوريا ومصر ولبنان والسعودية واليمن في حزيران ١٩٥٠ وأخرت الاعتبارات الشخصية والاقليمية والتوازنية وما انتجته من جفاء وانكماش وتردد ومحور هاشمي مقابل محور سعودي العراق والاردن عن توقيعها مدة طويلة ، فلم يوقعها العراق الا بعد ثمانية أشهر ولم يوقعها الاردن الا بعدموت الملك عبد الله . ومع ذلك فما تزال هذه المعاهدة في نطاق الكلام ولم يصادق عليها من قبل بعض الرؤساء والمجالس حتى تصبح نافذة نظريا ، والاعتبارات المذكورة ملموسة اشد اللمس في هذا التعثر .

والى هذا فان هناك قرارات كثيرة اخرى قررها مجلس الجامعة ولجانها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية استجابة لظروف ملزمة أو مسايرة لموقف خاص أو مماشاة للرأي العام ثم ظلت حبراً على ورق ولم تنفذها الحكومات التي اشترك ممثلوها — وكثيراً مايكونون رؤساء وزارات ووزراء — في بحثها ووضعها وتقريرها وإعلانها بل وتوقفت لان الاعتبارات الشخصية والاقليمية والفردية وقفت في طريق التنفيذ دون مبالاة بما تعطل من مصالح وهدر من جهود ، وبما أحاط العرب من جراء ذلك من ذل وسجل عليهم من عار وانفقد لهم من وزن وقيمة واعتبار في نظر العالم السياسي والعالم العربي على السواء وفي ظروف كان الممكن ان يكون للصدق في تنفيذها أثر عظيم .

والدسائس الاستعمارية وخاصة الانكليزية تلعب دوراً خبيثاً اثيما في هذا المجال بسبب مابينها وبين بعض الدول العربية وبعض رجالات هذه الدول من معاهدات

وتواثق ؛ ولعلها من أهم اسباب مايقوم بين دول العرب من جفاء ومناقضات ، وعرقلة نمو الجامعة العربية وشل حركاتها .

-٧-

ومن الجدير بالذكر ان هذه الاعتبارات المجرمة غير منبثقة من الشعب بل متضادة كل التضاد مع عواطفه ورغباته فضلا عن مصالحه ؛ وانما هي نتيجة لانانية الرؤساء وكبار الساسة الذين يقبضون على زمام الأمور في الدول العربية واهوائهم وضيق أفقهم وتفكيرهم . وقد أثبتت الشعوب العربية في مختلف الاقطار في مختلف المناسبات وبمختلف الأساليب نقمتها عليها .

ففي قضية فلسطين كانت الصرخات الداوية من الصحافة العربية ، والمظاهرات الصاخبة التي قامت في مناسبات تلك القضية الأليمة في مختلف الاقطار تهتف بسقوط هذه الاعتبارات وتعتبرها العامل الاقوى فيما حل بالعرب من نكبة وخزي وهوان ؛ بل ولقد كانت الاحداث الانقلابية والثورية والدموية التي وقعت بعد تلك النكبة نتيجة من نتائج ذلك الشعور الناقم او مستندة عليه او مستمدة منه كما يدل عليه ما كان من ارتياح وتأييد عام لتلك الاحداث .

وفي قضية الوحدة العربية كان الرأي العام العربي وما يزال في جانبها وضد الذين يقفون في طريقها على طول الخط ، لانه يراها الوسيلة الوحيدة الى قوة العرب وتقدمهم . ولو استفتيت الشعوب العربية استفتاءاً حراً من الضغط والدسائس لجاءت النتيجة حتما في جانب الوحدة الشاملة ولا سيما في هذا الظرف الذي يتجه العالم فيه الى التكتل ، وتقوم الوحدة او الاتحاد فيها بين شعوب لا يجمع بينها الا الجوار او المصلحة السياسية والدفاعية فكيف بالعرب وهم أمة واحدة يجمع بينها اللغة والدين والتاريخ والمصلحة وقد غرز في قلبهم خنجر مسموم وسرطان خبيث لا يمكن اقتلاعه او الوقاية منه الا بها .

ولقد أقامت سوريا على هذا الدليل الحاسم في الدستور الجديد الذي وضعته جمعيتها التأسيسية عام ١٩٥٠ حيث احتوت مقدمته هذه الفقرة « ونعلن ان شعبنا هو جزء من الامة العربية بتاريخه وحاضره ومستقبله يتطلع الى اليوم الذي تجتمع

فيه في دولة واحدة . وسيعمل جاهداً على تحقيق هذه الامنية في ظل الاستقلال والحرية » وحيث احتوى نص قسم رئيس الجمهورية والنواب على العهد « بالعمل على تحقيق الوحدة العربية » . على أن هذا الدليل تقدم من سوريا قبل هذا الظرف أيضاً حيث كانت الوحدة في الدرجة الاولى والاتحاد في الدرجة الثانية مطاب الوفد السوري في مشاورات الوحدة العربية على ماذكرناه قبل وحيث كان لرئيس جمهوريتها شكري القوتلي كلمة ذهبت مثلا جاء فيها « انسوريا لن تقبل ان يرتفع على بلادها علم آخر غير علم الوحدة العربية » .

ومما لاريب فيه ان النظام الجمهوري الذي يقوم في سورية كان عاملاً مهما ساعد على تقديم سوريا هذا الدليل الصريح القوي عندكل موقف اقتضاه ، وأن هذا النظام لو كان قائماً في الاقطار العربية الاخرى لكانت ارادة الشعوب العربية فيها ظهرت قوية رائعة في جانب هذه الوحدة ولكان في الامكان تحقيق هذا الهدف العظيم في هذه الحقبة من تاريخ العرب الحديث وتفادي الكوارث والاهانات التي حلت وما تزال تحل فيهم .

واذا كان لبنان مع نظامه الجمهوري لايقدم الدليل الصريح الذي قدمته سوريا فان ذلك راجع لاعتبارات اخرى لادخل لنظام الحكم فيه ، ومع ذلك فا كثرية سكان لبنان في جانب الوحدة والاتحاد حتما لو جرى فيه الاستفتاء الحر الذي المعنا اليه . فان نصف سكانه الذين هم محمديون وفريقا غير يسير من مختلف الطوائف النصرانية من انصار الوحدة او الاتحاد . ولا يمكن المراة في ذلك لأنه من الحقائق الملموسة التي يقوم عليها أدلة لا تنقض .

— ٨ —

ومن المؤسف ان نقول ان المشكلة ليست سهلة . لأن الرؤساء والساسة هم اصحاب الاثر الفعلي الاقوى في مقاليد امور البلاد العربية ونظمها وسيرها ، وهم حريصون ان يظلوا هم المسيطرون ، ولأن الدافع لهم على التزام السياسة

الشخصية والاقليمية هو الهوى والأنانية وضيق الافق مع يقينهم في قرارة أنفسهم ان هذه السياسة ضارة بالمصالح القومية العامة ، ولأن الوعي القومي العام ليس في حالة يستطيع معها ان يملي ارادة الامة على أولئك الرؤساء والساسة ويجعلهم يتقون الله في أمتهم ويكفون عن اتباع أنانيتهم وهواهم بسبب سلبيته وجموده وضعف تنظيمه .

على ان اليأس غير جائز بالبداهة ومؤد الى الارتكاس في الخطر والضرر بحياة الشعوب والبلاد العربية ومصالحها وحاضرها ومستقبلها مما يتحمل مسئوليته العظمى كل واع من أبناء هذا الجيل شيباً كانوا أو شباناً . وأن من الواجب والحالة هذه ان تشتد الدعوة والحملة من كل واع قادر من صحفيين وأساتذة وكتاب وخطباء ووعاظ وهيئات ضد هذه السياسة والتنبيه على خطرها وضررها وما أصاب العرب من شرها وأذاها ، والهتاف بالرؤساء والساسة بان يكفوا عن تغليبها وتضحية مصالح شعوبهم وحياتها وكرامتها على مذبحها وبان يتقوا الله في بلادهم وأمتهم ويجعلوا المصلحة القومية العامة الصحيحة هي الناظمة لخططهم وحركاتهم والملهمة لهم بما يعملون بل وأن من الواجب على الواعين القادرين تحريك الرأي العام تحريكا قوياً بكل اسلوب ومناسبة حتى يصبح كاسحاً قوياً لا يجد الرؤساء والساسه معدى من التجاوب معه في هذا المطلب الذي له الأثر الاكبر في حاضر العرب ومستقبلهم من مختلف النواحي . وعلى الشباب خاصة ان يقوموا باكبر عبء في هذه الدعوة والحملة لانهم موضع الضرر والأذى اكثر من غيرهم باعتبارهم العنصر الأدوم من رجال هذا الجيل .

ولقد مهدت حركة سورية ومصر ثم حركة لبنان الأخيرة سبيل التعاون الواسع في هذا المجال بين مصر وسورية ولبنان بسبب ما يجمع بينها من الحافز والهدف ؛ فعلى الواعين المخلصين في البلدان الثلاث أن تشتد دعوتهم الى ذلك حتى تكون رائدة الشعوب والبلاد العربية في هذا الأمر الخطير .

(٢) الوحدة العربية

- ١ -

هناك ثلاث سبل أو وسائل الى توطيد العلاقات بين الدول العربية وتنظيمها. اثنتان منها في نطاق الواقع، وليس من شأنها قلب شيء من الاوضاع الحاضرة. وهما معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي ودستور الجامعة العربية. أما الثالثة فهي الوحدة العربية. والثالثة هي الجوهرية في حياة العرب ومصالحهم. والاثنتان الاوليان انما جعلتا عوضاً عنها بعض الشيء بسبب الاعتبارات الشخصية والاقليمية التي سيطرت على الرؤساء والساسة الكبار على ماذكرناه قبل. وفي اعتبارهما عوضاً عن الوحدة اعتراف وتسليم بان هذه هي الجوهرية وبان الرؤساء والساسة انما تحولوا عنها مع اعترافهم بضرورتها بسبب تلك الاعتبارات.

وجميع أسباب الوحدة ودواعيها قائمة. فالشعوب العربية ذات لغة واحدة تقطن في وطن كبير لايفصل بينه فاصل طبيعي ولا عنصري. وهي تعيش منذ الف وثلثمائة سنة على الاقل في جو تاريخي وسياسي وروحي وقضائي وثقافي وأدبي واقتصادي واحد.

ولقد كان يقوم أحياناً دول مستقلة استقلالاً داخلياً في بعض البلدان العربية غير ان الوحدة السياسية والاقتصادية بل والعسكرية كانت تظل موطدة بينها فضلاً عن عدم تبدل الجو الروحي والادبي والثقافي الواحد. واذا كان قيام الدولة الفاطمية استثناء في موضوع الوحدة السياسية والاقتصادية والعسكرية فان ذلك الجو لم يتبدل أولاً وكانت الوحدة السياسية والاقتصادية والعسكرية موطدة لوقت طويل من عهدها بين مصر والشام والحجاز واليمن وبلاد المغرب العربي ثانيا. وحينما قضي على هذه الدولة ظلت الوحدة السياسية والاقتصادية والعسكرية موطدة بين الاقطار الشامية والمصرية والحجازية واليمنية في نطاق الدول الايوبية والتركية والشركسية التي كانت في الحقيقة دولاً عربية فعلاً برغم كون رؤساءها

وفريق من جندها ورجالها من عنصر غير عربي . وحينما قضي على الدولة الشركسية ظلت هذه الوحدة موطدة في نطاق الدولة العثمانية مع احتفاظ البلاد العربية بطابعها العربي .

– ٢ –

والفرقة البادية اليوم هي في معظم مظاهرها وقيامها من صنع الاجنبي وغدره وليست منبثقة من الشعوب العربية التي ظلت تعيش في نطاق الوحدة طيلة القرون المديدة السابقة . فقد اعتدى الافرنسيون والانكليز على بلاد المغرب ومصر في القرن السابق وفصلوهما عن نطاق الدولة العثمانية وبقية البلاد العربية . ثم غدروا غدرتهم الفاجرة الثانية في ظروف الحرب العالمية الاولى فتآمروا على تقطيع أوصال البلاد الشامية واستعمارها وقطع الروابط بينها وبين العراق والحجاز قبل أن يجف مداد العهود التي قطعها الانكليز للملك حسين باسم الحلفاء على قيام مملكة عربية مستقلة تضم جميع الاقطار العربية التي كانت في نطاق الدولة العثمانية وبتحديد أدق بلاد الشام والعراق والحجاز على ما هو مثبت في مكاتبات الحسين ـ مكماهون . ثم ظلوا يواصلون مؤامراتهم وخططهم الغادرة بمختلف الاساليب والدسائس والوساوس والدعايات المضللة والارهاب والرشوة وشراء الذمم والتخويف وايقاظ النعرات وتغذية الحزازات والاحقاد ونفخ المطامع في الرؤوس حتى بدت بلاد العرب أشلاء متناثرة وأجزاء متنافرة . وكانت غدرتهم الكبرى فيهم في فلسطين وما انتهى اليه أمرها من قيام الدولة اليهودية وانقطاع عقدة الصلة بين شمال بلاد العرب وجنوبها فضلا عما ثار بين العرب من احقاد وضغائن كانت وما تزال اليد الانكليزية الأثيمة طولى في نشوءه ورسوخه .

والشعوب العربية راغبة في الوحدة أشد الرغبة لانها تعاني من الحواجز الاصطناعية التي تقوم بين البلاد العربية أشد العنت والعناء وتتضرر منها أكبر ضرر ، ولو استفتيت لكانت فتواها حاسمة في اثبات هذه الرغبة التي قامت وما تزال

تقوم عليها الادلة المتعددة الرسمية وغير الرسمية على ماذكرناه قبل ، وكل ما في الامر ان جمود وعيها وسلبيته يجعلها لاتندفع اندفاعا ذاتياً قوياً على إرادتها في تحقيق هذه الرغبة .

- ٣ -

والحق الذي لامراء فيه والذي يقول به كل واع سليم التفكير من العرب انه لن يكون للعرب كيان محترم قوي إلا بالوحده التي تغدواقطارهم بها دولة واحدة أو دولاً متحدة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وتشريعياً ، وانه لم يصب العرب ماأصابهم من وهن وضعف وتعرض للعدوان واندحار امامه في ظرف من ظروف تاريخهم الا حينما كانت تنفصم وحدتهم أوتهن ، ولم يكونوا اقوياء محترمين مزدهري الحضارة في ظرف من ظروف تاريخهم كذلك الا في ظل شكل من اشكال الوحدة ، وانهم لن يزالوا ضعفاء مهينين في عيون انفسهم وعيون غيرهم مستضعفين تتلاعب بهم الاهواء ويتهضمهم الاعداء والطامعون مازالوا غير متحدين .

فمن الواجب والحالة هذه ان لايلهى العرب شيء عن الوحدة التي هي طبيعية وضرورية باسبابها ودواعيها والتي هي العلاج الاقوى أو الاوحد لما يرتكسون فيه من ضعف وهوان وتخاذل واعتبارات شخصية واقليمية .

ونحن لانجهل ان الوحدة بين العرب قديماً انما توطدت بالقوة وان الوحدة بين الشعوب التي اتحدت حديثاً انما توطدت كذلك بالقوة التي هي على مايبدو السبيل اليها لانه يوجد دائماً طامحون يودون أن يستمتعوا بالحكم والسلطان ورؤساء لايتخلون عن مالهم من حكم وسلطان مهما كان أمرها ومدى رقعتها . غير أن الاستعداد الطبيعي اثراً لاينكر في توطيدها ايضاً . وهذا متوفر كل التوفر في العرب من حيث رغبتهم الشديدة ووحدة الوطن واللغة والتاريخ والجو والثقافة والروح الموطدة بينهم دهراً طويلا . واذا لم يكن الوعي العربي العام قوياً وكاسحاً تستطيع الشعوب العربية ان تملي به ارادتها التي لاشك فيها

في أمر الوحدة ، واذا لم يبد في أي بلد استعداد وقدرة معاً على تحقيق الوحدة بالفرض والاملاء فان رجال العرب البارزين على المسرح القومي والسياسي والقابضين على أزمة الامور والمؤثرين فيها وجميعهم يعترفون جهاراً او في أنفسهم بان الوحدة هي العلاج الوحيد الطبيعي لحالة العرب الحاضرة ـ مدعوون الى التفكير الجدي العاجل في هذا الأمر ، وهم قادرون فيما نعتقد اذا ماجدوا وتضامنوا على عمل شيء كثير في هذا الباب . وظروف العالم وحركات التكتل الجارية (١) بين أقطار كثيرة لاتتوفر فيها مايتوفر في الاقطار العربية من دواع واستعداد . وحالة العرب التي هي اسوأ مايمكن ان تكون عليه مما يمكن ان يساعد كثيراً على النجاح . وعلى الواعين أن يشتدوا في الدعوه الى هذا الهدف الجوهري كل الاشتداد وبكل سرعة ونشاط لانه متصل بصميم حياتهم ووجودهم ومركزهم في العالم ، ولأنه كل ما تأخر ازدادت حالتهم سوءاً وازداد مركزهم هواناً .

— ٤ —

واذا كان وضع الاقطار العربية الراهن سواء من ناحية وجود كيانات شخصية واقليمية ورسوخ اعتباراتها او من ناحية سلبية الوعي وجوده أو من ناحية التفاوت الثقافي والاقتصادي لايساعد على قيام وحدة سياسية شاملة في ظل دولة واحدة في هذه المرحلة وتاريخ العرب ولو على نمط الولايات المتحدة الاميركية الذي يمكن ان يكون مثالياً بالنسبة للبلاد والشعوب العربية فلا مانع من مسايرة هذا الوضع وحمل تحقيق فكرة الوحدة العربية على مراحل بحيث تكون المرحلة الاولى قيام اتحاد دول عربية وفقاً لهذا المنهج :

١ ــ اتحاد في الشؤون العسكرية فيكون جيش متحد تحت قيادة ونظم واحدة .

---

(١) لعل فيما يجري الآن في اوروبا الغربية عبرة بالغة ؛ فقد اتفقت دول فرنسه وبلجيكا وهولانده ودانيمارقه ولوكسبورغ والمانيا الغربية على تأسيس اسرة اوروبية متحدة لها برلمان وجيش مشترك وبينها اتحاد اقتصادي ولها مجلس وزراء مشترك وقد الغيت بينها الحواجز والجوازات

٢ — اتحاد في الشؤون الخارجية فيكون هناك تمثيل سياسي واحد وسياسة خارجية واحدة .

٣ — اتحاد في الشؤون الاقتصادية فيكون هناك نقد واحد وجمارك وبرق وبريد وهاتف موحدة في النظم والادارة .

٤ — يكون لرعايا الدول المتحدة جنسية اتحادية تخولهم حق التنقل والاقامة والنشاط والعمل في أي دولة .

٥ — اتحاد في النظم واللوائح والخطط الثقافية والمدرسية .

٦ — اتحاد في التشريع فتكون القوانين العامة صادرة عن مصدر تشريعي واحد .

٧ — يقوم على ادارة الشؤون الاتحادية مجلسان يشترك فيها ممثلون للدول المتحدة واحد اجرائي وآخر تشريعي بنسبة تستمد من ظروف ودور وتكاليف كل دولة من الدول المتحدة .

٨ — تقسم نفقات المصالح والمؤسسات الاتحادية وريعها ووظائفها بنسبة ميزانية او عدد سكان كل دولة او بنسبة اخرى تنسجم مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية لكل دولة .

٩ — يضع مجلس تأسيسي مشترك قانوناً أساسياً (دستوراً) لهذا الاتحاد تحدد فيه الاهداف والغايات والحقوق والواجبات والسلطات والكيفيات بصورة عامة .

١٠ — يبقى لكل دولة استقلالها الداخلي فيما يتصل بطرائق التطبيق والامن والعمران والتنظيم والوظائف والشؤون البلدية والصحية والتجارية والصناعية والزراعية الخ وما يتصل بذلك من قوانين وتشريعات وتشكيلات ، وتحتفظ كل دولة بنظام حكمها الراهن . ويكون لها وزارة وبرلمان .

ويندمج في هذا الاتحاد مصر وسوريا ولبنان والعراق والاردن والمملكة السعودية والمملكة اليمنية اي دول الجامعة العربية اليوم ان امكن . ويجب ان

يكون مركزه مصر لما لها من ميزات عديدة تجعل مركزيتها مهضومة من قبل الدول الاخرى . ومع اننا نميل الى ان تكون رئاسة الاتحاد لمصر تقوية لمعنى الاتحاد القومي فان من الممكن الاستغناء عن رئاسة رمزية اذا ثارت الاعتبارات الشخصية والاكتفاء برئاسة عملية يتناوبها ممثلو الدول المتحدة في دورات سنوية .

وهناك امارات عربية في انحاء جزيرة العرب جنوباً وشرقاً وشمالاً لها كيانات خاصة على صغرها وتلعب فيها الاصابع الانكليزية والمطامع الاستعمارية فتجعلها تحرص على هذه الكيانات مع اتصالها الجغرافي الوثيق بدول اليمن والسعودية والعراق . ومع ان من الافضل ان ينضم كل منها الى الدولة الاكثر قرباً والاشد صلة جغرافية واجتماعية واقتصادية فلا مانع اذا تعذر هذا الآن من دخولها في الاتحاد كشخصيات خاصة اسوة بلبنان والاردن .

وطبيعي ان تكون الدولة الليبية عضواً في هذا الاتحاد كما ان من الطبيعي ان تكون كل من تونس والجزائر ومراكش اعضاء فيه حال ما يتم تحريرها الذي يجب على الاتحاد العربي بعد تكونه بذل الجهد المتصل في سبيله .

وهذه الصورة التي نرسمها تنطوي ولا ريب على نواة المملكة العربية المتحدة التي سوف تتطور اليها ويستطاع فيها سبك الامة العربية في قالب واحد وتوجيهها في اتجاه واحد والحاق المتأخر منها بالمتقدم من النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية ، وتكثيف جهودها وقابليتها واستغلال امكانياتها العظيمة حتى تصل الى اكمل ما يمكن من درجات الثقافة والرفاه والكرامة والقوة والصلاح الاجتماعي والفردي والاقتصادي وتتبوأ مركزها اللائق بها بين امم الارض كأمة ذات امجاد تاريخية وذات خصائص وقابليات عظمى ، وفي اثناء ذلك تكون فكرة الدولة الواحدة قد نضجت فتغدو هذه النواة حقيقة المملكة العربية المتحدة التي نرى ان تقوم على نمط ونظم الولايات المتحدة الاميركية .

وطبيعي اننا نقدر أن هذا ليس سهلا كسهولة رسمه على الورق . ولكن

الجهد المنظم والاخلاص في السعي والايمان بالفكرة والهدف ، وكل هذا مما يجب على الواعين القادرين توجيه الشعور اليه وتركيزه فيه من شأنه تهوين كل عسير ولاسيما انه ليس امام هذه الامة طريق آخر يضمن لها حياة كريمة عزيزة .

ومهما يكن من احتمالات عراقيل الاجنبي في سبيل تحقيق هذه الصورة في مرحلتها الاولى التي هي مرحلة خطيرة من دون ريب توصل الى الغاية فاننا لا نشك في ان الامر قبل كل شيء هو امر العرب أنفسهم والارادة ارادتهم ، وعراقيل الاجنبي انما تنجح بما يمكن ان يجده من ثغرات او ضعف في ارادة العرب ورغباتهم ومواقفهم وجدهم واخلاصهم . والجهد المنظم الدائب والدعوة القوية المترافقة بالايمان والصدق من شأنها ان يسدا هذه الثغرات فلا يجد الاجنبي منفذاً للدسائس والمكائد والعراقيل او يضيقا المنافذ امامها .

— ٥ —

ولقد دل ان ارتباط بعض الدول بمعاهدات فيها التزامات عسكرية وغير عسكرية في حين ان بعضها حر من كل قيد يجعل الاتحاد بينها خطراً على الدول المطلقة من حيث كونه يجرها الى داخل الشبكة مع الدول المقيدة . ونحن لا ندري كيف يمكن ان يكون هذا اذا احتفظت كل دولة بكيانها . فالمعاهدات الموجودة انما تنص على التزامات معينة في داخل اراضي الدولة المقيدة بها وحسب والاتحاد اذا قام فسوف يقوم بموجب ميثاق مماثل لميثاق جامعة الدول العربية من جهة الاسلوب الفني مبدلاً في الاسم والمدى وقوة الالتزام والتنفيذ . ولقد كانت تلك الحالة موجودة حينما قامت الجامعة العربية فلم تمنع قيامها واشتراك المقيدين والمطلقين على السواء فيها . ولقد كانت موجودة كذلك حينما عرض الضمان الجماعي بديلا من الاتحاد الثنائي الذي كان هناك اتجاه نحوه في بعض الدول فلم تمنع من مضي الدول العربية في بحثه وايصاله الى مرحلته الكلامية النهائية واشتراك الدول المقيدة والمطلقة على السواء في توقيع معاهدة الدفاع المشترك التي انبثقت عنه . وخطر وقوع الدول المطلقة لو صح وروده انما يكون اذا نشبت حرب عامة ؛

وفي هذه الحالة يكون الخطر واقعاً عليها سواء اتحدت مع غيرها أم لم تحد لأنها محاطة بالدول المقيدة ومن العسير عليها ان تدافع عن حيادها بالقوة كما ان الدول الكبرى لن تحترم هذا الحياد من نفسها . وقد رأينا امثلة كثيرة على ذلك في اوروبا واسيا وفي بلادنا نفسها اثناء الحرب العالمية الاخيرة .

ولقد قلنا ان خطر الوقوع في الشبكة يرد اذا صح وروده في حالة الحرب وليست هذه الحالة دائمة وأبدية . ومدة السلم على كل حال اطول . فالمصلحة القومية تقضي ان لا يتعطل والحالة هذه مشروع اتحاد الدول العربية الذي يهدف الى اهداف عظيمة تتصل بصميم حياة العرب ومصالحهم ومستقبلهم من مختلف النواحي وفي جميع الظروف والحالات . وتعليقه الى ان تتفلت الدول المرتبطة بالمعاهدات مؤخر لتحقيق هذه الاهداف ، بل وقد يكون مؤخراً لنجاة هذه الدول من حيث كون هذه النجاة اكثر امكاناً حينما ينتظم الاتحاد جميع الدول العربية ويغدو لها جيش متحد واقتصاد متحد وتشريع متحد وسياسة متحدة وبكلمة واحدة جبهة متحدة قوية .

يضاف الى هذا أن الدول المرتبطة بالمعاهدات معترف باستقلالها وسيادتها التامتين وممارسة لها ، وفي شعوبها روح تمرد قوية ضد المستعمرين والزامات هذه المعاهدات ، وهم متحفزون للتفلت منها . فالاتحاد والحالة هذه من شأنه ان يبث القوة ويشدد العزيمة في سبيل النضال والفكاك في شعوب هذه الدول قبل غيرها .

وتطور روح العالم وما أثاره من روح التمرد والتوفز والتحفز في الأمم الشرقية يعسر يوماً بعد يوم استمرار نظام الاستعمار والمعاهدات التي تقوم على عدم التكافؤ وأساليب الشباك والتطويق الراهنة فضلاً عن أنه يجعل امتداد ذلك الى ما هو سليم منه اشد عسراً . وقد نجا بقوة هذا التطور بلاد أغنى وأوسع من البلاد العربية المقيدة بالمعاهدات كاندنسيا والباكستان والهند وكانت يد المسيطرين عليها أشد وطأة فيها منها في بلادنا . ولقد نجت سوريا ولبنان كذلك بقوة هذا التطور مع ما كان من شدة اليد والمطامع والمزاعم الافرنسية .

ولقد أخذت الدول العربية المرتبطة تسعى جاهدة في سبيل الفكاك ولم تعد تسيغ ما كانت تسيغه من قبل ، ولم يسع الدول المسيطرة الا الملاينة والمسايرة والتأويل والتفسير مما يؤيد ما قلناه من امكان النجاة وقوته بالاتحاد من جهة وعبر الامتداد من جهة اخرى . هذا الى ان الدول الناجية قوية الشعور بخطورة ما تتمتع به من عزة وكرامة وانطلاق وفخورة به وشديدة الحرص عليه . ومن العسير ان تخدع عن امرها وتغفل عن اي شبكة تنصب لها . وليس من الصعب ان توجد الصيغ والتحفظات التي تضمن لها ما تتمتع به من حرية وانطلاق فوق ذلك .

وإذا تعذر السير في مرحلة الاتحاد العام مرحلة واحدة فلا مانع من السير فيها على مراحل ايضاً حيث يقوم الاتحاد في اول الامر بين البلاد المتقاربة في الحياة العصرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية اي مصر وسوريا والعراق والاردن ثم تبذل المساعي لاتمام السلسلة .

— ٦ —

وخير من يتبنى الدعوة الى هذه الخطوة بل وأولى من يتبناها مصر فهي وسط العالم العربي وقلبه بالنسبة لمشارق العرب ومغاربهم وهي الاكثر عدداً والاكبر اسماً والاوسع صيتاً . وتبنيها للدعوة يقع هيناً مهضوماً من الدول العربية الاخرى لمختلف الاسباب والاعتبارات الوجيهة ولاسيما بعد الاحداث التي تمت فيها .

ومصر ليست غريبة عن مثل هذه الحركة تاريخياً حيث كانت تسعى دائماً لجمع شمل البلاد العربية تحت لوائها وقد نجحت في ذلك مراراً وكان نجاحها تحت راية صلاح الدين واستمرار ذلك في عهد خلفائه الايوبيين وملوك الدولة التركية كفيلا بانقاذ فلسطين وانزال الضربة القاصمة على الافرنج الغزاة الذين لم يكتب لهم النجاح في جولتهم الاولى الا لسبب تشتت شمل العرب وانفصام وحدتهم وتفرق كلمة

ملوكهم واستغراقهم في السياسة الشخصية وتغليبها على المصلحة العامة حتى طهرت البلاد منهم نهائياً سنة ٦٩٢ هجري تحت لواء الملك الاشرف ملك مصر والشام . وقد كادت هذه الخطة تتحقق من جديد في أواسط القرن السابق تحت راية محمد علي الكبير لولا تدخل الانكليز الذي ادي الى انكفاف يده عن بلاد الشام بعد ان توحدت مع مصر وبدت تباشير مملكة عربية اسلامية كبرى تضم مصر والسودان والحجاز والشام والعراق وكيليكيا .

ويقوم على امر مصر الان فئة ثبت حسن نواياها وروحها وسعة افقها ونفاذ بصيرتها واندماجها بالفكرة العربية الحديثة وأهدافها وقدرتها على الاضطلاع بدعوة خطيرة مثل هذه الدعوة ، وهذا مايجعلها أهلا للدعوة مستجابة اليها . وما تم في مصر من احداث قد وجه اليها انظار العالم العربي وبعث فيه الآمال الجسام وهيأ فرصة ذهبية للدعوة والاستجابة اليها ، ومن حسن الحظ ان قائد الحركة لايفتأ يصرح عن أمله بقيام ولايات عربية متحدة ورغبته في تحقق ذلك في القريب العاجل ؛ ويردد هذا القول كثير من رجال الحكومات العربية المسئولين فضلا عن ترديده من قبل جمهرة رجال الامة العربية البارزين فيجب على الواعين القادرين من ابناء الامة العربية في مختلف الاقطار أن يغتنموا هذه الفرصة ويتجهوا إلى مصر ويهيبوا بها لتقدم على تبنى هذه الخطة وتوليها عنايتها العظمى فتجدد بذلك عهد صلاح الدين في جمع شمل العرب في وقت اشتد فيه تكالب الاعــداء والكائدين عليهم ونشب في قلب بلادهم جرثومة سرطان خبيثة وهي الجرثومة اليهودية ، وغدت الحاجة الى جمع الشمل مثلها في ذلك العهد او أشد .

— ٧ —

على ان من الواجب على الواعين من صحفيين واساتذة وكتاب وخطباء ووعاظ ان لايقفوا مكتوفي اليد ازاء ما يجب من علاج سريع الى ان تنضج دعوة مثل هذه وفي طريقها من العقبات والعثرات بسبب تلك الاعتبارات المجرمــة الشديدة الاثر ما لا يمكن تجاهله ؛ فهناك مجال الدعوة الى وحدة اقتصادية على الاقل تشمل شؤون النقد والمواصلات والجمارك وحرية التنقل والاقامة

والعمل فتكون مقدمة نافعة جداً للوحدة السياسية والعسكرية ، وفرجا لسكان البلاد العربية يتسع لهم به المجال في سبيل تحسين اوضاعهم الاقتصادية والمعاشية ويزداد به التواثق بينهم قوة وشدة . وقد كان مثل هذه الوحدة سبيل الوحدة السياسية الالمانية في القرن الماضي كما لا يخفى ؛ ولقد كانت المانيا منقسمة الى دول وامارات كثيرة جداً ، وكان هناك اعتبارات متنوعة تحول دون وحدتها السياسية فكانت الوحدة الاقتصادية خطوة اولى اليها . وهناك مجال الدعوة الى جعل معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي ودستور جامعة الدول العربية نافذتين نصاً وروحا. ففي الاولى وسيلة للتضامن والتعاون العسكري والاقتصادي وفي الثاني وسيلة لتوطيد التقارب والتطابق في شؤون كثيرة مما نصت عليه النصوص التي نقلناها قبل قليل . وبهذا او ذاك يمكن ان يسد شيء من الفراغ الهائل في دنيا السياسة العربية الى ان تنضج مثل تلك الخطة والدعوة او يقوي الوعي القومي العام ويغدو كاسحاً ويستطيع ان يملي ارادته في الوحدة الصحيحة ويحطم كل عقبة تقف في سبيل هذه الارادة او يقيض الله من يوطدها بالاسلوب الذي توطدت به الوحدة بين الشعوب والبلاد الشقيقة قديماً وحديثاً . فان من الخطر كل الخطر ان يبقى هذا الفراغ الهائل في دنيا السياسة العربية لأنه سبب كل ما يحدق بالعرب من ذل وهوان وضعف وخفة وزن واعتبار وطمع واستهتار ، وما يرتكسون فيه من سوء حالة اقتصادية ومعاشية ؛ ومن الجريمة كل الجريمة ان لايبالي الرؤساء والساسة ومن الواجب كل الواجب على كل واع وقادر ان يعمل كل مايمكنه في سبيل حملهم على الاذعان وتقوى الله في امتهم وبلادهم .

ولقد يسرت الحركة الانقلابية المصرية سبيل التعاون والانسجام الواسع بين مصر وسورية كما قلنا قبل وهما أكثر الدول العربية تحرراً سياسياً واجتماعياً . فعلى الواعين من أبناء البلدين أن تشتد دعوتهم الى أن يخطوا رجال العهد فيهما خطوة جريئة في هذا المجال فتكون خطوتهم نواة الاتحاد العربي العام ومرحلته

الأولى اذا كانت هناك عثرات وعقبات شخصية او اقليمية أو أجنبية تقف في طريق الوحدة أو الاتحاد العام ولا سيما ان مصر والشام كانتا في أغلب ظروف التاريخ القديم والمتوسط متحدتين سياسياً وعسكرياً واقتصادياً .

وما عرف عن كميل شمعون رئيس الجمهورية اللبنانية الجديد من قوة العروبة والاندماج في أهدافها والرغبة في توثيق الأواصر بين البلاد العربية ، والنقمة على مشاهد التخاذل والتدابر بينها ، وما بدر منه عقب انتخابه من تصريحات قوية في هذا الباب يبعث في النفس املاً في تجاوب لبنان مع هذه الدعوة إذا ما اشتدت .

(٣) مشكلة فلسطين

-١-

لقد غدت قضية فلسطين من مشاكل العرب السياسية الخطيرة وعقدة من عقدهم النفسية والاجتماعية والقومية معا . ولن يقوم لهم اعتبار في نظر أنفسهم وفي نظر غيرهم الا بعد حلها مهما قووا بتنفيذ معاهدة الدفاع المشترك أو دستور جامعة الدول العربية نصاً وروحاً أو بالاتحاد .

فقد حطمت كارثة فلسطين ثقتهم في أنفسهم وأذلتهم في نظر أنفسهم وفي نظر العالم الغربي ذلا ليس بعده من ذل ، وانتهت بغرس خنجر مسموم في قلب بلادهم فصل بين شمالها وجنوبها . وغدا شرفهم وكرامتهم ومستقبلهم وكيانهم منوطاً بحلها الذي يجب ان يكون سريعاً وان يكون باقتلاع الخنجر بالمرة . وكل ماطال الزمن وتأخر هذا الحل توطدت الدولة اليهودية وعمقت جذورها وكثر عدد سكانها وعظمت امكانياتها واستعداداتها وصار اقتلاعها أو تغيير شيء من معالمها الراهنة على الأقل اشد تعذراً وصعوبة ، وغدا ضررها وخطرها العسكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي على جميع العرب وبلادهم أشد واعظم .

والمتتبع للحوادث يرى اليهود ناشطين في سبيل ايقاع هذا الضرر أشد النشاط وهم ينتهزون كل فرصة ومناسبة لمعاكسة مصالح العرب ومساعيهم وتشويه اسمهم في الاوساط الدولية العامة والخاصة ، وهم دائبون على الاستعداد الحربي بكل قوتهم وعلى بث الطموح في اليهود وارسال التصريحات التي تنطوي على سعة

مطامعهم ونياتهم سواء لما يريدون ان تكون عليه دولتهم من قوة أو بالنسبة لما يبيتونه من مطامع في البلاد المجاورة لهم . (١)

(١) جاء في خطاب ألقاه أحد زعماء اليهود في برلمانهم في ٧ / ٤ / ٩٥٠ لن يكون سلام لشعب اسرائيل ولا لأرض اسرائيل حتى ولا للعرب مادمنا لم نحرر وطننا باجمعه بعد حتى ولو وقعنا معاهدة صلح .

وجاء في خطاب لنائب آخر ألقي بتاريخ ٣٠ / ٣ / ٩٥٢ أن اسرائيل العظمى الممتدة من العراق حتى السويس هي الدولة القوية التي تستطيع تأمين السعة والاستقرار في الشرق الاوسط في الداخل والخارج .

وجاء في الكلمة الرسمية للحكومة اليهودية فى مؤتمر الكيرن كييمت المنعقد في القدس التي القاها بالنيابة عن الحكومة الحاخام يهوداوزير الاديان بتاريخ ٧/ ٨ / ٩٥١ – « مازال أمام الكيرن كييمت – صندوق رأس المال القومي – أعمال عظيمة . ان دولة اسرائيل كلها أمامها وان حدود هذه الدولة هي من النيل الى الفرات » وجاء في كتاب « اسرائيل واحترابها لابن غوريون رئيس الحكومة اليهودية : ان حرب التحرير الواقع لاتشكل الفصل الاخير في تاريخ الهاجاناه وانما هي الفصل الاول في المرحلة الجديدة لتاريخ الوطن والأمة اليهودية .

وجاء في خطاب للدكتور التمان في البرلمان في تاريخ ٢٩ / ٧ / ٩٥١ ان جمع الشتات معنـــاه حشد خمسة ملايين يهودي على الأقل في دولة اسرائيل خلال السنوات العشر – القادمة وهذا شيء لايمكن اتمامه في الحدود الحالية لدولة اسرائيل ولذلك فان جمع الشتات يتطلب سياسة خارجية ترمي الى تحرير جميع أرض اسرائيل .

وجاء في خطاب القاه يادين قائد الجيش اليهودي في شهر تموز ٩٥٢ ان جيشنا قادر على السير في الحرب الى داخل بلاد الاعداء وان حدود اسرائيل ليست طبيعية ويجب تغييرها .

والتصاريح والاقوال في هذا الباب لاتقع تحت حصر وهي تتجدد كل آن بأساليب متنوعة .

ولليهود خريطة لمملكة اسرائيل الكبرى منقوشة على مداخل مؤسساتهم ومعلقة في صدور قاعاتهم وأنديتهم ومعاهدهم وفي باب مجلسهم النيابي تشتمل على فلسطين والأردن وسورية ولبنان ومصر والعراق .

ومن شأن ما اكتشفته حكومة العراق في سنة ١٩٥٠ من مخازن السلاح والعتاد والمتفجرات في بيوت اليهود ومعابدهم وعليه دمغة اسرائيل واميركا ، وما وضعت عليه يدها من وثائق خطيرة تدل على أن في بلادها وفي بلاد العرب منظمات ارهابية وجاسوسية وعلى انهم كانوا ينوون نسف بغداد بدءاً من مؤسسات الجيش والبوليس ودوائر البرق ومؤسسات الكهرباء والاذاعة ثم تتبعها عمليات التدمير في بقية الاحياء على ما جاء في البلاغات والتصريحات الرسمية العراقية ان يكون نذيراً قوياً للعرب بما هم معرضون له من مكائد ودسائس يهودية في عقر دارهم فضلاً عن المطامع والنزعات التوسعيه التي سجلت على جدار البرلمان اليهودي « من الفرات الى النيل أرضك الموعودة يا إسرائيل » والتي تكرر كل يوم في الأناشيد الرسمية اليهودية والتي سوف تشتد كلما كثر عدد اليهود وعظمت امكانياتهم واستعداداتهم والتي سوف ينتهز اليهود كل فرصة لتحقيقها بكل ما في طوقهم . والاخبار التي تنشر عن استعدادهم العسكري العظيم ومناوراتهم المتكرره تدل على أنهم سائرون بكل جد في هذ السبيل .

— ٢ —

ومن الغفلة أن نؤخذ بما يذاع عن تدهور اسرائيل الاقتصادي واختلال ميزانها التجاري . فمع ما في ذلك من حقيقة فان فيه شيئاً غير يسير من المبالغة بقصد دعائي في سبيل الاستقراض ونيل معونة اميركا والجمع واللم من يهود العالم ، هذا فضلا عن أنه طبيعي لان اسرائيل في دور الانشاء والتكوين ، وهي تبذل مجهوداً في مختلف الميادين للوقوف على قدميها اقتصادياً . والبوادر تدل على أنها سائرة في هذا السبيل قدماً . وحالتهـا على كل حال أحسن من حالة العرب في أحسن بلادهم دخلا ومستوى معيشة وميزانية دولة ونشاطاً وحركة وحيوية .

فليس هناك دولة عربية إلا ميزانها التجاري مختل كثيراً أو قليلاً واقتصادياتها في حالة تدهور وانحطاط .

وقد نقلنا في منـــاسبة سابقة ارقام نصيب الفرد في اسرائيل من الدخل القومي وميزانية الدولة . ونصيب الفرد من الدخل القومي اكثر من ضعف نصيب الفرد في أحسن البلاد العربية حيث هو /٢٦٦/ جنيهاً اسرائيلياً قيمتها الخارجية (٧٥) جنيهاً صحيحة في حين ان نصيب الفرد في سوريا التي هي أحسن البلاد العربية دخلا قومياً لا يزيد عن (٣٨) جنيهاً ، ونصيب الفرد من ميزانية الدولة هو (٧٥) جنيها اسرائيليا قيمتها الخارجية (١٩) جنيهاً حقيقية في حين أن نصيب الفرد في مصر التي هي أضخم البلاد العربية ميزانية وأرقاها رقماً من حيث النسبة هو عشرة جنيهات .

والتطور في أرقام الدخل والميزانية يدل على ان الحالة تسير نحو النمو والتحسن أيضاً . فالميزانية العادية للدولة كانت سنة ١٩٤٩ (١٨٫٩٣١٫٠٠٠) لعشرة أشهر فقفزت سنة ١٩٥٠ الى (٤٣٫٠٦٧٫٠٠٠) وسنة ١٩٥١ الى (٦٨٫٦٠٢٫٠٠٠) وقد قدرت ميزانية الدولة العادية والخارقة لسنة ١٩٥٢-١٩٥٣ بمبلغ (١٦٨٫٤٥٠٫٠٠٠) جنيهاً . وقد قدر الدخل القومي لسنة ١٩٤٩ بمبلغ (٢٤٠) مليوناً وقفز سنة ١٩٥٠ الى (٣٣٧) مليوناً (١)

وقد تلقت اسرائيل وما تزال تتلقى مبالغ ضخمة من هبـات وقروض واعانات من الحكومة الاميركية والبنك الدولي ويهود اميركا والعالم . وبفضل هذه المبالغ استطاعت ان تستقبل نحو ثمانمائة الف مهاجر خلال السنين الاربعة المنصرمة وأن تهيء لمعظمهم المساكن والاعمال ، وان تكون مستعدة لاستقبال مئتي الف مهاجر في السنة ..

---

(١) الارقام مأخوذة عن رسالة « اسرائيل خطر عسكري وسياسي واقتصادي » المنشورة من قبل مكتب اتحاد الغرف الزراعية والصناعية والتجارية العربية ومستندة الى وثائق رسمية يهودية.

والخطط الاقتصادية الاسرائيلية تهدف الى تحقيق درجة الاكتفاء الذاتي في عام ١٩٦١ حيث تستطيع حينئذ ان توازن بين الصادرات والواردات دون اي اعانات اجنبية وعلى اساس بلوغ درجة معقولة بالنسبة لمستوى المعيشة .

ولقد خطت اسرائيل خطوات واسعة في سبيل ذلك حتى ان تتائجها سوغت لوزير زراعتها ان يقول ان الاكتفاء الذاتي سيتحقق في سنة ١٩٥٨ بدلاً من سنة ١٩٦١ في بيان ذكر فيه اطراد اعمال التنقيب في منطقة النقب بصورة مرضية قائلا انها ادت الى اكتشاف خامات النحاس والمنغنيز والحديد والكاولين والفوسفات ما قد يسمح لاسرائيل ببلوغ درجة الاكتفاء الذاتي في عام ١٩٥٨ بدلا من عام ١٩٦١ كما كان مقدراً من قبل . وقد تضمن بيان وزير الزراعة تقديراً بان قيمة الانتاج في منطقة النقب ستصل خلال السنوات الخمس التالية الى قرابة (٨٠) مليون دولار وان ثلاثة ارباع الانتاج سيخصص لأغراض التصدير على ما جاء في تقرير نشرته جريدة المصري في عددها ٢٢ حزيران سنة ١٩٥٢ .

ويستفاد مما جاء في هذا التقرير ان اليهود قد وضعوا خلال الثمانية عشر شهراً التي انتهت في سبتمبر (١٩٥١) اسس (٦٠٨) مشاريع صناعية جديدة . وقد تم انشاء (١٩٩) مصنعاً منها برأس مال قدره (٥١) مليون دولار ومازال تحت الانشاء (٢١٣) مصنعاً رأس مالها (٦٢) مليون دولار و (١٩٦) مصنعاً رأس مالها (٥٥) مليون دولار . ومن هذه المصانع (١١٩) للالات الزراعية وأجهزة التبريد والعربات وأجزاء الماكنات و (٩٨) مصنعاً للاقمشة والملابس و (٨٩) مصنعاً للصناعات الغذائية و (٥٩) مصنعاً للوازم البناء و (٥٤) للمنتجات الكيمائية كالاسمدة والاحماض والصباغـــة و (٥١) مصنعاً للالات الكهربائية كالموتورات واجهزة الراديو والثلاجات و (١٤) مصنعاً للمطاط

و (١٢٤) مصنعاً لانتاج الورق والجلود والبلاستيك والزجاج . وهذا غير عشرات المصانع التي انشأتها الشركات الاجنبية لمختلف المصنوعات الميكانيكية .

وقد صحب هذا التطور الصناعي بدء استغلال الخامات المعدنية في منطقة النقب . والمقدر ان يصل متوسط الانتاج من جميع المعادن المكتشفة بكميات تسمح باستغلالها تجارياً وهي الفوسفات والكاولين والحديد والرمل الزجاجي والمنغنيز والنحاس والميكا والفلسيار خلال الخمسة والعشرة اعوام القادمة بالنسبة للفرد الواحد في اسرائيل الى نفس متوسط الانتاج في الدول الصناعية الكبرى في العالم كما جاء في التقرير المذكور آنفاً .

ومما جاء في تقرير مكتب اتحاد الغرف الصناعية والزراعية والتجارية العربية ان الدكتور نيسوروفتش احد كبار موظفي وزارة المالية اليهودية قد وصل في بحثه الاحصائي الى انه كان في اسرائيل سنة ١٩٥٠ (٧٢٧٤) مشروعاً صناعياً في حين لم يكن عدد المشاريع الصناعية اليهودية في سنة ١٩٣٠ الا (٦٢٤) مشروعاً . والمشاريع الصناعية المذكورة موزعة على مختلف الصناعات من صناعات المؤون والأطعمة والاشربة الى صناعات النسيج القطني والصوفي والحريري الى صناعة الالبسة الى صناعات المعادن الى صناعات المواد الكهربائية والبنائية والقرطاسية وغيرها ...

ولم يكن جهدهم في المجال الزراعي يسيراً . فقد كان عدد التراكتورات مثلا سنة ٩٤٧ (٦٩٣) فاصبح سنة ٩٥١ (٤٠٠٠) وكانت مساحات اراضي الري (١١٠٠٠٠) دنما فغدت ٢٢٠٠٠٠) وكانت مساحة الاراضي التي تزرع بالعلف والخضار (١٠٤٠٠٠) دونما فغدت (٣٤٠٠٠٠) دونما على ما جاء في التقرير الآنف الذكر .

وهكذا يبذلون كما قلنا الجهود الجبارة في استغلال امكانياتهم وتحسين حالتهم الاقتصادية فضلا عن جهودهم العظيمة في سبيل التجهز والاستعداد الحربي بحيث يمكن أن يقال ان من المرجح ان يصلوا فعلا الى الاستكفاء والازدهار الاقتصادي

الذاتي في سنوات معدودات وان يصلوا في مثل هذه السنوات الى درجة كبيرة من القوة لا تكفي فقط للدفاع عن كيانهم ازاء كل حركة عربية هجومية بل تكفي لحركات توسعية هجومية يقومون هم بها في بقية فلسطين وفي ما يستضعفونه من مجاوريها ، وقد تعودوا من العالم كما قلنا الرضوخ لما يحدثونه بالقوة من امور واقعة وان يلقوا الحماية والتعضيد من الدول الكبرى وخاصة انكلترا واميركا .
ولاشك في انهم يعرفون ان البيان المشترك الذي اعلنت فيه فرنسة وانكلترا واميركا وعرف بالبيان الثلاثي معارضتها لكل تبديل في الحالة الراهنة بالقوة انما هو موجه للعرب وليس لهم كما هو في حقيقته . والمقدر أن يصل عددهم خلال عشر سنين الى اربعة ملايين . فهم الآن ميليون ونصف وسيأتيهم سنوياً مئتا الف، وسيزيدون نصف ميليون زيادة طبيعية لأن وفيات الاطفال عندهم قليلة جداً .
واذا ذكرنا ان هولاندا وبريطانيا سيطرتا على اندونوسيا والهند اللتين عدد سكانها عشرة اضعافها واللتين تبعدان عنها الاف الاميال بالقوة واستغلتا خيراتها وثرواتها الهائلة مئتي سنة وزيادة وليس العرب احسن حالا من الهنود والاندونوسيين وليس اليهود اقل قدرة وفناً وقابلية وثقافة وطموحاً من الهولانديين والانكليز ان لم نقل يفوقونهم بدليل ان اليهود يسيطرون في بريطانية واميركا وفرنسة وكانوا يسيطرون في المانيا وروسيا على مرافق الحياة الاقتصادية والصناعية والفنية والدعائية بل والسياسية سيطرة عظيمة وهم لا يزيدون عن ثلاثة في المئة في اميركا ولا يكادون يبلغون واحداً في المئة في فرنسة وانكلترا والمانيا ظهر لنا ان خطر سيطرة اربعة ملايين منهم على اربعين ميليوناً من العرب وليس بينهم وبينهم موانع جغرافية ولا ابعاد شاسعة وغير شاسعة ليس وهما وانه اكيد جداً حينما يبلغون ما يهدفون اليه من الازدهار الاقتصادي والصناعي والزراعي والتجاري ومن القوة الحربية مما هم باذلون جهدهم العظيم في سبيل بلوغه ، ولسوف يخلقون حينئذ الفرص خلقاً ؛ واذا طرأت ظروف جعلت عددهم المنشود يتحقق قبل السنوات العشر فسيكون هذا الخطر قبل مضي هذه السنوات ايضاً ويجب ان لا ننسى ان معظم المهاجرين هم من الشباب والشابات وان

الشابات يعملن في كل مجال كالشباب بما في ذلك مجال الحرب الفعلية كما ثبت هذا في حرب فلسطين والحركات العدوانية التي بدرت من اليهود بعدها ، وان القوة العاملة في المجموعة اليهودية في فلسطين تعتبر من اجل ذلك ضعف قوة اي مجموعة اخرى في أوروبا واميركا فضلاً عن البلاد العربية من حيث القيمة المددية ؛ وحتى على فرض ان الدول العربية تقوى يوماً فيوماً وانها قد تستطيع الدفاع عن نفسها ضد اي حركة عدوانية وخاصة سورية ومصر فان بلوغ عدد اليهود ذلك المبلغ واستقرارهم سيجعلان خطر توسعهم حتى تشمل سيطرتهم بقية فلسطين ثم تمتد الى شرق الاردن ولبنان قائما بل واكيداً ؛ وعلى اقل تقدير سيجعلان احتمال تطهير فلسطين منهم واعادتها الى الحوزة العربية ضربا من المستحيل .

- ٣ -

ويشبه بعض العرب كارثة فلسطين بكارثة الاندلس وهو تشبيه فيه كثير من الخطأ . فمهما عظمت مصيبة العرب بفقد الاندلس التي دام سلطانهم وازدهرت حضارتهم فيها ثمانية قرون فانها ليست على كل حال موطنا من مواطن العرب الأصلية ، وإنما هي قطر غير عربي الجنس والدار ، ومثله كمثل أقطار عديدة فتحها العرب ثم قوضوا خيامهم عنها دون أن تتأثر بذلك مواطنهم الاصلية ، وهذا عكس فلسطين التي هي منذ أقدم أزمنة التاريخ موطن من مواطن الجنس العربي وعقدة صلة بين الشمال والجنوب منها ، أي أنها جزء من كيانهم القومي يتأثر بضياعه سائر اجزائهم كل التأثر ومن كل اعتبار . ومنذ أن غدت أقطار الشام والعراق ومصر وشمال افريقيا مواطن للجنس العربي في دور عنصريته الصريحة الممتدة الى الآن قبل الاسلام وبعده ، ومنذ غدت صلتها لاحمة كل اللحمة بمنبت الجنس العربي الاصلي وهو جزيرة العرب ظلت هذه الاقطار متصلة ببعضها دون أي قاطع جغرافي أو عنصري . فقيام الدولة اليهودية في فلسطين جاء خارقا لهذه الحقيقة التاريخية وقاطعاً قوى الاثر بين المواطن العربية .

ويشبه بعض العرب والمسلمين حركة استيلاء اليهود على فلسطين كحركة الصليبيين ، ويقولون ان العرب والمسلمين سوف يطهرون فلسطين من اليهود ويعيدونها عربية مسلمة مها طال الزمن كما فعلوا بالصليبيين . ومع اننا غير يائسين من رحمة الله في تحقيق هذا الامل فان من الحق ان نقول ان هناك خطأ في التشبيه ايضاً .

فالصليبيون لم يأتوا بفكرة الاستقرار . وقد حركتهم الدعايات الدينية التي كانت تخفي وراءها عوامل ومآرب عديدة لا تتصل بفكرة الاستقرار والتوطن بالنسبة لسواد الصليبيين الاعظم على الاقل . وكان لهم في اوربا اوطان وبيوت واراض ومزارع وعقارات وأهل ظلت الصلات بينهم وبينها، وكان معظم القادمين الى الشرق العربي والبلاد المقدسة يقدمون بفكرة الجهاد والثواب والاقامة الموقتة ثم يعودون من حيث أتوا .

وبين هذه الحال وحال اليهود فرق عظيم من مختلف نواحيها كما هو ظاهر . فاليهود يأتون بفكرة الاستقرار الدائم في وطنهم القومي بقوة العقيدة بقطع النظر عن سخف هذه العقيدة . وهم حينما يأتون يقطعون كل صلة لهم بالبلد الذي يقطنون فيه وينقلع من ذهنهم كل اثر منه ، وبكلمة ثانية يحرقون كل السفن التي يمكن ان تعيدهم الى مكان آخر فيغدون لا مقام لهم ولا مستقر الا فلسطين ، ويجعلهم هذا يدافعون عن كيانهم ووجودهم اشد الدفاع حتى الموت . والجيل الناشيء خلال الاربعين عاما بنوع خاص متحمس فوق هذا لقضية الوطن القومي التاريخي الكبير الشامل كل الحماس ومؤمن بها كل الايمان ومستعد للتضحية في سبيلها باعظم التضحيات كما اثبت ذلك بكل قوة في الثورة التي قام بها اثناء الحرب العالمية ضد الانكليز والتي استمرت ثلاث سنين حيث بدا منهم المثير المدهش من الجرأة والاستماتة والتضحية والزهو والاعتداد والتصميم والوطنية والعقيدة .
فاذا رسخت قدمهم مدة طويلة وكثر عددهم حتى بلغ الملايين الكثيرة صار متعذراً جداً ان لم نقل مستحيلا ان يقتعلهم العرب والمسلمون كما فعلوا بالصليبيين ،

ولاسيما ان اليهود قد اقنعوا المعسكر الغربي ان اسرائيل جزيرة غربية في البحر الشرقي العربي في كيانها وحياتها وثقافتها ونظمها واساليبها ، وانها المركز الستراتيجي الطبيعي المأمون للغرب في هذا البحر وان العرب اعداء طبيعيون له لن يزالوا يناوؤونه حتى يتفلتوا من نفوذه وسيطرته ، وان ما يمكن ان يهيئوه من قوى حربية تعدل بقيمتها التنظيمية والروحية والحربية ما يمكن ان يقدمه جميع الدول العربية من قوى بسبب روحهم العدائية وفوضاهم ، وقد حصلوا وما زالوا يحصلون بقوة هذا الاقناع على كل ما يقويهم من مال وسلاح وحماية وتعضيد . وآخر ما حصلوا عليه بضغط ترومان وحكومته الديموقراطية خاصة التعويضات الضخمة التي تبلغ نحو ثلثمائة مليون جنيه من المانيا الغربية . وقد اعترف الالمان بالضغط بكل صراحة ووقاحة معاً. وهو شيء بديهي لانهم لا يمكن ان يمنحوا حكومة اعدائهم الالداء مثل هذا المبلغ العظيم من تلقاء انفسهم ، ولاسيما ان بلادهم ما تزال تقاسي آثار الحرب المدمرة . وهم الآن بسبيل حركة جديدة هادفة الى الحصول على المزيد من المساعدة والتأييد ؛ فقد توترت العلائق بينهم وبين الدول الشيوعية بسبب طبيعة اليهودي التي تجعله غير مخلص لغيره في أي ظرف ومكان وموقف مها فعل هذا الغير معه من خير - وهم جواسيس في في اميركا لروسية وجواسيس لروسية في اميركا - ، وقطعت الصلات السياسية بينهم وبين الاتحاد السوفياتي ، فجاءت هذه الحادثة فرجاً لهم حتى كأنهم خلقوها خلقاً بعد ان فقدوا حاميهم الاكبر ترومان وحزبه ، فاخذوا يقومون بدعاية واسعة شديدة في الولايات المتحدة ليقنعوا حكامها الجدد الجمهوريين بانهم غدوا ضحية لهم وان ما يواجهه اليهود في بلاد الدول الشيوعية هو في سبيلهم ، وان في ذلك تملقاً للعرب وكسباً لهم ، وان عليهم ان يضاعفوا مساعداتهم وتأييدهم لهم ليواجهوا الموقف الذي ترتب على توتر العلائق بينهم وبين اعدائهم وايواء الفارين من البلاد الشيوعية كما ان عليهم ان يحذروا من العرب لأنهم سيزدادون تقرباً الى الدول الشيوعية الخ ...

— ٤ —

ولا يكفي مايبدومن ادراك رجالات العرب الرسميين لمطامع اليهود واهدافهم وخطرهم العاجل والآجل وتكرارهم ذلك في مختلف المواقف والمناسبات اذا ظل سلبياً وفي نطاق الكلام الذي اتقنا فنونه كل الاتقان .

ولا يكفي كذلك ما بدا الى الآن من الدول العربية من تصميم على عدم مصالحة اليهود وعلى احكام الحصار الاقتصادي حولهم . فهذا موقف سلبي ايضاً قصاراه انه اضعف الايمان . وليس من شأنه ان يمنع بل ان يحد من نمو اليهود وقوّتهم كيفية وكمية بمقياس واسع . واخشى ما يخشى اذا طال الامر كثيراً ان يصبح وجود الدولة اليهودية عقيدة راهنة عند رؤساء العرب وساستهم او عند بعضهم على الأقل ، وان تخرق الاجماع العربي البادي الآن على عدم مصالحتها وعلى احكام الحصار حولها ، ولاسيما انها تبدي تهالكاً عظيماً على الصلح مع العرب ورفع حصارهم عنها ، ولن تألوا جهداً في بث الدسائس والوساوس والتوسل بمختلف وسائل الاغراء لخرق ذلك الاجماع وايجاد ثغرة واسعة بين العرب تنفذ منها الى سائر بلادهم اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً فيتحقق الخطر العظيم الذي تبدو أماثره ويقع العرب جميعهم فريسة سهلة في انيابه ولا يغنيهم ندمهم وحسرتهم على ما فاتهم فتيلا . وحماة اليهود القادرون يبذلون كل جهد في سبيل هذا الغرض بمختلف اساليب الضغط والاغراء والالحاح والتهديد والدس . ومن عجيب امر اليهود في هذا الباب انهم يريدون نيل الصلح مع العرب بدون ثمن على شدة حاجتهم اليه وتهالكهم في سبيله مما ينطوي فيه بالغ الاستهتار بهم حيث اعلنوا وظلوا يعلنون في كل مناسبة انهم لن يتخلوا عن شبر من الارض التي في ايديهم و لن يقبلوا بعودة لاجىء واحد الى فلسطين . والعجب من امر حماتهم انهم يعلقون اهمية عظمى على مصالحة العرب مع اليهود ويرون ذلك حيوياً شديد الخطورة في خططهم الاستراتجية التي استغرقوا فيها واستهانوا بكل شيء في سبيلها على اعتبارها مسألة حياة وموت لهم ، ومع ذلك فانهم لم يحاولوا بجد ان يحملوا اليهود على تبديل

موقفهم والتراجع عن بغيهم وتنفيذ قرارات هيئة الامم مع انهم لو حاولوا ذلك بجد لاستطاعوا حملهم على ذلك التبديل لان حياتهم في ايديهم وقيامهم قائم بهم ، بل انهم يثابرون بكل وسيلة على تأييدهم في كل خطوة باغية يخطونها ومدهم بكل معونة وقد كان موقفهم الاخير في هيئة الامم في نهاية سنة ٩٥٢ شديد الصراحة والجرأة والاستهتار بالعرب وقصد اهمال تلك القرارات بل ونسفها واعتبار واقع اليهود الحاضر واقعاً لا معدى عنه ولا سبيل الى تعديله ؛ وقد تبنوا حجة اليهود في عدم اتساع فلسطين للاجئين بعد سيل المهاجرين اليهود المتدفق في حين ان في شرق الاردن وسوريا خاصة متسعاً لهم وحاجة شديدة الى ايديهم العاملة فضلاً عن انهم سيكونون اذا عادوا مثار مشاكل كبرى لا تساعد على السلم والامن في فلسطين والبلاد المجاورة . ويضيف اولئك الحماة المتآمرون - ونعني بهم خاصة انكلترا واميركا - الى هذا حجة اخري وهي انه ليس من مصلحة اللاجئين قبل غيرهم ان يعودوا ليعيشوا تحت كنف اليهود وعرضة لاضطهادهم وفي ظروف اقتصادية ونفسية صعبة جداً عليهم ، وان من مصلحتهم ان يندمجوا في البلاد العربية الأخري مع نيلهم المساعدات والتعويضات النقدية ، دون أن يستشعروا بما في هذه الحجج من مجانبة لكل حق وعدل وقيم لا يمكن أن ينسلخ منها المرء ويتجاهلها بسهولة ومقابل دريهمات بخسة ثم بما فيها من مغايرة لكل قانون سماوي وأرضي ودولي أيضاً حيث يراد من أهل فلسطين أن يصرفوا النظر عن مواطن آبائهم وقصورهم وبيوتهم ومدنهم وقراهم ومرابعهم ومعابدهم ومقدساتهم ، وقبورهم وأمجادهم وذكرياتهم ليحل فيها محلهم غزاة طارئون من آفاق الدنيا . وليتيهوا بدورهم على وجوههم ويستقروا في أرض جديدة مما ينطوي فيه بالغ الاستهتار بالعرب ومما لا يتسق الا مع منطق الظلم الاستعماري القاسي الذي تجعله مقاصده يعمي عن الحق ويتصامم عن صرخة العدل ، ويتحجر قلبه عن الاستشعار بأي شيء من القيم بالنسبة لغيره وخاصة بالنسبة لضحاياه . ومن أوقح وقاحات اليهود دعواهم أنه ليس بينهم وبين الدول العربية خلاف يحتاج الى حل وإعلانهم الاستعداد للصلح مع هذه الدول كل على انفراد وبذلهم الجهود في هذا المجال هادفين بذلك الى تقرير

كون بلاد فلسطين التي يحتلونها ليست بلد أي دولة من الدول العربية والى خرق اجماع هذه الدول على عدم الصلح معهم ومتجاهلين أن وجودهم في أصله أعظم مظاهر الخلاف بينهم وبين الدول والشعوب العربية جميعها . وأن قيام دولتهم قد قطع أو كاد يقطع صلة البلاد العربية بعضها وأن فلسطين بلد عربي لكل عربي فيه حق وأن بينهم وبين كل عربي وبين دولتهم وبين كل دولة عربية من أجل ذلك ثأر عميق لن ينتهي إلا باقتلاعهم من الأرض التي نجسوها بأقدامهم مهما طال الزمن .

على أن مانخشاه من خطر الصلح العظيم مع اليهود يظل قائماً وشديداً حتى ولو تراجعوا بعض الشيء بضغط من الدول الغربية المتهالكة على اقراره لمآربها العسكرية أو السياسية المتنوعة فان هذا التراجع لن يكون مجدياً على ماعلمتنا إياه التجارب (١) لان قصارى ما يمكن أن يتساهلوا فيه هو أن يرفعوا يدهم عن شيء تافه مما هو مخصص للعرب وأن يقبلوا بعودة عدد محدود من أصحاب الأملاك ويكون تراجعهم هذا طعما في رأس السنارة المعدة لاصطياد العرب وإيقاعهم في شبكة الخطر العظيم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والعسكري الذي يتهددهم في حالة الصلح الذي يمنحهم الوقت والنفس والوسائل ويخفف جو العداء الشديد نحوهم ونطاق الحصار القوي حولهم ، ولاسيما أن بعض السياسيين المتعاقلين الذين يسيرون بوحي الاعتبارات الشخصية والاقليمية والايحاآت والتلقينات الأجنبية المريبة قد يرحبون بهذا الطعم المسموم وما يدخل في بابه من المقترحات التافهة التي لن يكون لها الا الفائدة لليهود حالا ومستقبلاً .

ومن أجل هذا كله فان الاكتفاء بالمواقف السلبية والصبر على اليهود طويلا وفسح أي مجال لهدوءهم وطمأنينتهم خطر كل الخطر على كيان العرب وبلادهم ومصالحهم الخاصة والعامة والداخلية والخارجية والسياسة وغير السياسة . ومن أعظم واجبات العرب والحالة هذه ان لايضيعوا لحظة واحدة في التفكير والتدبير

(١) في الجزء الخامس من كتابنا حول الحركة العربية الحديثة شيء كثير من مراوغات اليهود أثناء نشاط لجنة التوفيق في لوزان سنة ١٩٤٩

لدفع هذا الخطر بالعمل الجدي في اسرع وقت ممكن . ومن اعظم الجرائم العظمى التي يقترفها القابضون على ازمة امور العرب ان يتوانوا في هذا الواجب ولا سيما انهم كما قلنا مدركون لمدى الخطر الدائم التي يتهدد بلاد العرب كل الادراك بسبب وجود اليهود في هذا الجزء الحيوي من بلادهم من حيث المبدء وبما يمكن أن يمكن لهم الصبر عليهم من نمو ورسوخ .

— ٥ —

وليس من شأن غير القوة أن تدفع هذا الخطر فضلا عن أنها هي المعول الوحيد لغسل العار الشديد الذي ألحقه اليهود وأنصارهم بالعرب ، واسترداد اعتبارهم في نظر أنفسهم ونظر الدنيا . ويجب أن يتم هذا خلال سنة أو سنتين على الا كثر أي قبل أن يستفحل أمر اليهود لأن الوقت ضد العرب بالنسبة لهذه القضية خاصة من حيث أنه كل مامر رسخت قدم اليهود وتعذر إقتلاعها . وكل أمل واحتمال في حل مشكلة فلسطين على نحو ايجابي ومرض لكرامة العرب وحقهم ودافع للخطر الذي يهددهم بغير القوة خائب وعبث . ونعتقد أن جميع ذوي الشأن من العرب الرسميين فضلا عن غيرهم يعتقدون هذا في قرارة أنفسهم وكثير منهم لايفتأ يصرح به في مختلف المناسبات وهو بديهي جداً . فغير العرب هم ضد العرب صراحة وضمناً وسكوتاً مادام العرب لا يمدون الى القوة . واليهود في المجال السياسي أقوى وسائل وتأثيراً من العرب حتما من حيث قدرتهم على احباط أي مجهود عربي سياسي ، وتحقيق كل مايرغبون فيه من أمور تساعدهم على تدعيم مركزهم ورسوخ قدمهم اذا ما تساجلوا مع العرب في هذا المجال . وقد ثبت هذا خلال السنين الاربع بصورة لم يبق معها أي مجال للظن والتعلل . واليهود يدركون هذا إدراكاً جيداً . وبقوة هذا الادراك جرأوا على الاستهتار بقرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن وتحدوهما وجعلوهما أمام الأمر الواقع مرة بعد مرة وكسبوا من جراء جرأتهم مكاسب متنوعه . وبقوة هذا الادراك قتلوا برنادوت ، ونقضوا الهدنة الثانية واستطاعوا أن يطاردوا الدول العربية من النقب ويقطعوا الصلة التي

تربط بلاد العرب الشمالية بالجنوبية ويضطروا هذه الدول الى توقيع معاهدات الهدنة المنفردة التي أملوا فيها ارادتهم وذهبت بما بقي للعرب من كرامة وهيبة ؛ وبقوة هذا الادراك سخروا بالعرب والأمم المتحدة المرة بعد المرة فوعدوا بتنفيذ قرارات هيئة الأمم واحترامها ووقعوا ميثاق لوزان في ١٢ مايس ٩٤٩ بسبيل ذلك قبيل قبولهم في هيئة الأمم التي جعلت هذا الوعد بمثابة شرط لقبولهم ثم نكصوا بعد يومين من قبولهم على أعقابهم وأخذوا يعلنون في مختلف المناسبات ان تلك القرارات غدت غير ذات موضوع وأنه لامكان عندهم للاجىء واحد ولن يرفعوا أيديهم عن شبر من أرض ولن يتراجعوا عن جعل القدس عاصمتهم السياسية وامتلاك ما بينها وبين البحر مما هو مخصص للعرب لانه طريقهم إليها دون أن يلقوا عنتاً أو غضباً ازاء هذا النكث الذي ارتكبوه والفجور الذي أعلنوه . وبقوة هذا الادراك جرأوا على خرق الهدنة مرة بعد مرة وما زالوا يجراؤن ويكسبون من جرأتهم مكاسب متنوعة . وبقوة هذا الادراك جرأوا على الهزء والاستهتار بقرار مجلس الوصاية ودستوره في صدد تدويل القدس المستندين إلى قرارات هيئة الأمم ، وجعلوا القدس عاصمة لهم ولم يبالوا باحتجاج هذا المجلس وانذاره ، وهاهم اليوم يتمو خطو تهم فينقلون وزارة خارجيتهم اليها ليجبروا الأمم التي قررت تدويلها على دوس قرارها والاعتراف بالأمر الواقع بنقل مفوضياتهم إلى القدس تبعـــاً لنقل وزارة الخارجية اليها . وما خبرناه من مطامحهم ومطامعهم وتصريحاتهم وأهدافهم يجعلنا على يقين من أنهم سوف يقفزون بعد هذا اذا صبر العرب عليهم أكثر مما صبروا قفزة جديدة فيسطون بدهم على المناطق المقدسة التي هي تحت الحكم العربي الأردني في القدس وما جاورهـــا ثم يتمون قفزتهم بالاستيلاء على الحرم الشريف بعد تشريد أهل المنطقة وإقامة هيكل لهم فيه بل وعلى انقاض مسجديه العظيمين مفخرة الاسلام والمسلمين ويضعوا العالم أمام الأمر الواقع كما اعتادوا مرة بعد مرة . وليس فيما نقول غلو أو توهم فاننا نعرف مطامعهم ومطامحهم وعقائدهم وقد جعلوا شعارهم «لامعنى لأسرائنل بدون القدس ولا معنى للقدس بدون الهيكل» . وقد أعلنوا نياتهم بصراحة منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى نحو الحرم حيث قدم

نائب رئيس الجمعية الصهيونية ورفاقه طلباً مؤيداً من رئيس الحاخامين ومجلس الربانيين في سنة ١٩٢٠ بوضع اليهود يدهم على جميع مكان الهيكل الذي هو الحرم القائم في وسط مسجد الصخرة والاقصى (١) وحيث نشر الفرد موند اللورد اليهودي الانكليزي مقالاً قال فيه ان اليوم الذي سيعاد فيه الهيكل أضحى قريباً ؛ واني ساكرس بقية حياتي لبناء هيكل عظيم مكان المسجد الاقصى . وكان هذا من أثر مابعثه وعد بلفور في اليهود من نشوة وأمل ولم يكن عددهم يزيد حينئذ عن ستين الفاً وكانت حركتهم خيالية اكثر منها حقيقية . وهم يعرفون أن قصارى ما يكون مادام الأمر في المجال السياسي هو الاحتجاج ثم التوجع والسكوت .

-٦-

وواجب العرب في هذا الباب متنوع الجبهات . فمن جهة يجب على منظماتهم وصحافتهم ووعاظهم وخطبائهم وأساتذتهم وكتابهم أن يشتدوا في الدعوة وتوجيه الشعور العام وتقويته في هذا الاتجاه . ومن جهة يجب أن يشتد اهتمام الحكومات العربية للتسلح والاستعداد والتدريب بأوسع مقياس وأسرع وقت ممكن . ومن جهة يجب السير في تحقيق نصوص معـــاهدة الدفاع المشترك بكل جد وإخلاص وسرعة ، والامران الثاني والثالث مما يجب على من ذكرناهم أن يشتدوا في الدعوة اليها ومطالبة الحكومات بها . وأفضل ذريعة الى حركة عربية في مجـــال هذا الواجب كمرحلة أولى هو مايبدو من اليهود من اصرار على عدم تنفيذ قرارات هيئة الأمم في قضايا الحدود وعودة اللاجئين وتعويضهم وتدويل القدس، فتتقدم الحكومات العربية الى الحركة على اعتبار أنها صاحبة الحق والشأن في إرغامهم على تنفيذ تلك القرارات .

ومن الجدير بالذكر أن تنفيذ القرارات يحل آلياً ٧٥٪ من مشكلة اللاجئين . لأن اليهود يحتلون تسع مدن ليست مخصصة لهم وهي القدس الجديدة والرملة واللد

---

(١) من تقرير ارسله الحاكم الانكليزي العسكري بولز في ٧ حزيران ١٩٢٠ الى القائد العام اللورد اللنبي .

وبئر السبع والمجدل ويافا والناصرة وعكا وشفا عمرو وترشيحه ويحتلون أكثر من مئتي قرية عربية تابعة لها ، فاذا رفعت أيديهم عنهـــا عاد معظم اللاجئين الى بيوتهم ، بل وأمكنها استيعاب عدد آخر من لاجئي الجهات الأخرى ، وامكن للعائدين بما خصص للتوطين من المبالـــغ أن يستأنفوا حياتهم التي دمرتها الاحداث السابقة .

وقد بحثت قضية فلسطين مرة ثانية في هيئة الأمم سنة ٩٥١ التي انعقدت في باريس فقررت تمديد مهلة لجنة التوفيق وأوجبت على الدول المعنية ـ العرب واليهود ـ حل هذه القضية وفقاً لقراراتها السابقة ، مما فيه انعاش جديد لتلك القرارات التي مر عليها خمس سنين وكان يحسبها الناس ميتة . وقد تكون الدول الكبرى المتآمرة ضد العرب في قضية اليهود وافقت على هذا القرار بناء على إلحاح مندوبي العرب وأنصارهم لتنال موافقتهم على مشروع قرار التوطين الذي يرمي الى ادماج اللاجئين في حياة واقتصاد الاماكن التي هم فيها كخديعة للعرب على اعتبار انهم اذا وافقوا على قرار التوطين ونفذ أصبحت تلك القرارات غير ذات موضوع .

فمن الواجب على الحكومات العربية رد هذا الكيد الى أهله والانتفاع بقرار توكيد القرارات السابقة الذي حملها مسئولية تنفيذ هذه القرارات والاستنادا اليه في الاقدام على هذه الحركة الواجبة . ولا نعتقد أن هذا عسير ومشكل فالحكومات العربية أعضاء في هيئة الأمم التي قررت تلك القرارات والتي كما طولبت بتنفيذها قالت إنها لا تملك وسائل التنفيذ والحكومات العربية تنتظم كذلك في منظمة اقليميه من واجبها تأمين السلامة والسلام في منطقتها . واستمرار اليهود في بغيهم وعدم تنفيذهم قرارات هيئة الأمم مما يخل بذلك . ولا سيما ان هناك مليون لاجيء جردهم اليهود من كل مقومات الحياة وهم الآن يتصرفون باملاكهم وبيوتهم وحقولهم وكرامهم وبساتينهم ومرافقهم بغياً وعدواناً وأصحابها في أشد حالات البؤس والحرمان . وبقاؤهم على هذه الحال مما يؤدي إلى الاضطراب . ونعتقد أن

اليهود يهوشون بقوتهم العسكرية كثيراً وأن هناك أقلاماً عربية تساعدهم على هذا التهويش من حيث تدري ولا تدري . ونعتقد أن قوى الجيوش العربية في حالتها الحاضرة فوق الكفاية للمهمة اذا قامت بواجبها بوحي الاعتبارات العسكرية فقط فكانت لها قيادة واحدة نافذة وخطة واحدة مدروسة مما يتكفل به تنفيذ معاهدة الدفاع المشترك ، ولا سيما أنه يرصد منذ سنتين وينفق أموال طائلة في سبيل تحسين حالة الجيوش العربية واتمام تجهيزها وخاصة في مصر وسوريا . ونعتقد أن الجيوش العربية ضباطاً وجنوداً شديدو التوق والتحرق الى منازلة اليهود واقتلاع جرثومتهم وغسل العار عن الأمة العربية بدمائهم وبطولاتهم وتكذيب اليهود في تبجحهم الكاذب بانهم قد انتصروا على الدول العربية السبع عسكرياً، مفترين بذلك على الحقيقة المعروفة من حيث أنه لم يقع حرب فعلية بينهم وبين الجيوش العربية ، ومن جيث ان خسران العرب المعركة قد كان لأسباب داخلية وخارجيه (١) ومن حيث أن الجيوش العربية ومجاهدي العرب كانوا يتحرقون على القتال والاشتباك معهم وتقديم أعظم التضحيات في سبيل تطهير البلاد منهم ، كما نعتقد أن الأمة العربية في جميع الاقطار وعلى اختلاف الطبقات والفئات مستعدة للتجاوب مع أي حركة ودعوة في سبيل ثأر فلسطين وغسل عارها ، ومستعدة لتقديم كل تضحية تتطلب منها ، وقبول كل أمر يفرض عليها بكل حماس وتحمل إذا ماجد الجد ورأت من حكوماتها عزماً وتصميما . وفي كل مناسبة يقوم البرهان على ذلك ، وقد كانت كارثة فلسطين وعارها من أقوى حوافز الحركات الانقلابية والاحداث الدموية التي حدثت في بعض البلاد العربية ، والتي كانت يتلقاهـــا الجمهور بالارتياح والابتهاج والتأييد .

واليهود في كل يوم يخرقون الهدنة باعتداآتهم وبغيهم . وفي احصاء رسمي أذاعته لجنة الهدنة الأردنية عن عدوان اليهود على الحدود الاردنية وحدها أنه خلال ٢٦ شهراً أي من أول كانون الأول عام ٩٤٩ حتى ٣١ كانون الثاني عام

(١) في الاجزاء الثالث والرابع والخامس من كتابنا حول الحركة العربية تفصيل واف عن سير وتطورات القضية الفلسطينية وحربها .

١٩٥٢ اعتدوا (٦٢٤) مرة من هذه الحدود وان عدد ضحايا هذه الاعتداءات من العرب يبلغ أكثر من مئة قتيل و٨٥ جريحاً و٨٣ مفقوداً ومن بين هذا العدد (٣٠) امرأة و (٣٥) طفلا بين قتيل وجريح وخمس نساء وعشرة أطفال مفقودين. وجميع هذه الأعمال وقعت في داخل الحدود الاردنية (١) ، وأن اليهود قد طرد وامنذ وقعت الهدنة من المناطق التي يحتلونها مازيد عن خمسة عشر الف عربي بينهم عدد كبير من النساء والاطفال واستولوا على أملاكهم وأموالهم عنوة ، وانهم في احدى المرات طردوا الف عربي دفعة واحدة ، وانه حدث مرة أن طردوا مئات من البدو فارادوا أن يحملوا معهم خيامهم فابوا عليهم ثم كدسوا هذه الخيام وما فيها من أمتعة وأشعلوا فيها النيران . وليست حدود الاردن وحدها المعرضة لهذا الخرق والعدوان . بل تكاد حوادثها تكون يومية في حدود الدول العربية في الشمال والجنوب ، ومنذ أربع سنين والتقارير تسجل احداثها والصحف تردد اخبارها واللجان تعقد لها . مما ينطوي على بالغ استهتار اليهود بالعرب ونواياهم القريبة والبعيدة .

فالحكومات العربية تستطيع بل ويجب أن تتسلح بهذه الاعتداءات لتقف موقفاً قوياً وتقدم على خطوة ايجابية حاسمة وعاجلة تكون غاياتها كمرحلة أولى إرغام اليهود على التراجع عما في أيديهم مما ليس مخصصاً لهم من مناطق ومدن وقرى أولاً ، وتصحيح الحدود بحيث تتصل المناطق العربية ببعضها من جهة وتتصل مصر بالاردن من طريق النقب من جهة ثانياً ، واحتلال ما يمكن احتلاله من الاقسام المخصصة لليهود ليكون رهينة على تعويضات أملاك العرب واموالهم التي نهبوها ثالثاً ، وحشر اليهود في البقعة الأخرى الضيقة الساحلية التي يتكاثفون فيها رابعاً الى أن تحين فرصة أخرى لاقتلاع جذورهم من الارض المقدسة ، بل وقد تتطور الأمور خلال هذه الحركة نفسها الى تحقيق هذا الأمل المنشود.

---

(١) لقد أذيع في مدة قريبة ان عدوانهم على الحدود الاردنية في بقية سنة ٩٥٢ بلغ نحو ثلاثمأة مرة ؛ ومايزال يتكرر في سنة ٩٥٣ حتى كان في بعض المرات صورة مصغرة لزحف حربي مجهز بالمدافع والالغام والاستعدادات المتنوعة الاخرى . . .

— ٧ —

ونحن اذ نرسم خطة هذه الخطوة العاجلة الحاسمة لاننسى ان الانكليز وفرنسة والولايات المتحدة أعلنت في بيان مشترك سنة ٩٥٠ عزمها على منع أي تعديل في الحدود بالقوة . غير اننا نعتقد ان في هذا الاعلان تهويشاً على العرب وانها اذا تيقنت من تصميم العرب ستجد نفسها أمام موقفين إما تكرار مثل كوريا في البلاد العربية وإما الضغط على اليهود وإرغامهم على تنفيذ قرارات هيئة الامم . وقد رأينا كيف كان أمر كوريا وما تخلله من غصص وندم وحسرة وفواجع وخسائر عظيمة ، ولا يرد أن اصبع الروس كانت في كوريا فان احتمال المضاعفات الداخلية والخارجية في الشرق العربي مخزن النفط الأعظم واكبر أهداف الصراع بين المعسكرين العالميين لا يمكن أن يغيب عن بال الدول الثلاث الى درجة تجعلها تقدم على عمل عنيف جماعي ضد العرب لأنهم ليسوا مفتاتين على اليهود ولا باغين وانما هم يجعلون أنفسهم أداة لتحقيق قرارات هيئة الأمم وصيانة كرامتها كما فعلت أميركا والدول التي انجرت معها في كوريا .

كذلك ونحن اذ نرسم خطة هذه الخطوة العاجلة الحاسمة لانرى أننا نذهب في الخيال من حيث قدرة العرب على الاضطلاع بها والنجاح فيها لاننا نعتقد أن هذا في مقدورهم الآن على ما ذكرناه قبل ؛ بل هو في مقدور سوريا ومصر اللتين تحدقان باسرائيل من الجنوب والشمال ولا سيما بعد انقلابيها الجريئين الذي يسرا لهما إصلاح جيشها وتدعيمها اذا لم يتضامن الجيش الاردني فيها بسبب كون مقاليده في يد الانكليز ، والمهم في الأمر هو جد القابضين على زمام أمور العرب وايمانهم بقضاياهم وحقهم . ولقد آن لهم أن يجدوا ويخلصوا ويؤمنوا بهذه القضايا كما آن لهم أن يتحرروا من تهيب الدول الباغية وملاينتها وهي التي لا تفتأ تصفعهم صفعات بعد صفعات في مختلف المواقف والمناسبات بعد صفعتها العظمى لهم في اقامة الكيان اليهودي في عقر دارهم وعلى دماء وأشلاء أهل فلسطين وبذل كل جهد في توطيده . ولا نعتقد أن هذه الدول تستطيع أن تفعل بهم أكثر مما تفعله اذا ما

اشتد السخط والحقد عليها . وهو مايجب على شباب العرب ومنظماتهم وخطبائهم وكتابهم ووعاظهم وأساتذتهم وصحافتهم أن يدعوا اليه اذا ماتشددت الحكومات العربية في خطتها معها ، بل أن من أقوى الاحتمالات أن تعدل هذه الدول عن خطة الغدر والبغي والاستهتار التي تسير عليها معهم . ولقد مشى العرب في ركابها طويلا وسايروها أعظم مسايرة وضحوا بدمائهم وبلادهم في سبيلها فلم يكن لهم إلا تلك المواقف .

— ٨ —

ويستطيع الفلسطينيون أن يقوموا بدور عظيم في المرحلة الاولى أي في مرحلة تنفيذ قرارات هيئة الامم ، وهم على أتم استعداد للقيام به فضلا عن استعدادهم المساهمة في أي دور أو حركة انقاذية بكل قواهم وتقديم أعظم التضحيات التي يمكن أن تطلب منهم . فهم أصحاب الدار العارفين بمخارجها ومداخلها وطرقها وأحراشها ووعرها وسهلها وجبالها ، وهم الذين وقع عليهم بلاء كارثتها على أشد الحالات وأوجعها ، وهم الذين يقاسون مايقاسون من ذل وهوان وحرمان وبؤس ويريقون الدماء بدل الدموع على وطنهم المسلوب وعرضهم المنهوك وثرواتهم المغصوبة ومقدساتهم المداسة ويتحرقون أشد التحرق إلى أخذ ثأرهم وغسل عارهم بكل قلب وحرارة وايمان .

وانه لمن الممكن اعداد عشرة آلاف منهم على الاقل وتدريبهم وتجهيزهم وتنظيمهم في وحدات صغيرة ذات قيادات خاصة ثم توزيعهم على الحدود من الآن حتى اذا جاء وقت ارغام اليهود بالقوة كانوا هم الطلائع ، بل ان لمن الممكن ان يباشروا نضالهم حال ما يتم تجهيزهم وتدريبهم وتنظيمهم . ونكاد نقول اننا على يقين بانهم اذا سمح لهم ليستطيعون ان يقوموا بغارات قوية مستمرة تزعج اليهود اى ما ازعاج وتحملهم على قبول المطلوب منهم الذي ليس الان الا تنفيذ قرارات هيئة الامم دون اشتراك الجيوش. ولن تزيد اكلافهم في الشهر عن ربع مليون جنيه . وهو مبلغ زهيد جداً اذا ما قيس بآثار العمل ونتائجه ومحمول جداً اذا

ما وزع على ميزانيات الحكومات العربية التي لا يقل مجموعها عن ثلثمائة مليون جنيه ، بل وان واحداً من ملوك النفط العربي ليستطيع ان يقوم به وحده فيكون له في صفحة اعماله كفارة ونوراً بين يدي الله . وقصارى ما يكون على الجيوش العربية ان تحمي حدودها اذا ما حدثت اليهود انفسهم بالعدوان على هذه الحدود بحجة مطاردة المناضلين وخرق مواد الهدنة وان تحبط غارات اليهود الجوية اذا ما ارادوا التهويش بها على البلاد العربية واثارة اعصابها .

وللقارىء ان يتصور ما تستطيع ان تفعله خمسمئة عصابة كل واحدة مؤلفة من عشرين مناضلا على رأسهم ضابط او قائد منهم منشورة على طول حدود ما يحتله اليهود من فلسطين من الشرق والشمال والجنوب انتشاراً منظماً وفق خطة مرسومة حيث تكون كل عصابة على بعد كيلو متر من اختها وحيث تستطيع كل واحدة ان تقوم بحركة واحدة في كل يوم من تدمير وخطف وقتل ونهب وتعطيل ونسف وتخريب الخ ... ولا يداخلنا اي شك في ان شهرين او ثلاثة اشهر تواصل هذه الوحدات اعمالها فيها يومياً على هذا النمط كافية لجعل اليهود يجنون قلقاً واضطراباً وخوفاً ، ولن يستطيعوا ان يقابلوا هذه الوحدات مقابلة حربية لان خطتها ستكون كراً وفراً على اسلوب العصابات التي اعتادتها والتي ازعجت بريطانية في فلسطين اشد الازعاج . وقصارى ما يمكنهم ان يفعلوه هو عدوانهم كما قلنا على الحدود او قيامهم بغارات جوية على المدن العربية وتكون الجيوش العربية مستعدة لهم فتفشل حركتهم . ولندعهم هذه المرة هم الذين يشتكون على العرب لمجلس الامن بعد ان فعلوا فينا الافاعيل وخرقوا حدود الهدنة وشروطها مراراً وتكراراً وحققوا كل ما قصدوه وضربوا باوامر هذا المجلس عرض الحائط ، وكان كل قصارانا ان نكون نحن الشاكين المستجدين للرحمة والعدل ممن هم حرب علينا هذه المرة بعد ان خاتلوا هم مراراً وتكراراً . هذا اذا لم تر الحكومات العربية ان تبدأ هي بجيوشها او لم تر ان تقابل حركات اليهود التي يمكن ان تحدثهم نفسهم بها ضد الحدود العربية ورأت ان تكتفي بالدفاع. اما اذا بدأت هي بجيوشها او قابلت حركات اليهود الهجومية بمثلها وكانت مستعدة كما قلنا فان من الممكن

ان يكون فيما تفعل تحقيق الامل القريب والبعيد معاً أيسر وفي مدة وجيزة - واننا لنرى بعين الخيال ونحن نكتب هذه الآثار العظمى التي يمكن ان يحدثها مثل هذه الحركة العظمى والنجاح فيها فتستولي علينا هزة شديدة من النشوة والعزة لأنه سيكون ايذاناً بولادة الامة العربية من جديد ولادة قوية رائعة ، وبفكاكها من براثن المستعمرين الباغين في المشرق والمغرب العربيين وسيرها قدماً الى الاهداف العظمى التي تستهدفها الحركة العربية الحديثة .

ومن الواجب ان تبدأ حركة تهيئة الفلسطينيين باسرع ما يمكن ؛ بحيث تؤلف في امانة الجامعة لجنة خاصة فيها مستشار عسكري مهمتها اختيار الصالحين من الفلسطينيين واسكانهم في مناطق الحدود المختلفة وتجهيزهم وتدريبهم وتشكيل وحداتهم حتى يكونوا على اهبة العمل حينما يدعون اليه . وقد لا تزيد اكلاف هذه العملية التمهيدية عن ربع مليون آخر في الشهر ؛ فيكون مجموع ما ينفق على اعداد وتدريب وتجهيز وتنظيم وتحريك الكتائب الفلسطينية نصف مليون جنيه في الشهر وهو ٤٪ من ايراد النفط الذي تجبيه الحكومات السعودية والعراقية والكويتية !

اما اذا تلكأت الحكومات العربية في السير خطوة عملية حاسمة وعاجلة مثل هذه الخطوة او ما في مداها على الاقل وماعت وتهيبت على عادتها وطال الامر فقد يصبح الامل سراباً وتكون قد سجلت مرة اخرى على نفسها وتاريخ حقبتها عار الأبد وذله ، وسمحت برسوخ جرثومة السرطان الرهيب وانتشارها في جسم البلاد العربية جميعها ، فضلا عما تكون قد اضاعته من فرصة تجربة سهلة لمعاهدة الدفاع المشترك ومداها والآثار العظيمة التي يمكن ان يحدثها النجاح فيها وما تكون قد جلبته عليها من اشتداد احتقار الامم للامة العربية ودولها العديدة وسخريتها منها .

ويجب على شباب العرب والمنظمات القومية والخطباء والوعاظ والكتاب والاساتذة والصحفيين ان يشتدوا في الدعوة الى ذلك بحيث تصبح استجابتها مما

لا مناص منه ، كما يجب على الذين يقبضون على ازمة الحكم في البلاد العربية ان يستوحوا ضمائرهم وان يستثيروا عزائمهم وان يتقوا الله في امتهم وبلادهم ومستقبلها ، وان يدركوا ان الامر لا يعنيهم وحدهم وانما يعني الامة العربية الى اجيال عديدة ويعني حياتها وكيانها وشرفها وكرامتها وتاريخها ومقدساتها ، وان مدى الفرصة امامهم لا يعدوا سنتين او ثلاثاً على الاكثر ثم تفلت من الامة العربية الى مدى اجيال عديدة ، وانهم في اضاعتهم الفرصة يكونون قد سجلوا على انفسهم فضلا عن امتهم عاراً لا يمحى ؛ وان من الواجب ان يكون للعرب هتاف دائم التكرار كل لسان كل فرد عربي وفي اعمدة الصحف وافواه الخطباء والوعاظ والمعلمين واقلام الكتاب وهو ان فلسطين للعرب فيجب ان تعود ، وان قيام دولة يهودية فيها عار وخطر على العرب فيجب ان تزول ؛ وان على كل من يتهاون او يخامر في تحقيق هذين الواجبين بقلبه ولسانه ويده وماله وقوته لعنة الله والملائكة والناس اجمعين .

— ٩ —

ولمشكلة فلسطين ناحية اخرى جديرة بالاهتمام العاجل الى ان يمكن تنفيذ الخطة التي رسمناها ، وهي ناحية اللاجئين . فهؤلاء المنكودون الذين يبلغون نحو المليون يحيون حياة شديدة البؤس من كل ناحية ؛ بل ان البهائم لتفضل معظمهم في حياتها ؛ وهم مضطهدون صراحة وضمناً في كل مكان وجدوا فيه محرومون من العناية الصادقة ، وقد حظر عليهم التنقل من مكان الى مكان ، وكادت تنحل فيهم كل مقومات الحياة الانسانية والخلقية والبنوية او هي انحلت فيهم ، وقد انعدم فيهم كل أمل في حياة عزيزة او انسانية ، وفي كل مناسبة من اجتماعات الجامعة ولجانها تبحث شؤونهم ويكثر القول عن ما يجب ان يعمل لتحسين حالتهم وتيسير انتقالهم وعملهم . ولكن الامر يظل في نطاق القول. فمن الواجب ان تشتد الدعوة الى العناية بهم عناية صادقة تجاوز حدود الكلام الى نطاق العمل والتنفيذ ؛ حتى يظلوا مستمسكين الى ان تحقق الأمل المنشود .

ومن السبل المجدية الى ذلك توفير سبل العيش لهم ومعاملتهم معاملة كريمة انسانية ، وتيسير حرية التنقل والعمل لهم في انحاء البلاد العربية ، ورفع مستوى معيشتهم البائس الحزن في المسكن والملبس والحياة والاجتماعية ووسائل التعليم والعلاج بواسطة مؤسسة غوث عربية خاصة تموّلها الدول العربية بنسبة معينة من ميزانياتها ، فتعتني بكل ما يتعلق بشؤونهم من حل وترحال وعمل ومعاش وعلاج وتعليم وقروض واعانات ومشاريع وتعاونيات ، وتوطين صالحهم في الحدود وتجهيزهم وتهيئتهم للعمل المجدي المأمول الذي يكونون طلائعه .

وليس هذا بالذي يزيد عن طاقة الدول العربية كما قلنا آنفاً . ولقد ذهبت فلسطين واهلها ضحية لتقصير الدول العربية وعدم جدها في المجالين السياسي والحربي - ان لم نقل شيئاً آخر - ، ولقد آن لهذه الدول ان تكفر عن هذا التقصير بعمل جدي للاجئين يخفف عنهم البؤس الهائل الذي هم مرتكسون فيه ، ويذهب عنهم اليأس القاتل الذي استولى عليهم ، ويمدهم بما ينعش الأمل فيهم ، ويرفع مستواهم ، ويهيئهم لدورهم العظيم في حركة التحرير .

كذلك هنالك مسألة اخرى تتصل بمشكلة فلسطين بصورة عاجلة ، وهي مسألة املاك واموال اللاجئين المتخلفة في فلسطين والتي وضعت الحكومة اليهودية يدها عليها ، واقامت حارساً اطلقت يده فيها ، وقد وزعها بابخس الاجارات على المهاجرين اليهود والشركات اليهودية ، ولا يكاد يبقى من حاصلها شيء ذو بال بعد استيفاء ما وضع عليها من ضرائب ورسوم باهظة ، وهاهي هذه الحكومة المجرمة تقرر اليوم بيعها وتصفيتها لتقطع كل امل امام عودة اللاجئين من جهة ولتتم جريمتها بسرقة هذه الاموال والاملاك التي يقدرها المقدرون بملياري جنيه مقابل اسعار منخفضة او اسمية بليرات يهودية تباع في الاسواق المالية بخمس قيمتها او أقل .. ونحن نعرف ان الحكومات العربية اخذت تقوم بمساع سياسية وتقدم الشكاوى بسبيل الحيلولة دون ارتكاب هذه الجريمة ، غير ان هذا لن يجدي مع اليهود وحماتهم شيئاً كما ثبت ذلك من السوابق العديدة . والعلاج المجدي هو مقابلة العمل بالمثل ؛ فلليهود في مصر والعراق وسورية ولبنان املاك واموال

غير يسيرة ولو انها اقل من نصف قيمة اموال واملاك العرب . ولقد اعتبر اليهود العرب اعداء وعاملوهم معاملة الاعداء ، وليس هناك احد يستطيع ان يماري في ان كل يهودي في بلاد العرب عدو للعرب متضامن مع الحكومة اليهودية قلباً وقالباً ، وفي كل يوم يقوم دليل جديد على هذه الحقيقة . فمن حق الحكومات العربية و من واجبها معاً ان تقدم على اعتبار اليهود في بلادها اعداء وان تعتقلهم وتضع يدها على اموالهم واملاكهم وتقيم عليها حراساً . ولقد فعلت هذا اثناء الحرب الفلسطينية وكان حقاً لم يجادلها فيه احد، ولقد كان من الخطأ كل الخطأ ان تعود عنه لانها ما تزال في حالة حرب مع اليهود ، فعليها ان تعود الى ما فعلت بدون توان ، ومن الممكن ان تكون هذه العملية مفرجة للاجئين الذين يقاسون اشد حالات البؤس والحرمان ولهم في فلسطين الاموال والاملاك حيث يمكن تسليفهم بعض المبالغ من غلات هذه الاموال والاملاك ، وحينما تقدم الحكومة اليهودية على تصفية المخلفات العربية يقابل عملهم بمثله فتصفى المخلفات اليهودية كذلك . والدول العربية ذات سيادة من حقها ان تضع التشريعات المقتضية وأن تنفذها في بلادها والشر بالشر والبادىء اظلم . وقد يعمد اليهود الى طرد العرب الموجودين الآن في فلسطين او اعتقالهم ووضع اليد على اموالهم وأملاكهم . ولن يكون في هذا مفاجأة للعرب ، لأن الحكومة اليهودية سوف تفعله عاجلا أو آجلا ....

ونحن نعرف ان هناك متعاقلين يقولون ان هذا العمل مخالف للمبادىء والقوانين الدولية والدستورية وينسون ان اليهود قد داسوا وما زالوا يدوسون على تلك المبادىء والقوانين ، فلا ينبغي ان يكون هذا حائلاً دون هذه الخطوة ، ولاسيما ان الحكومات العربية كما قلنا في حالة حرب مع اليهود وقد فعلت ما قلناه في ظل الاحكام العرفية المعلنة بمناسبة تلك الحالة والتي ما تزال قائمة ... ولقد اعتبرت الحكومة اليهودية نفسها ممثلة ليهود الدنيا ومرجعاً لهم ، وبهذا الاعتبار تقدمت الى المانيا وغيرها تطالب بالتعويض عن دماء اليهود واموالهم ، وقد اقرتهم الدول الغربية على ذلك وساعدتهم وما تزال تساعدهم على نيل التعويض .

فالحكومات العربية كل الحق في الاخذ بهذا الاعتبار والقياس بهذا المقياس .
وقد تعترض الدول الغربية التي خلقت الحكومة اليهودية وعاضدتها على مثل هذا التدبير ولكنا نعتقد ان الحكومات العربية اذا عزمت وصممت وحزمت تستطيع ان تصمد امام الاعتراض ، وان تلك الدول لن تفعل غير التهويش ، ولاسيما إن الحكومات العربية لا تفعل شيئاً مبتدعاً وانما تقابل عملا بمثله ، ولقد جرت تجربة من هذا النوع في العراق مع شيء من الفرق ، وقام اليهود وقعدوا ، وحركوا حماتهم الذين ضجوا وصخبوا ثم وقف الامر عند هذا الحد ... وكل ما يطلب من الحكومات العربية ان تعزم وتصمم وتحزم . وعلى الواعين من ابناء الامة وصحافييها وكتابها وخطبائها ووعاظها ان يشتدوا في الدعوة الى وقوفها الموقف المطلوب ...

(٤) مشاكل القضايا العربية
السياسية الاخرى

وللعرب مشاكل وقضايا سياسية عديدة اخرى غير قضية فلسطين متصلة بصميم كيانهم القومي ولها تأثير كبير في تعثرهم وعدم تقدمهم نحو التكامل السياسي والاجتماعي والاقتصادي وعدم تبوؤهم المركز اللائق بهم ، وهي قضايا مصر والعراق والاردن وسواحل جزيرة العرب الشرقية والجنوبية مع الانكليز وقضايا المغرب العربي تونس والجزائر ومراكش مع الافرنسيين والاسبان، والتي هي في الحقيقة مظهر من مظاهر الغدر والخيانة والجشع والتكالب وروح التحكم التي اتصف بها هؤلاء المستعمرون منذ مئات السنين والتي لم يجد فيها ما طرأ على البشرية من تطور ودب في العالم من روح جديدة ونشر ووقع من مبادىء ومواثيق . . .

ولقد كان في سياق حل هـذه القضايا حلولاً نصفية اضطر فيها الدول العربية الى الارتباط بالانكليز بمعاهدات والتزامات ، وغدا لهؤلاء في بعضها كلمة نافذة، ومجال للايحاء والتوجيه ، فكان ذلك من الاسباب المهمة لكثير مما يبدو من تعثر في سير الامة العربية نحو أهدافها القومية ثم في امور جامعة الدول العربية ومعاهدة الضمان الجماعي والتعاون الاقتصادي المعقودة بين هذه الدول ، وفي اي حركة نحو الوحدة او الاتحاد العربي ، وسيظل هـذا التعثر مستمراً يعيق الامة العربية عن تكاملها القومي مادامت هذه الالتزامات قائمة .

والمقام يحمل شيئاً من البيان عن سير هذه القضايا وحالتها الراهنة .

فاولاً : القضية المصرية

- ١ -

ان هذه القضية اشد قضايا العرب نكاية وكيداً وخطورة وتأثيراً . لأن مصر اعظم البلاد العربية كثافة سكان ونشاط عمران ودوي اسم ، وهي منها في منزلة الشقيق الاكبر وصاحبة الزعامة الطبيعية ، وما يقوم في طريق تكامل سيادتها واستقلالها من عثرات هي اشد العثرات في طريق الامة العربية بطبيعة الحال

ومن عجيب امر الانكليز ومظهر وروحهم الاستعمارية والتسلطية انهم منذ منذ سبعين سنة وهم يعدون مصر بالجلاء ثم يخلقون اسباباً محلية وعالمية لاخلاف هذه الوعود دون خجل . ولقد كان حرصهم على السيطرة على مصر وقناة السويس منبعثاً عن حرصهم على حفظ طريق الامبراطورية الهندية ، ومع انهم قوضوا خيامهم عنها وجلوا عن الهند وسقطت بذلك الحجة التقليدية الزائفة التي ظلوا يتذرعون بها فانهم ما زالون يتشبثون بموقفهم الباغي الوقح ويتفننون في خلق الذرائع والحجج الواهية من اجله .

ولقد تفننوا منذ تسلطوا على مصر في الدس والافساد واثارة الفتن وتخويف الاقباط من المسلمين والاغنياء من الفقراء والفلاحين من هؤلاء واولئك ، وتعطيل قوى الامة ومواهبها وتجبيلها وشل يدها وروحها والتسلط على كل شيء من مرافق البلاد ودوائر الحكم ومناهج التعليم والتشريع بسبيل ابقاء يدهم قوية نافذة . ولما بدا من المصريين ما بدا من التحفز والتوفز عقب الحرب العالمية الاولى في سبيل الفكاك او التنفس على الاقل لم يتورعوا عن ارتكاب كل قسوة لقمع الحركة واحباطها . وظلوا نحو خمس عشرة سنة وهم يتفننون في المداورة والمراوغة ابتعاداً عن التسليم بحق مصر في الحرية والاستقلال الكامل وانتظامها في سلك الدول المستقلة رغم ما قدمته مصر من دماء وجهود لهم في تلك الحرب

ورغم ما كانوا يطنطنون به من المبادىء والدعوى الطويلة العريضة بقصدهم في حصول الامم الضعيفة على حريتها واستقلالها وحق تقريرها مصيرها . ولم يخففوا بجعل قبضتهم الا بضغط الظروف السياسية العالمية من جهة وبعدان سلم المصريون من جهة اخرى بشيء غير قليل مما كانوا يريدون وخاصة ببقاء قناة السويس ومنطقتها تحت احتلالهم وتعهدهم مرافق مصر العسكرية والاقتصادية تحت تصرفهم اذا ما اشتبكوا في حرب حيث امكن بذلك عقد معاهدة عام ١٩٣٦ . ودخلت مصر الحرب الى جانبهم في الحرب العالمية الثانية واستجابت الى كل مطالبهم ومقترحاتهم من تشريع وتموين وتجييش واعتقال من سموه باعدائهم معرضة نفسها من اجلها لغارات المحور وغزوته وتهديده . وقد نالها من ذلك شيء غير قليل من الضرر والخسارة ومن عجيب امرهم في المطامع والمرامي والمداورات انهم لم يكتفوا بما التزمته مصر في هذه المعاهدة من التزامات ثقيلة في وقت الحرب وخطرها لمدة عشرين سنة مما كان من جرائه من انقلاب مصر لساحة حرب وتسخير مرافقها وتشريعها لمطالبهم وحركات جيوشهم وحاجاتها بل جعلوا تعديلها منوطاً بمعاهدة جديدة يكون التحالف بينهم وبينها شرطاً محتوماً كما جعلوا مصر ملزمة بعقد معاهدة جديدة على هذا الاساس حينما تنتهي مدة المعاهدة وقد نصت المعاهدة على ان الجلاء الانكليزي عن قاعدة القناة منوط بغدو الجيش المصري قادراً على الاضطلاع بعبء الدفاع عن هذه القاعدة ، على ان يكون . هذا رهناً بقناعتهم بهذه القدرة . ومعنى هذا وذاك بتعبير آخر انهم فرضوا في هذه المعاهدة وجودهم وحلفهم واحتلالهم بشكل ما على مصر الى اجل غير مسمى .

ولقد اهملوا اعداد الجيش المصري وتنظيمه وتسليحه وتقويته عن قصد واستمروا في هذا بعد عقد المعاهدة برغم ما في نصوصها من التزامات عليهم ، ومازالوا يضعون العقبات بمختلف الاساليب ليحولوا دون تحقيق ما بدا من مصر من رغبة صادقة وبذل سخي في سبيل تقوية الجيش وتسليحه حتى يغدو قادراً على الاضطلاع بالعبء ، وهذا بالرغم عن ايجاب المعاهدة عليهم مساعدة مصر على تنظيم وتقوية وتسليح الجيش ، ولا يكتفون بالامتناع عن القيام بالتزاماتهم من

بلادهم بل يبذلون كل جهودهم ليحولوا دون مصر وحاجاتها من السلاح في غير بلادهم ايضاً ما امكنهم ذلك ... وكل هذا بقصد تبرير دوام احتلالهم وسيطرتهم العسكرية ، بينما هم يتذرعون بتلك المعاهدة في بقاء احتلالهم الى ان ترضى مصر بعقد معاهدة جديدة تحتوي ما يريدونه . وبكلمة اخرى انهم يرون انفسهم احراراً في نقض ما عاهدوا عليه ويوجبون على مصر ان تلتزمه اشد الالتزام ، ومن هذا القبيل نقضهم لاحكام المعاهدة فيما حشدوه في قناة السويس من القوة التي تزيد ثمانية اضعاف ما خولته لهم هذه المعاهدة !

ومن أسخف مايضحك من تناقضهم ظهورهم بمظهر المشفق على مصر من وقوعها في براثن روسيه بينما تنشب فيها براثنهم بكل شده . ثم هم الى هـــذا يتجهمون كل التجهم لكل مظهر من مظاهر الود قد يبدو بين مصر وروسيه ولكل دعوة الى عقد ميثاق عدم اعتداء بينهما لتزول هذه المخاوف وتسقط الحجة التي يتحججون بها .

وفي المعاهدة نص بحظر وقوف أحد المتعاقدين موقفاً يضر بمصالح الطرف الثاني ويعاكسها ولكن الانكليز لم يبالوا بهذا النص على عادتهم باعتبار انفسهم أحراراً في نقض ما عاهدوا عليه وخيانة معاهديهم حيث يقفون المواقف الضارة بمصر ومصالحها وكرامتها منفردين حيناً ومع شركائهم في الآثام والجرائم حيناً آخر بينما يهددون بانهم سيرغمونها على تنفيذ هذه المعـــاهدة واستيفاء الحقوق والالتزامات التي توجبها عليها بالقوة .

- ٢ -

وينطوي في قضية مصر قضية السودان المصري العربي الذي هو جزء غير منفصل عن مصر في سكانه ولغته وتاريخه وروحه ومصالحه المتنوعة . وقد تجاهل الانكليز هذه الحقيقة التي يشعر بها المصريون والسودانيون على السواء وتفننوا في خلق العقبات والذرائع لفصل السودان عن مصر والاستبداد في السيطرة عليه

ومن جملة ذلك تشجيع بعض الطامعين في المناصب من أبنائه وتأليبهم ضد مصر وتصويرهم اياهم أصحاب الشأن والمصالح الحقيقية الذين يجب أن يكون لرأيهم الاعتبار الأول مما اعتادوا أن يفعلوه في كل نكب بهم . ولقد اشتركوا في الحملة التي ذهبت لاخماد الثورة المهدوية باسم مصر ثم أرغموا الحكومة المصرية على التوقيع على معاهدة تسجل لهم حق المشاركة في حكم السودان ، ولم يكتفوا بهذا فقد ظلوا ينقضون نصوص هذه المعاهدة في كل فرصة ومناسبة حتى انقلب الأمر رأساً على عقب حيث تضاءل حق مصر وسلطانها وأصبحا حبراً على ورق في حين غدوا هم المستبدون في حكمه المتسلطون على مرافقه .

ومن أسخف مايضحك من ذرائعهم تكرارهم لنغمة رغبتهم في أن يكون للسودانيين الحق التام في الاستقلال وتقرير المصير وواجبهم بوفاء وعودهم لهم بذلك وعدم موافقتهم على بسط مصر لسيطرتها على السودان لتستعمره . . . وقد تفننوا في اذاعة هذا المعنى في العالم وتلقينه للسودانيين والظهور بمظهر المدافع عن حرية السودان واستقلاله وابعاده عن الاستعمار المصري مع ما هو واقع حالهم من التحكم والتصرف فيه وتسلطهم على جميع مرافقه . ومع هذا التظاهر بالحرص على حق السودانيين في تقرير مصيرهم فقد رفضوا تحدي مصر والسودان معاً باجراء الاستفتاء وتواروا وراء نضج السودانيين ومساس الحاجة الى عشرين سنة أو عشر أخرى على الاقل ليتمكن هؤلاء من التعبير عن رغبتهم غير خجلين من عار اهمال السودانيين خلال الستين عاما الفائتة . وهكذا ظل المنطق ممسوخا مشوها في أفواه الانكليز الذين لايبالون باي تناقض يدمغهم وخزي يخزيهم واغراق في السخف والمفارقة في سبيل تبرير خططهم وأهدافهم .

— ٣ —

ولقد بادرت مصر بعد أن وضعت الحرب الثانية أوزارها ووضعت مواثيق هيئة الأمم التي تنص على ضمان السلام العالمي الجماعي وتهدف اليه ، وتقرر عدم جواز وجود جنود عضو في الهيئة في أرض عضو آخر بدون رضائه الى مطالبة

الانكليز بتبديل المعاهدة بما يتفق مع ذلك وأخذت تلح على وجوب جلائهم عن أرضها ورفع أيديهم عن السودان لتتم الوحدة الطبيعية لوادي النيل ، وتذكر بما كان من مواقفها وتضحياتها وتنوه بان مصر الصديقة خير من المحتلة العـــدوة . ولكن الانكليز عمدوا الى المراوغة والمداورة وأخذوا يعلنون تمسكهم باحكام المعاهدة التي زعموا أنها عقدت ووقعت بحرية تامة والتي مافتئوا ينقضونها من جانبهم في حين يعلمون قبل غيرهم أنها معاهدة قهرية عقدت ومصر تحت احتلالهم وسيطرتهم ولم يكن لها مناص منها ولا اختيار فيها .

وقد جرت مفاوضات طويلة ومضنية بين مصر والانكليز في هذا الصدد حتى بدا في وقت ما ان هؤلاء اعتزموا مسايرة مصر بعض الشيء حيث أعلنوا سنة ١٩٤٦ استعدادهم للجلاء عن مصر دون قيد او شرط في مدة تنتهي عام ١٩٤٩ وموافقتهم على وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري ، ولكنهم لم يلبثوا أن نكصوا على أعقابهم كعادتهم . وشكت مصر أمرها الى مجلس الأمن وأدلت بالحجج القوية المدعمة بالأسانيد ورفعت صوتها قوياً داوياً بطلب خروج الانكليز الترصان من أراضيها وحقها التام في ذلك وسقوط المعاهدة وبطلانها بعد ماقامت هيئة الامم ونقضت من قبلهم بمختلف الأساليب فلم يكن لشكواها أثر ايجابي لأن المجلس وهيئة الأمم قد أصبح أداة انكليزية اميركية تتحرك باشارة اميركا وانكلترا ولا تقف موقفاً مناقضاً لما تريدانه او تريان فيه مصلحة لهما من قريب أو بعيد . وكل ما كان منه أزاء صرخة الحق الداوية أنه نصح باستئناف المفـاوضة واستنفاذ الجهود في سبيلها .

ولقد استؤنفت المفاوضات ثانية وظلت مستمرة نحو سنة ونصف فظل الانكليز يتفننون بالمطاليب والمقترحات التي ترمي الى ابقاء احتلالهم وسيطرتهم العسكرية باسلوب من الاساليب .

ولما ظل موقف مصر قوياً في صدد مطلبيها الجوهريين ووصلت المفاوضات الى المرحلة التي لم يكن معدى فيها من الرفض الصريح أو القبول الصريح ورأى

الانكليز ان ماتفننوا فيه من المراوغات والمقترحات استبقاء لحبل المفاوضات ممدوداً ولباب الخداع مفتوحا لم يعد مجدياً ، القى وزير خارجيتهم في البرلمان بياناً مطولا في شهر تموز ٩٥١ أعلن فيه أنه لن يسع حكومته إجابة مطلبي مصر لأن من حق السودانيين عليهم ضمان استقلالهم وحقهم في تقرير المصير ولأن واجب نيابتهم عن الدومنيونات من جهة والدول الغربية من جهة أخرى لايسمح لهم بالتخلي عن مركزهم العسكري في الاراضي المصرية ، وانهم سيظلون متمسكين باحكام معاهدة سنة ١٩٣٦ ومتمتعين بما منحته من حقوق غير معترفين لمصر بحقها في إلغائها من جانبها وغير عابئين بهذا الالغاء ان هي أقدمت عليه وبان بريطانيا لا تستطيع أن تتخلى عن الوفاء بالتزاماتها الدولية اذا رفضت مصر بناء علاقتها معها على اسس جديدة ، وأن مصر لتخدع نفسها اذا هي ظنت ان في استطاعتها أن تقف موقف المتفرج المحايد اذا ماشتبكت الحرب بين المعسكرين المتناحرين وقد خص قضية فلسطين وحصار مصر لاسرائيل بحيز كبير من بيانه اكد ما هو معروف من المقاصد والنيات والسياسة المركزة التي كان الانكليز وظلوا يترسمونها منذ البدء في قيام الكيان اليهودي في قلب بلاد العرب وتقويته وحمايته رغم أنوف العرب وعواطفهم ومقدساتهم ودمائهم ليكون لهم نقطة ارتكاز ووسيلة تهديد وتخويف في الشرق العربي عامـة وحائلاً من الحوائل دون تحقق أهداف الحركة العربية .

ولم يكن بد لمصر من أن تقف الموقف الواجب فالقى وزير خارجيتها في البرلمان في شهر اغستوب ١٩٥١ بياناً مطولاً رائعاً فند فيه حجج الانكليز وفضح نواياهم ومقاصدهم ومراوغاتهم كما نوه بمكائدهم في قضية فلسطين ودمغهم بأنهم أساس الشر ومربوه وحاضنوه من أول عهده الى آخر ماوصل اليه من نتيجة مشؤومة عن علم ونية ، واعتبر بيان الوزير الانكليزي إغلاقاً لباب المفاوضة فاعلن عزم حكومته على الغاء المعاهدة وإبطال مفعولها مما يترتب عليه عدم التعاون البات بين مصر والانجليز واعتبار وجود الانجليز في مصر والسودان عملا عدوانياً من حق مصر مقابلته بالمثل بما تستطيع .

وريع الانكليز من هذا الموقف الجاد الذي وقفته مصر والعزمة التي أعلنت اعتزامها فعمدوا أولاً الى الدس وأخذوا يقولون إن بيان وزير الخارجية المصرية لا يمثل رأي مجلس الوزراء وأن بين الوزراء معتدلين لا يقرونه فكذبهم الوزراء ورئيس مجلس الوزراء وأكدوا أن البيان مجمع عليه ومعبر عن وجهة نظرهم ووجهة نظرة الشعب المصري كافة ، فعمدوا ثانية الى المراوغة في القول أن وزير خارجيتهم لم يقفل باب المفاوضة وأن تفسير مصر لبيانه خطأ ، وأرسل هذا الوزير الى رئيس وزراء مصر ووزير خارجيتها كتباً خاصة يؤكد فيها هذا المعنى ويلح عليها بالاتئاد في الخطوة التي أعلنوا عزمهم عليها . غير أن مصر التي تعرف أساليبهم الخداعة لم تنخدع هذه المرة فاقدمت على تنفيذ خطوتها حيث أعلن مصطفى النحاس رئيس الوزارة في البرلمان في ٨ تشرين الاول ٩٥١ الغــــاء المعاهدة والاتفاقات السودانية ، ووحدة مصر والسودان في التاج وقدم مشاريع القوانين والتعديلات الدستورية المقتضية ، وحيث وافق البرلمان ثم الملك على هذه المشاريع باجماع رائع وحماسة قومية بالغة . وأخذ المصريون يتداعون الى الجهاد ويؤلفون الكتائب التي كان يندمج فيها كثير من الشباب المثقف ، وأخذ عمال المعسكرات البريطانية المصريون الذين يبلغون نحو خمسين الفاً ينسحبون من هذه المعسكرات ويشلون حركتها وحضنتهم الحكومة فدفعت لهم اجورهم وعينتهم في مختلف الاعمال الرسمية العمالية ، وأثار الموقف توتراً شديداً أفقد الانجليز أعصابهم وجعلهم يرتاعون ويرسلون النجدات ويستعدون لحالة حرب مع المصريين ؛ وبدأ الاحتكاك بين المجاهدين المصريين والانكليز يقع في منطقة القناة ثم أخذ يتسع ويشتد حتى صار خطيراً في حوادثه وصفته ، واندمجت الحكومة فيه بشكل ما حيث أخذ الاشتباك يقع بين قوات بوليسها والقوات الانجليزية بسبب ما كان يبدو من هذه القوات من تصرفات باغية ضد السكان وحرياتهم وأموالهم وبضائعهم ، ولم يتورع الانكليز من اقتراف المجازر البشعة في منطقة القناة وتوجوا هذه المجازر بمجزرة الاسماعيلية في ٢٥ كانون الثاني ١٩٥٢ التي استشهد فيها أكثر من مئة من البوليس وجرح أكثر من مئتين وأسر نحو الف ودمر بالمدافع مبنى المحافظة وغيرها من المباني

الحكومية وغير الحكومية وكان رد فعلها شديداً جارفاً حيث قامت مظاهرات هائلة في القاهرة دمر وحرق في أثنائها كثير من الأماكن الانكليزية وغير الانجليزية وقتل فيها أكثر من عشرة أشخاص من الانكليز .

— ٤ —

ولقد كان من شأن هذه الغضبة المضرية المصرية أن يضطر الانكليز الى التراجع غير أنهم أثاروا دعايات خبيثة حول ماوقع في القاهرة من حوادث جعلت الناس يستعظمونها وينسون جرائم الانكليز في منطقة القناة وخاصة في مجزرة الاسماعيلية التي كانت ضحاياها وتدميراتها وحدها أضعاف أضعاف ما كان في القاهرة والتي كانت مظاهرات القاهرة رد فعلها الطبيعي السريع الذي لو لم يكن ووقفت مصر جامدة أزاء تلك المجزرة لسجل عليها العار والهوان ، واندمجت أقلام وأوساط مصرية في هذه الدعايات من حيث تدري ولا تدري انسياقا وراء الأحقاد الحزبية والشخصية مع أنه ظهر أنه كان لجواسيس الانكليز ومأجوريهم ضلع في حوادث التدمير والتحريق استهدافا لما وقع فعلاً من البلبلة والتشويش والدعايات الخبيثة .

وقلب كل هذا الموقف وبدلاً من أن يتراجع الانكليز عن موقفهم الباغي تراجعت مصر عن موقفها النضالي الرائع الذي كان هو وحده الكفيل بارغام أنوف الانكليز .

ولقد كان المتظاهرون في مظاهرات القاهرة يهتفون ضد الملك وطغيانه واستشراء الفساد في الحكم وطاغوت الاقطاعية المالية والاسروية فارتاع الملك من هذه البادرة واتبع نصائح حاشيته وبطانته فوقف موقفاً كان من أسباب هذا التراجع حيث أقال وزارة الوفد التي تبنت الحركة النضالية معتبراً إياها مسئولة عما كان ضده في هذه المظاهرات ، واعتزم تحطيم الوفد . وقد تقلبت في الدست بعدها أربع وزارات بسبب محاولة الملك تكييف الأمور وفق اهوائه ، فادى هذا الى ضعف مصر أمام الانكليز .

— ٥ —

ولقد تغير هذا الموقف حقاً نتيجة للانقلاب العظيم الناجح الذي قام بـــه الجيش المصري والذي اشرنا اليه في مناسبة سابقة ؛ حيث وقف قائد الانقلاب ومساعدوه البواسل موقفاً قوياً وبارعاً انكشف الانكليز فيه وسقط في أيديهم من جرائه ؛ لأن الجانب المصري اتصل بزعماء السودان واحزابه وتفاهم معهم ووحد جبهتهم وأعلن موافقته التامة على حق السودانيين في الحكم الذاتي وتقرير المصير ؛ وعمد الانكليز الى الضرب على وتر آخر هو حماية السودان الجنوبي من السودان الشمالي بعد أن ظلوا يضربون على وتر حماية السودان من مصر ؛ وأخذوا يداورون ويراوغون في مراجعات يائسة ؛ وظل الجانب المصري يقف موقفه القوي البارع ويضيق الخناق ويسد المنافذ عليهم ، واتصل بالسودان الجنوبي وحصل على موافقة زعمائه على المنهج الذي انتهجه واعلانهم أنهم لايخافون إلا الانكليز وان هؤلاء لم يفعلوا شيئاً لهم غير التجهيل والافقار والبؤس والحرمان إلى ان لم يجد الانكليز بداً من مسايرة الموقف فوقعوا مع الجانب المصري بعد مراوغات استمرت ثلاثة أشهر اتفاقية تعترف بوحدة السوان وحقه بالحكم الذاتي وتقرير مصيره بالاستقلال التام أو الارتباط مع مصر في شباط ٩٥٣ على أن يتم هذا خلال فترة ثلاث سنين ينسحب فيها جيش ومصر وانكلتره وموظفوهما وتراقب عملية الانتخاب وتوسيد وظائف الحكومة للسودانيين وتنظيم قوة جيش وبوليس تتولى الدفاع عن السودان وحفظ أمنه لجان دولية .

وقد فسر المراقبون الذين يعرفون أساليب الانكليز ومراوغاتهم واعتمادهم على الزمن من جهة ومطـــامعهم الواسعة في السودان وخاصة جنوبه ومشروعاتهم الاستثمارية والتبشيرية والاستراتيجية فيه وجهودهم خلال السنين الطويلة في فصله عن مصر من جهة ثانية موافقة الانكليز بانهم سايروا الموقف الذي انكشفوا فيه ورأوا في موافقة مصر على استقلال السودان التام تخلياً عن دعواها ومطلبها في وحدته مع مصر قد يفيدهم في الفترة المضروبة . ومن الجدير بالذكر انه لم

يكد يجف مداد الاتفاقية حتى أخذت تبدر من الانكليز بوادر المراوغة والمداورة الباعثة للريبة والمؤيدة لرأي المراقبين حيث ألمع وزير خارجيتهم وهو يعلن لمجلس العموم نبأ توقيع الاتفاقية الى امكان انضمام السودان الى الكومونويلث الانكليزي اذا شاء بعد استقلاله مما فيه معنى الايحاء والتبييت بالرغم من ان هذا الامكان قد قد بحث في أثناء المفاوضات واستبعد رسمياً كما سجلته المحاضر ؛ وحيث أذيع خبر بعثات بريطانية تقوم في السودان الجنوبي بتهيئة مشروعات عظمى زراعية ومعدنية واستراتيجية ؛ وحيث أخذ الموظفون الانكليز في السودان وخاصة في السودان الجنوبي يضطهدون الذين أظهروا عواطفهم نحو مصر ووحدة السودان ورحبوا بالوفد المصري واعطوا توقيعاتهم المؤيدة ؛ كما أخذوا يدسون أصابعهم المثيرة المريبة في مختلف المناسبات والمواقف للتوهين والتفرقة والافساد . وما زال المراقبون يتوقعون من الانكليز ماخبروه من أساليب الدس وانتهاز الفرص أو خلقها لعرقلة تنفيذ الاتفاقية أو تحويلها لاهدافهم الاستعمارية . وآخر مافعلوه تأسيسهم منظمة جديدة في الخرطوم ـ عاصمة السودان ـ اطلقوا عليها اسم المكتب التجاري ، وحشدوا فيها موظفين بارزين من وزارة الخارجية ودائرة الاستخبارات الانكليزية المشهورة . وقد أخذ هذا المكتب ينشىء فروعا له في مختلف أقاليم ومديريات السودان الشمالي والجنوبي ؛ ويجهز مكاتبه بالاجهزة اللاسلكية المرسلة والمستقبلة ؛ بحيث بدا بصورة سافرة ملموسة أنه منظمة جاسوسية استعمارية قامت لتلعب أدوراً خبيثة في سبيل تلك الاهداف . . .

ـ ٦ ـ

ولقد دعا الجانب المصري الانكليز بعد توقيع اتفاقية السودان الى تصفية مسألة قناة السويس والجلاء عنها وهي المسألة الجوهرية الثانية في القضية المصرية وتظاهر الانكليز بالنية الحسنة ودخلوا في المفاوضات مع الجانب المصري ؛ ومع تسليمهم بمبدء الجلاء فانهم لم يلبثوا أن أخذوا يداورون ويراوغون في موضوع صيانة قاعدة القناة ووجوب بقاء آلاف عديدة من الجيش الانكليزي باسم فنيين على أن يكونوا تابعين لحكومتهم لا إلى مصر ؛ معلنين أن هذا أمر لامندوحة عنه لامكان استخدام القاعدة للدفاع عن العالم الحر . . . ورفض الجانب المصري هذا لانه

مخالف للغاية التي أعلنها بقوة وصراحة وهي الجلاء التام في أقرب وقت وبدون قيد وشرط ، والسيادة المصرية المطلقة والاشراف المصري الفعلي على القاعدة ؛ ولأن معناه استعباد مصر في سبيل هذا العالم الحر . . ؛ وقد لمس الجانب المصري في موقف الانكليز الاسلوب الاستعماري الماكر الذي صار طابعاً لهم والذي يهدف الى ابقاء احتلاله للقناة أبدياً والذي يتفنن في خلق الاعذار والحجج في كل ظرف في سبيل ذلك ؛ وأخذ يستعد لكل احتمال وطارىء ، ويعلن عزمه على تحقيق تلك الغاية المقدسة بكل وسيلة مهما تحمل في سبيلها من تضحيات ، وأخذ المصريون على اختلاف طبقاتهم وميولهم يرددون صدى هـــذا العزم ويعلنون استعدادهم لكل تضحية في سبيل تنفيذه . والحالة الآن والكتاب تحت الطبع شديدة التوتر بسبب الموقف الذي وقفه الانكليز ، وإن كان موقف مصر القوي الباسل يبعث في النفس الطمأنينة بان المكر الانكليزي لن يجد هذه المرة الثغرات التي كان يجدها من قبل .

ولقد عمد الانكليز الى دس الدسائس في الاوساط السياسية العربية لتوهين تأييد الحكومات العربية لمصر في موقفها القوي ازاءهم بمختلف أساليب المكر التي أتقنوها . ولقد بدت بوادر هذه الدسائس فيما أخذ يقال من أن مصر تريد ان تجعل قضايا العرب الاخرى رهناً بقضيتها وأنها تريد أن تجر العرب الى موقف العداء والنضال مع الانكليز والمعسكر الغربي بتصلبها وتطرفها وسلبيتها ؛ ثم فيما أخذ يلمس في أوساط السياسة العربية من تردد وتهرب ونقد وتثريب ونشاط مريب . ولقد أدركت الحكومات العربية لحسن الحظ نتائج المكر الانكليزي الخبيث فعقد وزراء خارجيتهم اجتماعاً في نطاق الجامعة العربية قرروا فيه تأييد مصر في الجلاء التام غير المقيد باي قيد واعتبار قضية مصر من أهم قضايا العرب التي يجب أن تحل حلا كريماً وعاجلا ، وكون الدفاع عن الشرق الغربي يجب أن يناط بأهله المستعدين له والقادرين عليه ، وعدم جعله وسيلة من وسائل عدم الجلاء عن مصر أو تأخيره . . .

ولقد كان عملهم هذا غاية الصواب ، وجاء في احسن الاوقات . غير انه يحتاج الى تأييد فعلي ولا يجوز ان يبقى في حدود القرارات التقليدية والكلامية . ومن واجب رجال الحكومات العربية ان يتفاهموا مع الحكومة المصرية بكل جد واخلاص على وسائل وتفاصيل التأييد الفعلي وان يقدموا على تنفيذها بكل قوة وحرارة . ويجب ان لا تخدع احد لتلويحات الانكليز والمعسكر الغربي بحل قضايا العرب في غير نطاق حل قضية مصر او بدونها . فهذه التلويحات ليست الا وسائل كيدية تهدف الى توهين التضامن الواجب مع مصر وتفكيك عراه ، وليس فيها جد صادق ، ولن يجنح المعسكر الغربي الى التساهل في حل قضايا العرب الاخرى ويترك قضية العرب الكبرى اي قضية مصر بدون حل ، ويجب أن يتيقن العرب ان حل قضية مصر هو المفتاح الصحيح لحل بقية قضايا العرب ، فان مصر اذا ماتحررت وقويت ستحمل لواء معركة حل القضايا الاخرى بدافع هذه القوة ومصلحتها القومية التي تملي عليها قيادة الحركة العربية وزعامة الشرق العربي فضلاً عن العاطفة القومية التي لا يصح الشك فيها ؛ فعلى العرب حكومات وشعوباً ان يقفوا الى جانب مصر موقف التعضيد والتأييد الفعلي الصادق وان يحبطوا كل دسيسة او دعاية مريبة ، وبهذا فقط يمكن حل هذه القضية الكبرى ، ويحل هذه القضية تتبوأ مصر مركزها اللائق كزعيمة للشرق العربي ، ويرتفع اعتبار العرب ووزنهم في اعينهم وأعين العالم لما تتمتع به مصر من مزايا عظيمة بالنسبة للعالم العربي والعالم الاسلامي والعالم الاجنبي معاً ، ويغدو حل القضايا العربية ايسر منالاً . وعلى الواعين من العرب وخطبائهم وكتابهم وصحافييهم ان يشتدوا في الدعوة الى ذلك .

ثانياً : القضية العراقية

— ١ —

وموقف الانكليز من العراق نفس موقفهم في مصر . فقد ترسموا السيطرة عليه بحجة حفظ مواصلاتهم الامبراطورية الهندية ثم ظلوا متشبثين بها بعد

تقويض خيامهم وجلائهم عن هذه الامبراطورية ورغم عهودهم التي قطعوها للملك حسين وقد حاولوا ان يجعلوا سيطرتهم عليه سيطرة استعمارية منذ ان تمكنوا من احتلاله في اثناء الحرب العالمية الاولى.ومع انهم اضطروا الى التخفيف من غلوائهم حينما ثار العراق ثورته اللاهبة في سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ ولاينوا بعض الشيء ورضوا بقيام دولة عراقية بملكية فيصل بن الحسين فانهم ظلوا بعيدون عن تلك الروح وكانت المعاهدة الاولى التي عقدوها لتحل محل الانتداب انتداباً مقنعاً يخولهم أن يكونوا أصحاب الشأن في السياسة والجيش ودوائر الحكومة ومشاريعها واقتصاديات البلاد وسياستها وأن يكون لهم قواعد وقوات عسكرية فيها . ومع ان هذه المعاهدة عدلت بمعاهدة اخرى سنة ١٩٣٠ خففت بعض القيود الا أن الانكليز ظلوا أصحاب الشأن في كثير من شؤون العراق وخاصة في جيشه وسياسته ومشاريعه بنص وبدون نص ، كما منحتهم المعاهدة قواعد في اكثر من مكان من العراق وحق تسخير مرافقه في اثناء الحرب وخطر الحرب ، وجعله ممراً لجيوشهم فى أي وقت وبقاء اساس التحالف العراقي الانكليزي قائماً في اي تعديل يدخل عليها قبل انتهاء مدتها وهي خمس وعشرون سنة وايجاب عقد معاهدة جديدة على هذا الاساس حينما تنتهى مدتها . وبعبارة ثانية نصت على ضمان سيطرتهم باي اسلوب كان الى اجل غير مسمى ... ولم يقصروا في نقض شروط المعاهدة كلما اقتضت مصلحتهم وخططهم ذلك على جري مألوف في اعتبار انفسهم أحراراً في نقض عهودهم مع العرب في حين يتشددون كل التشدد في التمسك بها حرفاً وروحاً بالنسبة للالتزامات التي رتبت فيها على العراق .

وقد دسوا اصابعهم في ظروف وحوادث كثيرة بين طوائف العراق واجناسه وأقلياته حيث شجعوا بعضها على التمرد وخوفوا بعضها من بعض لتظل حالة العراق الداخلية مرتبكة وشؤونه متعثرة بسبيل توطيد سيطرتهم وخططهم الاستعمارية ، وكلما طالب العراق بتعديل المعاهدة ابتغاء الانفكاك من براثنهم واحتلالهم تفننوا في خلق العراقيل وبث الوساوس والدسائس للحيلولة دون

تحقيق ذلك ، وقد أوجدوا في اذهان القائمين على رأس العراق قناعة بان كيانهم قائم بهم . وبأن بعبع الشيوعيين فاغر فاه ليبتلعهم اذا هم نفضوا يدهم منهم فاشتدوا بالتمسك بهم والتواثق معهم والاندماج في سياستهم .

— ٢ —

واذا كان العراق يبدو اليوم جامداً بعض الشيء ازاء هذا الواقع المرير فليس معنى هذا انه مطمئن للانكليز هو الآخر ومندمج معهم او غافل عن مدى مطامعهم ونياتهم الاستعمارية المريبة . فجمهور الشعب العراقي وفي مقدمته معظم الزعماء والاحزاب والطبقات النيرة والشباب ناقم اشد النقمة على الانكليز تواق اشد التوقان الى تحرير بلاده من ربقتهم ، وفي كل مناسبة يسمع العالم من رجالات العراق على اختلاف ميولهم تصريحات قوية معربة عن هذه النقمة وعما يختلج في الصدور من عواطف ومطامح قومية أبية ، وللعراق الى هذا مواقف نضالية رائعة ضد الانكليز ، وقد كانت ثورته الكبرى سنة ١٩١٩ هي التي انقذته من مصير رهيب وانالته شخصيته الاستقلالية وقسطاً كبيراً من حقوقه وحرياته ، وقد حاول سنة ١٩٤٠ ان يغتنم فرصة الحرب الثانية وارتباك الانكليز الشديد في ظروفها فكانت ثورته الكبرى الثانية بزعامة رشيد عالي الكيلاني ونخبة من ضباط الجيش سجل بها حركة قومية خطيرة تشبه في كثير من ظروفها واهدافها حركة الملك حسين ابان الحرب العالمية الاولى بقطع النظر عن سيرها ونتائجها .

ومهما كان شأن الانكليز قبل الحرب العالمية الثانية فان هذا الشأن قد ضعف كثيراً بعدها وما زال يشتد ضعفه ، وصار الفكاك منهم اكثر امكاناً . فمن الواجب والحالة هذه ان تشتد الدعوة الى نبذ الجمود البادي اليوم في العراق والذي يتناقض مع ما عرف عنه من اباء ، والتحرك من جديد حركة قوية في سبيل الفكاك من اغلال المعاهدة والتحالف الابدي الاجباري والتطهر من احتلال الانكليز ومطاراتهم ومداخلاتهم السافرة وغير السافرة التي كانت وما تزال سبباً لتعثره في سبيل الحياة القوية الكريمة اللائقة بإبائه ومكانته في الكيان العربي العام وما سجله من صحف غراء في مواقف نضاله معهم وبما يترقبه العرب منه

في صدد نمو قوتهم وتكاملهم وتحقيق اهدافهم العليا ، وان لا يظل جامداً تجاه ما هو فيه من مظاهر الضعف والاغلال .

وعليه ان يعتبر بجارته ايران التي هي اكثر جواراً وبالتالي اكثر تعرضاً لبعبع الشيوعيين ثم التي كانت في ربقة الانكليز الاستعمارية الشديدة ، حيث وقفت منهم موقفاً رائعاً استردت به اعتبارها وكرامتها وخلصت به بلادها من استعمارهم الفظيع فضربت اقوى الامثال على ما يجب ان تقفه الشعوب الابية من المستعمرين المستغلين . ولقد تخلصت سورية ولبنان من براثن الافرنسيين القوية وتمتعا باستقلالهما التام الذي اشعرهما بالكرامة وفتح امامهما طريق الانطلاق الى الحياة العزيزة دون ما عائق ولا شائبة ، وليساهما أقل تعرضاً لذلك البعبع الذي يخوف به العراق ، وليس العراق اضعف منهما ولااقل جدارة للحياة الاستقلالية الكاملة ، وفيما حصلا عليه حافز يجب ان يحفز العراق ايضاً بكل قوة وشدة .

وعلى العراق أن يذكر الى هذا انه سيظل موضع غمز وموطن ضعف في المجموعة العربية مادام راسفاً في اغلال المعاهدة وما تمليه من توجهات وايحاآت وتهويلات كانت وما تزال سبباً لتعثرسيره وتكامله السياسي والاقتصادي والقومي، ولكثير من الاحداث الأليمة التي مرت بالامة العربية ، ثم سبباً لتعسير الاتحاد العربي وعلى الاقل اتحاد الهلال الخصيب الذي من شأنه ان يكون منه دولة متحدة قوية يبلغ تعدادها عشرة ملايين ويتسع فيها الافق السياسي والاجتماعي والاقتصادي لسكان هذا الهلال الذين يقاسون مايقاسون من ضيق وعناء وخوف بسبب عدم تحقيقه ، وسبباً كذلك لتعسير تشكيل جبهة عربية قوية صارمة متضامنة قلباً وقالباً تقف للعدو الغادر الذي انشب اظافره في الزاوية الجنوبية من هذا الهلال الموقف الواجب الذي يغسل به العار ويسترد الجزء الشهيد الذي كان للانكليز اليد الطولى فيما حل فيه وفي العرب بسببه من دمار وهلاك والذي ينسب الى العراق ورجاله خاصة نصيب كبير من مسئوليته المادية والأدبية . وعلى العرب ان يتضامنوا مع العراق في الموقف الذي تجب ان يقفه حتى يخلص من اغلال هذه

المعاهدة المشؤومة وتمهد له سبيل الانطلاق الحر الكريم . ولا نرتاب في ان العراق اذا تحرك حركة قوية سينال التأييد القوي الشامل من العرب ، وسيحقق ما تصبو اليه النفوس من آمال ومطامح .

وثالثاً : القضية الاردنية

-١-

ومركز الانكليز في الاردن قام منذ اصله على الغدر والخيانة . فالمنطقة كانت متصرفية تابعة لولاية سورية وظلت كذلك طيلت عهد الحكومة الفيصلية في الشام ١٩١٨ - ١٩٢٠ ولكن الانكليز كانوا يترسمون السيطرة عليها وعلى فلسطين معاً ، فهي متصلة بحدود الحجاز ونجد والعراق معاً وفي حدها الثاني ميناء العقبة وخليجها على البحر الاحمر وهي طريق خطوط النفط ، وكل ذلك متصل بمصالح الانكليز الاستعمارية والاقتصادية والسياسية والعسكرية كما هو واضح . وقد ساوموا الافرنسيين وضغطوا عليهم بتشجيع العرب ضدهم موقتاً مما اضطرهم الى الموافقة على التخلي لهم عنها وحينئذ غدروا بالعرب واطلقوا يد الافرنسيين في سوريا فسارع هؤلاء الى نسف استقلالها ... وهكذا دخلت هذه المنطقة في نطاق انتدابهم حينما وزعت الانتدابات التي كانت مظهر غدرهم بالعرب ومؤامرتهم عليهم . وقد قاموا في البدء بمحاولات محلية في سبيل تركيز شؤون المنطقة المحلية ثم انتهوا الى الاتفاق مع عبد الله بن الحسين على ان يكون على رأسها . وقد حرصوا على ان يكونوا المتصرفين الحقيقيين القابضين على شؤون الدولة السياسية والمالية والعسكرية في هذه المنطقة وان يكون الستار الذي يسترهم عن المسرح رقيقاً ، بل لم يكن في الحقيقة ستار حيث كانوا بارزين على هذا المسرح في اكثر الظروف والمشاهد . وقد عدلت المعاهدة المعقودة بينهم وبين شرق الاردن وخففت فيها بعض القيود وغدا مظاهر الدولة الاردنية اكثر بروزاً غير أنهم ظلوا أصحاب الشأن الكلي ظاهراً ومن وراء الستار في مختلف الشؤون

السياسية والمالية والاقتصادية والعسكرية . وقد اقنعوا القائمين بالامر فيها بان كيانهم قائم بهم فاشتدوا في التمسك بهم والتواثق معهم والاندماج في سياستهم اندماجاً تاماً كما ضمنوا بقاء احتلالهم وسيطرتهم الى اجل غير مسمى .

- ٢ -

ومن المؤسف ان قضية الاردن تنطوي على عناصر تجعلها أعسر حلا من من قضية العراق ، فهذا الجزء من بلاد الشام هو في حد ذاته أفقر من أن يكتفي بنفسه ويقوم فيه كيان دولة متماسكة ؛ واستيلاء اليهود على الجزء الأكبر من فلسطين جعل هذا الفقر أشد وأبلغ . وقد كانت الرغبة في قيام كيان دولة فيه مهما يكن هذا الكيان من الاسباب التي كانت تجعل عاهله الراحل يشتد في الاندماج في سياسة الانكليز ومشروعاتهم التي كان من ضروراتها اتخاذ شرق الأردن قاعدة لحامية لهم . وبدلاً من أن تكون هذه الحامية انكليزية تكلفهم عشرين مليون جنيه في السنة جعلت عربية مع استبقاء زمامها من كل ناحية في أيد انكليزية بحيث تكون عربية اللون فقط ، فتوفر بذلك على الخزينة الانكليزية أكثر من ثلثي ذلك المبلغ الباهظ ، وخدع الناس بالقول إن للدولة الاردنية جيشاً قوياً ، واندمج القائمون بأمر هذه الدولة في هذا الخداع ، وظلوا مندمجين فيه برغم ما ظهر في ظروف حرب فلسطين من الحقيقة المرة الأليمة التي لمسها جميع الناس وما زالون مندمجين فيه مع يقينهم وهم غير أغبياء بان هذا الجيش لن يحرك ساكناً ولن يطلق رصاصة في أي وقت وفي أي موقف إلا بأمر الانكليز ووفاقا لما تمليه سياستهم العليا التي هي ضد كل قضية عربية قريبة وبعيدة على طول الخط وضد قضية العرب الكبرى خاصة وهي قضية فلسطين والتي تملي عليهم بقيا كيان يهودي قومي وبقائه قويا ليكون سرطاناً فتاكا في جسم العرب ؛ وفي كل يوم يقوم الشاهد على صحة ذلك وذلك بقطع النظر عما يمكن ان يكون في هذا الجيش من ضباط وجنود يحسون بالحس العربي ويتمنون لأمتهم القوة والمجد .

ومع كل هذا الواقع الصادق الذي يلمسه ويتيقنه الناس جميعهم فان الانكليز والذين اندمجوا معهم وقاموا على أمر هذه الدولة صوروا نقمة وجود الانكليز وما يدفعونه من مخصصات لهذا الجيش نعمة وأرادوا أن يوقروا في أذهان الناس ان هذا وذاك دعامة لكيان هذه الدولة دفاعياً واقتصادياً من حيث حمايتهم من العدوان اليهودي ومن حيث كون المال المدفوع يشكل اكثر من نصف أرقام موازنة الدولة، ويفيد أهلها في صورة رواتب الضباط والجنود العرب والنفقات المحلية الأخرى! مع التنبيه على ان نصف ما يمن به الانكليز من مال يعطونه باليمين ويأخذونه بالشمال مقابل لوازم الجيش المتنوعة التي تجلب من بلادهم. وهذا فضلا عما يتناوله عشرات ضباطهم الذين يمسكون بزمام هذا الجيش من مرتبات ضخمة يقدرها العارفون بربع مرتبات الجيش. ومما ذكر في البرلمان الاردني أخيراً دليلا على ذلك أن راتب قائمقام انكليزي في الشرطة هو ٢٦٥٤ ديناراً وأن هذا المبلغ يوازي رواتب خمسة قائمقامين أو ٤٠ جنديا من العرب! ومع هـــذا فالانكليز يستعبدون البلاد بهذا المال الذين ينفقون أكثر من نصفه على ضباطهم وسلعهم ، والذين يتولون أمر البلاد يرون أن هذا المال ثمن معقول لذلك الاستعباد ويبررونه ويحاولون أن يظهروه كنعمة من نعم الله على هذه البلاد!

ومن المفارقات أن المملكة الاردنية وقعت معاهدة الضمان الجماعي وقائد جيشها والقابضون على زمامه من الانكليز وبقية ضباطه خاضعون لهم بطبيعة الحال ؛ وحينما يراد تنفيذ هذه المعاهدة أو الحركة في صدد تنفيذها سيكونون هم أو الخاضعون لهم النائبين عن هذه المملكة في المجلس العسكري الاعلى واللجان العسكرية الاخرى! ولعل هذه المفارقة هي عقدة هذه المعاهدة وسبب بقائها حبراً على ورق الى اليوم أو من أهم العقد والاسباب!

- ٣ -

وعلى كل حال فالانكليز مطمئنون كل الاطمئنان في شرق الأردن، ويعتبرونه من أقوى مراكز استقرارهم في الشرق العربي ؛ ويعدونه ليكون عوضاً أو جزءاً

من عوض عن قاعدة قناة السويس في الوقت نفسه ؛ ولا سيما إنه ذو مركز ممتاز لأن حدوده متصلة بسوريه والحجاز والعراق والبحر الاحمر . وهم لايألون جهداً في الحيلولة دون أي شيء يساعد الأردن على تحسين أحواله السياسية والاقتصادية تحسيناً أساسياً ليظلوا قابضين على خناقه وجاعليه غير مستطيع أن يستغني عنهم في حال . ولقد بدا لعاهله الراحل في أخريات أيامه أن يقيم بينه وبين العراق نوعاً من الاتحاد فتدخلوا باساليبهم الماكرة وعرقلوا المسعى لانهم حسبوا كما يبدو أن مثل هذا الاتحاد سيكون سبباً لاتساع مجال التضامن والتواثق بين اهل البلدين الذين يضمرون لهم اشد العداء والنقمة ويتوقون الى الخلاص من ربقتهم ، ثم لاحظوا ان مدة معاهدة الاردن الباقية طويلة تخولهم الاستمتاع الحر في المنطقة بينما مدة معاهدة العراق على وشك الانتهاء ، وقد ينشب بينهم وبين العراق نضال في سبيل تمديدها او تجديدها من الأفضل لهم ان يكون الاردن بعيداً عنه ...

واقد قامت حركة قوية في العراق والاردن معاً بعد ارتحال العاهل في سبيل تحقيق الفكرة الاتحادية فيما بينها ، ومع ان اهل الاردن يفضلون الاتحاد مع سورية وهو الطبيعي اكثر فانهم تحمسوا لحركة الاتحاد مع العراق ظناً منهم انها الايسر حصولاً بسبب تشابه الحالة بين البلدين من جهة سياسية واسروية ، ورأوها الوسيلة الممكنة الوحيدة لانقاذ بلادهم من حالتها الاقتصادية التي هي في اشد حالات السوء والانهيار فتدخل الانكليز وعرقلوا المسعى كذلك بعد ان كان يظن أنه وشيك النجاح . واندمج القائمون على امر هذه الدولة في العرقلة بل جعلوا زمامها في ايديهم ظاهراً بحجة الدفاع عن العرش والكيان وبحجة ان العراق لن يستطيع حماية الاردن كالانكليز ولن يعوض على ميزانية الدولة الاجزاء من مدفوعات الانكليز لنفقات الجيش وحينئذ ينهار هذا الجيش وتنهار قوة الدفاع عن الاردن ويكون لقمة سائغة لليهود برغم ما في هذه الحجة من مفارقات ومغالطات ! لأن العراق كالاردن مرتبط بمعاهدة مع الانكليز ،

ولان معاهدة الانكليز مع الاردن التي بموجبها يدفع الانكليز نفقات كتيبتهم والتي يترتب على الانكليز بموجبها الدفاع عن الاردن باقية ، ولأن الكيان العزيز ايضاً باق وكل ما كان يراد هو قيام اتحاد بين دولتين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدفاعية مع احتفاظ كل منها بكيانه وسلطانه الذاتي، مما فيه دليل حاسم على ان الانكليز هم العقبة الحقيقية التي تقوم في سبيل هذه الحركة الضرورية . ومن المؤسف ان بعض الجهات العربية اندمجت في هذه العرقلة مندفعة وراء الاعتبارات الشخصية والاقليمية فقويت وأدى ذلك الى حبوط الفكرة . ومن العجيب ما قيل في سبيل احباط المشروع انه مشروع انكليزي في حين ان القائلين يدركون حتماً انه لو كان كذلك لما وقف اي عائق دونه لأن للانكليز الكلمة النافذة في الاردن والعراق ، ولأن هذا الاتحاد مما يتمناه اهل الاردن والعراق ! ولو كان كذلك لما جرأ على معاكسته الذين عاكسوه من اولياء الامور في الاردن ، بل ولكانوا أقوى الناس اندفاعاً فيه ، ولم يقفوا الموقف الذي وقفوه إلا تنفيذاً لوحي الانكليز ...

ولقد بدت امارات تدل على احتمال نقل بعض قوات الانكليز من قناة السويس الى الاردن كجزء من تدبير مسألة الجلاء . ومع ان اليهود منذ اربع سنين وهم يعتدون على حدود الاردن على ما ذكرناه قبل فقد رأينا القائمين على امر الاردن يسارعون بمناسبة عدوان جديد وقع في هذه الظروف الى مطالبة الانكليز بتنفيذ معاهدة الدفاع وحماية الحدود الاردنية من العدوان اليهودي ، وسارع هؤلاء الى القيام ببعض المساعي السياسية الهزيلة ثم اعقب هذا زيارة قائد القوات البريطانية في الشرق الاوسط الى الاردن واذاعة عن ضرورة جلب قوات ومعدات انكليزية جديدة الى الاردن لتقوية وسائل الدفاع والاستعداد لرد العدوان اليهودي مما جعل المراقبين يربطون اطراف هذا الحادث ببعضها ويرون فيها اثراً من الايحاء الانكليزي لتبرير اتخاذ الاردن قاعدة أو جزءاً من قاعدة عوضاً عن قناة السويس ، ولاظهار حاجة الاردن الماسة الى حماية الانكليز

ووجودهم في ظرف اشتدت فيه مطالبة مصر بجلائهم عن ارضها !

ومن المضحك المبكي ان الحكومة الانكليزية اتخذت شكوى الحكومة الاردنية ومطالبتها بتنفيذ المعاهدة وسيلة الى اسداد النصح لها بعقد مؤتمر عال بينها وبين اليهود لتهدئة الموقف وتسوية الخلاف ، لان الايحاء لم يكن بسبيل عمل مجد وانما كان بسبيل هدف استعماري وسياسة انكليزية عليا .

— ٤ —

وما قلناه بالنسبة للعراق نقوله هنا ايضاً، فان الفئات الواعية في الاردن غير راضية عن هذا الواقع المرير ، وناقمة اشد النقمة على الانكليز وراغبة اشد الرغبة في الخلاص منهم . وقد أثبتت هذا في مواقف عديدة قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ، ومما لاريب فيه ان هذه الرغبة وتلك النقمة اشد الآن منها قبل نكبة فلسطين لأن القسم العربي الذي ضم من فلسطين الى الاردن اشد حقداً ونقمة بسبب تاريخ الانكليز مع أهله ثم بسبب النكبة الكبرى التي حلت بفلسطين والتي كان للؤم الانكليز وغدرهم وكيدهم اكبر الاثر فيها . وكل ما في الامر انهم عاجزون عن الاضطلاع بعبء نضال قوي مجد ضدهم خلافاً للعراق ومصر لقلة عددهم وضعف وسائلهم ولشدة قبضة الانكليز على اعناقهم ثم لخوفهم من نكبة جديدة ينكبونهم بها .

ومهما يكن من امر هذه الخصوصيات التي تعسر حل القضية الاردنية وتخليصه من ربقة الانكليز فان الواجب القومي يقضي على العرب أن لا يرضوا بهذا الواقع المرير . فان وجود الانكليز في الاردن واعتباره نعمة وضرورة هما فضلاً عن ما فيها من وصمة وعار في جبين العرب نقطة ضعف شديدة جداً في كيانهم السياسي حاضراً ومستقبلاً ، وعثرة كأداء في سبيل تقدمهم نحو التكامل والقوة والوحدة وبالتالي في سبيل أهدافهم العليا ، ولا سيما إن مركز الاردن ذو صفة استراتيجية عربية خطيرة لاتصاله كما قلنا بسورية والعراق والحجاز ونجد ومصر . وان من الواجب عليهم ان لا ينوا في مناوأته وازالته ومد يد العون المادي للاردن لجمله

قادراً على الاستغناء عن مساعدة الانكليز المسمومة مهما كان في ذلك من التضحية؛ ونحن على يقين تام بان معظم الشعب وفي مقدمته الفئات الواعية مستعدون للتجاوب مع كل حركة تحريرية . وقد يجعل نجاح مصر المأمول في قضيتها هذا العسر يسراً ، وقد ييسر هذا العسر فكاك العراق الذي هو اقرب منالاً حيث يفتح الباب لاتحاد سوري عراقي يسعى لتخليص الاردن وضمه اليه . وقد تكون سورية اولى من يضطلع بذلك الواجب ؛ لأن الاردن سوري في جغرافيته وطبيعته وتاريخه القديم والحديث ولأن سوريا اكثر من يتأثر من قيام هذا الواقع الذي هو اشد نقاط الضعف في سورية الطبيعية او سورية الكبرى التي يجب على الدولة السورية الحرة المستقلة تحقيق وحدتها . وسورية بامكانياتها الحاضرة وعهدها الجديد القوي وما بدا فيها من حيوية وطموح قومي تستطيع فيما نعتقد ان تضمن للاردن الحماية والدفاع وتجعله في غنى عن معاهدة الانكليز وكتيبتهم العربية اللون وما يعنون به من مال هو في الحقيقة غل غليظ في عنق الاردن وسورية بل وسائر البلاد العربية ؛ بل وانها لأقدر على هذا من الانكليز الذين عودونا على ان لا امان لعهودهم ومواثيقهم وانهم غادرون فيها حينما تملي عليهم سياستهم العليا الغدر دون حياء ومبالاة ؛ وان الاركان عليهم في حماية الاردن من اليهود عبث كل العبث ! وانا لنأمل ان يدخل رجال العهد في سورية هذا في مناهجهم المستعجلة وان يعملوا ما وسعهم العمل حتى يحققوه فيحطموا بذلك غلاً غليظاً في عنق جزء عزيز من بلادهم مهدداً دائماً بغدر العدو المشترك وليس هو محمياً في حقيقة الامر .

ولقد جاء خطاب تشرشل رئيس الحكومة البريطانية التي بينها وبين الحكومة الاردنية معاهدة دفاعية والذي القاه في مجلس العموم في شهر مايس – والكتاب تحت الطبع – والذي تمنى فيه تحقيق غاية الصهيونية العظمى – وهي كما يعلم هو قبل غيره « دولة اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات – مؤيداً خطيراً وعاجلاً لما نقول ، ونذيراً قارعاً للاردن خاصة وللعرب عامة بسوء نية هذه الحليفة

الماكرة النادرة وعدائها السافر الوقح للعرب ، وهو ما يقوم عليه الدليل كل يوم وفي كل مناسبة .

رابعاً قضايا العرب الاخرى مع الانكليز

— ١ —

ولا تنتهي مشاكل العرب مع الانكليز في مصر والعراق والاردن ، فانهم اصحاب مركز ممتاز ويد طولى في الامارات المنتشرة على سواحل جزيرة العرب كالكويت والبحرين وقطر وعمان ومسقط وحضرموت ولحج وعدن الخ . . . ولقد ترسموا السيطرة على هذه السواحل العربية منذ أوائل القرن السابق بحجة مواصلاتهم الامبراطورية ايضاً ، ثم غدت الوسيلة غاية في ذاتها هنا كذلك ، وخاصة بعد ظهور ما ظهر من ينابيع النفط الغنية فيها . وهم الآن اصحاب السيطرة التامة في هذه الامارات مباشرة ومداورة . وقد أقنعوا القائمين على رأسها بان كيانهم قائم بهم فاشتدوا بالتمسك بهم والتواثق معهم بل والاستسلام لهم استسلاماً تاماً .

ومما لاريب فيه أن بقاء هذه السواحل في ربقة الانكليز واستغلالهم عقبة كأداء في سبيل استكمال كيان العرب واستقلالهم وأهدافهم وتوثيق التضامن الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والدفاعي بين مختلف بلادهم ؛ وأن من واجب رجالات العرب ان لايظلوا مغفلين هذا الامر وتاركين حبله على غاربه . وتطور الاذهان واتساع أفق الوعي العربي العام مما سوف يساعد على نجاح أي خطوة تخطى الى معالجته .

وإذا كانت الظروف الحاضرة لاتيسر مجال الجهد القوي لتخليص هذه البلاد من الانكليز فان من الممكن والمفيد معاً أن تسعى الحكومات العربية لأدخال هذه الامارات كخطوة أولى وعاجلة في نطاق الجامعة العربية الذي اتسع لاجتماع دول مترابطة مع الانكليز مع دول حرة من الروابط . ومهما يكن هذا النطاق

فانه رمز لاجتماع شمل العرب ووحدة مصالحهم ومشاكلهم ؛ وفي ادخال هـــذه الامارات فيه إدخال لها في نطاق المجموعة العربية العامة التي هي الآن مع الاسف عثابة المنعزلة عنه ؛ فاذا مادخلت فيه اندمجت بطبيعة الحـــال في الحركة العربية الحديثة العامة سياسياً واجتماعياً وثقافياً وروحا ؛ وحينما يتم هذا ينفتح المجال لخطوات جدية اخرى ؛ ولا سيما اذا حلت عقـــدت القضية المصرية ثم القضايا العراقية والاردنية والفلسطينية وقويت حركة الدعوة الى الاتحاد العربي بين الدول العربية وفاق ماشرحناه في البحوث السابقة .

ولا يكتفي الانكليز بما تنشب مخالبهم فيه من الاقطار العربية . فهم الآن يبذلون جهودهم ، ويتفننون باساليب مكرهم وإغرائهم وضغطهم وترهيبهم وترغيبهم في سبيل انشابها في ليبيه المملكة العربية الجديدة ليكون لهم في شؤونها السياسية والعسكرية والمالية المركز الممتاز ولتكون لهم فيها قواعد عسكرية ايضاً على غرار مالهم في المملكة الاردنية من هذا وذاك مستغلين حداثة نشؤها وعسرها المالي وحاجتها إلى العون . ونجاحهم في جهودهم يجعل مصر خاصة بين فكي الكماشة من الغرب والشرق كما يزيد من عقد القضايا العربية وعراقيل تكامل الأمة العربية . فمن الواجب ان يتنبه العرب وخاصة مصر الى هذا الخطر الانكليزي الجديد ويحولوا دونه وذلك بمساعدة ليبيه وجعلها في غنى عن مساعدة الانكليز المسمومة .

وخامساً قضايا المغرب العربي

- ١ -

إن المغرب العربي هو الجناح الغربي العظيم للوطن العربي الكبير ؛ ولسوف يظل هذا الوطن ناقصاً غير مستوف لقوته وكيانه وعزته مادام هذا الجناح مهيضاً ولذلك فان قضاياه على جانب عظيم من الخطورة وتستحق من العرب أكبر عناية واهتمام .

وهذه القضايا تنطوي على أشد مايؤلم ويعض . فقد احتلت فرنسه باساليب البغي والعدوان الجزائر ثم تونس ثم مراكش واختطت فيها خطة رهيبة غايتها الغاء المغرب العربي الاسلامي من الوجود الغاء واستبداله بمغرب أفرنسي نصراني، وسبيلها الافقار والتجهيل والقضاء على المقومات الدينية والقومية والاجتماعية وإثارة النعرة الجنسية والتقاليد الجاهلية في البربر الذين اندمجوا في العروبة والاسلام منذ الاماد الطويلة وأصبحوا والعرب يؤلفون الشعب العربي الاسلامي المغربي لاجل التفريق والتوهين ، وعدتها الارهاب والتنكيل والتبشير والقذف بمئات ألوف الافرنسيين العاطلين المتبطلين الذين ضاقت بهم بلادهم ، واختصاصهم بخيرات المغربي العربي وبركاته وثرواته من أرض وزراعة وصناعة وتجارة ومعادن على حساب أهلها ، واعدادهم ليكونوا اليد المعوانة على تلك الخطة الرهيبة مما لايكاد يصدق وقوعه في أشد أدوار الظلم والقسوة والهمجية التي يمكن أن تكون انعدمت فيها معاني الرحمة والانسانية والعدل والمنطق ، ومما يثير الاشفاق والرأفة في أشد القلوب قسوة ويبعث اشد العجب من موت الضمير العالمي والسكوته على هذه المآسي والجرائم التي تمثل منذ عشرات السنين على مسرح هذه البلاد الشهيدة التي هي في سرة أوروبا وتكاد تكون في صميم نطاقها ، ومما يعد وصمة عار لاتمحي في جبين الحضارة الغربية وممثليها ، ومما يجعل المرء يزداد يقيناً بخرافة تلازم مبادىء الحرية وحقوق الانسان لفرنسه وثورتها الكبرى تجاه أي بلد او شعب آخر ، كما يزداد نقمة على أولائك العرب والمسلمين الجغرافيين خاصة الذين لايفتأون دون ما خجل يقررون ذلك التلازم ، ويشيدون بانسانية فرنسه وعدلها وحريتها ، ضلالاً وتضليلا بينما يكون وجهها الاستعماري الكالح الكريه بارزاً كل البروز وباشنع مناظره في جزء كبير من وطنهم العربي منذ عشرات السنين . ويزيد في غصة قصة المغرب العربي مع فرنسه وبشاعتها أن الاقطار المغربية كانت متمتعة باستقلالها آخذة بالسير في طريق الامم التي سبقتها في مضار الحضارة فتصدت لها فرنسه بغياً وعدواناً بدافع الطمع والجشع والسلب دون أي استفزاز . ولقد كان لاسبانيا يد ناشبة في بعض انحاء المغرب الاقصى (مراكش)

الشمالية فسارت هي الاخرى على غرار فرنسه في الروح والمنهج ومحاولة هدم الكيان والتنكيل والقمع والارهاب والاستعمار .

- ٢ -

ولقد ناضل المغرب نضالاً قويا وتحمل في سبيل نضاله تضحيات عظيمة جداً وما يزال يناضل ويبذل التضحيات ضد هذا المصير الرهيب المبيت له في وطنه ودينه ولسانه ومقوماته . ولقد كان يناضل قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها لوحده تقريباً لأن فرنسه حرصت أشد الحرص على أن تضرب ستاراً حديدياً بينه وبين المشرق العربي لمنع اتصالهما ببعضها ؛ وشمل هذا الستار مظاهر الحركة الفكرية أيضاً من صحف وكتب ونشرات وحظر ارتياد معاهد العلم الدينية والمدنية بل لقد شمل الحج حيث لم يكن يسمح للمغاربة أحيانا باداءه وحينما كان يسمح لبعضهم كان يحتاط ليكون المسموح لهم من الانصار والموالين وتحت اشراف موظفين مخلصين للسلطات الافرنسية فضلا عن تقييد السماح بقيود مالية وغير ماليه تجعله ضيق النطاق جداً .

ولقد خفت العزلة بين المشرق والمغرب العربيين بعض الشيء أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها حقاً ؛ حيث استطاع بعض أحرار المغرب اختراق ذلك الستار والقدوم الى المشرق ؛ فكان هذا عاملا من عوامل انتباه المشرق لقضايا المغرب ثم اندماجه فيها شيئاً فشيئاً تعرفاً وتأييداً ورعاية الى أن بلغ ذروته في في اندماج دول المشرق في القضايا المغربية واثارة هذه القضايا وتعضيدها في الاوساط الدولية ومطالبتها بحق الشعوب العربيه في المغرب بالحرية والاستقلال والكرامة وبذلها في سبيل ذلك شيئاً غير يسير من الجهود .

وتشجع مجاهدو المغرب واحراره في داخل البلاد وخارجها فضاعفوا جهودهم وتضحياتهم بل واندمج معهم ملكا مراكش وتونس فغدت قضاياه بارزة على المسرح الدولي وفي ميدان القتال الدموي في ان واحد .

ومن موجبات الأسف الشديد ان الاعتبارات الاستعمارية والدولية قد حالت دون الوصول الى نتيجة مرضية للجهود التي قامت بها الدول العربية في هيئة الأمم ؛ ففرنسه أنكرت حق العرب في الشكوى من تصرفاتها الغاشمة وخططها الرهيبة ؛ والدول الكبرى الاوروبية والاميركية ومن يدور في فلكها سايرت فرنسه مسايرة كبيرة ضاربة بميثاق هيئة الأمم ومبادىء الحق والعدل والانسانية عرض الحائط . وكل ما كان من أمر أنها كانت فاتحة لا بأس فيها لرفع الصوت واسماع الشكوى وتقبلها . وقد ظفرت بتأييد الكتلة الشرقية والدول الآسيوية والافريقية وكانت سبباً في بروز هذه الدول في المجال الدولي في الوقت ذاته كوحدة مما يفسح المجال للوصول الى نتائج حسنى في المستقبل .

ولقد أخذت فرنسه برعونتها وصلفها ومطامعها تهيء هذا المجال . فقد أمرتها هيئة الأمم بالسير في السبيل الذي يضمن للشعوب العربية حقها في الحكم الذاتي فلم ترعو ؛ وركبت رأسها فاشتدت في القمع والتنكيل ، وأخذ الصراع يشتد بينها وبين مجاهدي المغرب . ولقد صار من واجب عرب المشرق حكومات وشعوبا أن يشتد عونهم المادي - الذي قصروا فيه الى الآن تقصيراً شائناً - لهؤلاء المجاهدين الذين أثبتوا أنهم مستعدون لحمل العبء وجسيم التضحيات في سبيل تحرير بلادهم من اليد الباغية ، حتى تقوى حركة النضال وتتسع وتصبح شاملة لأقاليم المغرب الثلاثة ، وتستطيع أن تصمد أمام التنكيل والقمع الوحشيين . وهذا هو السبيل الوحيد الحق لأرغام فرنسه وغدو قضايا المغرب ملء السمع والاذهان ، وجعل الدول الاخرى لا تجد مناصاً من الوقوف موقفاً مؤدياً إلى نيل المغرب العربي حقه في الحرية والاستقلال والانطلاق . وعلى الواعين في المشرق العربي من كتاب وخطباء وصحافيين وأساتذة أن يشتدوا في الدعوة الى ذلك ، وأن يثيروا الى هذا حرباً متنوعة الجهات ضد كل ماهو أفرنسي من مصالح وبضائع وشركات ومعاهد وامتيازات في المشرق ؛ والعرب في هذا المشرق مستعدون للتجاوب مع هذه الدعوة إذا ما كانت قوية ومؤثرة ؛ ولا سيما انهم خبروا جبروت فرنسة وطغيانها وسوء نواياها نحو العرب كافة ؛ والفرصة الآن مواتية لأن النضال قائم وقابل

للاتساع ؛ وأي اهمال أو ضعف في العون سيؤدي الى انطفاء جذوته أو خمود لهيبه وسيكون هذا عاراً وأي عار على العرب اجمعين .

- ٣ -

وبعد فان قضايا العرب في المشرق والمغرب لن تحظى بالحلول المرضية الشريفة التي يستكمل بها العرب استقلالهم وحرياتهم وتجعلهم يسيرون قدماً نحو أهدافهم العليا من قوة ومجد وسؤدد واتحاد ومركز لائق بامجادهم وخصائصهم الا اذا تآخوا وتضامنوا ؛ وان من الحقائق الالمية أن استمرار تغليب الرؤساء والساسة السياسة الاقليمية والاعتبارات الشخصية ، وبقاء الصلات بين دول العرب على ما هي عليه من تخاذل وتنابذ ومكايدة ؛ وبقاء دستور جامعة الدول العربية كالحبر على ورق ، وعدم خطو خطوة جادة نحو شكل من اشكال الوحدة أو الاتحاد ، والتكاسل في تنفيذ معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي أو التباطيء فيه من أقوى اسباب ضعف العرب وموقفهم المتبلبل الحسير من قضاياهم القومية ؛ وان تشديد الدعوة الى تبديل الحال بما هو الاصلح والاقوم في كل هذه الشؤون على لسان كل حزب وهيئة وصحيفة ومنبر وأستاذ وكاتب وواعظ هو الآن اشد وجوباً من أي وقت حتى لايضيع وقت آخر على العرب فيما يجب عليهم عمله من اعداد وتنظيم قوى وتجهز وتسلح وتوحيد قيادة ونظم وتواثق وتعاون تام في مختلف الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وبهذا وحده يستطيع العرب أن يصلوا الى حلول مرضية لقضاياهم ، وأن يجعلوا وزنهم في المجال الدولي ثقيلا ومتناسباً مع عددهم ومركزهم وأن يواجهوا أي موقف غدر ومكر قد يفاجأون به ، وأن يتغلبوا على العقبات التي تقف دون تقدمهم نحو الحياة الكريمة العزيزة الكاملة .

وإن الشعوب العربية مستعدة للاستجابة بكل قوة الى كل تضحية تدعى اليها وقادرة عليها ومرحبة بها ؛ فان الجراح التي احدثتها فيها الدول الباغية ناغرة؛ وهي تنتظر اليوم الذي تصدق فيه عزائم رجالها وساستهم ورؤسائهم ويحسن فيه

التوجيه ويجد الجد . ولسوف تستطيع أن تشن على الدول الباغية حرباً متعددة الجبهات ضد كل ماهو افرنسي وانكليزي واسباني من مصالح وبضائع وشركات وامتيازات ومعاهد ومنشآت كما تستطيع أن تقف منهم مواقف نضالية دموية قوية ، ولقد اثبتت هذه الشعوب انها مستعددة حينما تلتهب عاطفتها ويثور حماسها للاقدام على اعظم الاخطار ، وتحمل أشد العناء والتضحيات بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى تضطر القوى الاستعمارية التي لاسند لها الا الباطل والغدر والبغي والتهويش الى الاذعان في أحيان كثيرة . وهي مستعدة لتكرار الدور كلما دعيت اليه كما أن في وسعها ان تنزل افدح الاضرار بمصالح المستعمرين العظيمة في بلادها اذا مارسمت لها الخطط وقام على تنفيذها جماعات قوية في ايمانها وإخلاصها وهدفها القومي .

واذا كان هناك من يقف عثرة في هذا السبيل من ساسة العرب ورؤسائهم تأثراً بالاعتبارات الشخصية والاقليمية رغم كل القوارع والنذر ؛ واذا كانت هناك عقبات بسبب واقع بعض البلاد السياسي والعهدي والطائفي فان على من يؤمن بما نقول وعلى من هو متحرر من مثل هذه العقبات ان يضطلع بالعبء ويتضامن مع امثاله وان لايقف مكتوف اليد مستسلماً .

والحركات الانقلابية التي تمت في سورية ومصر والتي دلت على تشارك في الحافز والهدف والاسلوب والتي يقوم على شؤون البلدين نتيجة لها رجال أقوياء مخلصون مدركون للواقع العربي المرير وتائقون لازالته جدرة بان تحفز هؤلاء الرجال الاضطلاع بهذا العبء فيكونوا رائدي الأمة العربية في هذا المجال .

(٥) مسألة الدفاع المشترك

- ١ -

لقدغدت هذه المسئلةمن مشاكل العرب السياسية التي تعرضهم لضغط وامتحان شديدين ؛ مايجعلنا ان نفرد لها بحثاً خاصاً .

فالمعسكر الغربي يزعم ويكرر أن هناك فراغاً دفاعياً في الشرق الادنى والاوسط ؛ وأن هذا الفراغ ثغرة ستفيد منها الروس في حرب عامة فيسيطرون على هذا الشرق ، وأن من الواجب سد هذا الفراغ بتنظيم الدفاع عنه حتى يصمد أمام الغزو المحتمل ؛ و يريد هذا المعسكر أن يشارك دول الشرق بقواته في سد هذا الفراغ . وبعبارة أخرى يريد أن يعتبر العرب أنفسهم أعداء للروس وأن ترتبطوا بعجلته ويندمجوا في جبهته لمحاربتهم .

وأول خطوة خطاها هذا المعسكر كان بتقديم مشروع من قبل بريطانيه وفرنسه وتركيه والولايات المتحدة الى مصر ليكون مقر قيادة الدفاع عن الشرق الاوسط قناة السويس ويكون في الوقت نفسه حلا لمشكلة القناة القائمة بين مصر وبريطانيه بحيث تشترك هذه الدول ومن سوف ينضم اليهم من دول الشرق الاوسط والكومونوياث في انشاء هذا المقر وقوات الدفاع التي توضع تحت أمره وتصبح التسهيلات والارتفاقات المخولة للانكليز في القطر المصري واجبة لهذا المقر وقواته . ولقد قدم المشروع في أثناء اشتداد حركة مطالبة مصر بجلاء الانكليز عن مصر على اعتبار ان هذا الجلاء سينشأ عنه الفراغ المزعوم أو يتسع به وأنمن

الواجب ان يقوم نظام دفاعي آخر مقامه .

وقد كان واضحاً ان المشروع في بدء امره او هدفه من المداورات الانكليزية التي تنوعت صورها خلال السنين الخمس الماضية مع مصر باسم الدفاع المشترك ، حيث يبقى الانكليز في مصر وتشترك معهم في احتلالها قوات اميركية وافرنسية وتركية واسترالية وزيلاندية وافريقية وربما يونانية وطليانية الخ ... وقد قدم وزراء الدول الاربع المفوضون صورة عن المشروع للدول العربية الاخرى في نفس اليوم الذي قدم فيه لمصر واخذ هؤلاء الوزراء يتصلون بالحكومات العربية ويدورون ويلفون حولها في صدد هذا الموضوع مما فيه دلالة حاسمة على نية تشميل المشروع لبقية بلاد العرب حينما تقبله مصر فتقوم فيها قيادات مماثلة تابعة للقيادة العامة ومدعومة بطبيعة الحال بقوات مشتركة . وقد زوق المشروع بان مصر ستكون ممثلة في قيادته على قدم المساواة مع الدول التي تتمثل فيها في حين ان مصر لن تكون اكثر من صاحبة صوت واحد ازاء اربعة اصوات او اكثر بطبيعة الحال .

كذلك كان واضحاً ان كل هذا انما هو بقصد ربط الدول العربية جميعها بعجلة المعسكر الغربي ربطاً محكماً وأبدياً لا فكاك منه فتغدو البلاد العربية به تحت سيطرة وتصريف واحتلال هذا المعسكر باسم الدفاع عن الشرق الاوسط في الظاهر ولاستخدام مواردها ومرافقها ودماء ابنائها لضمان مصالح هذا المعسكر الاستعمارية والاستثمارية فيه في الحقيقة ، لأن الخطر الروسي الذي يخوف العرب به افتراضي بينما شر هذا المعسكر وخطره واقعان راهنان على العرب على اوسع مداهما احتلالاً واستثماراً ومطامع وشركات وامتيازات ومكائد وخيانة وغدر ونيات مريبة ثم ناراً وحديداً وارهاباً وتدميراً وسلباً كما تفعل فرنسة الآن في المغرب بتأييد وتعضيد بقية زميلاتها وكما فعلت قبل فرنسة وبريطانية في مصر وسورية ولبنان وفلسطين والعراق بالاضافة الى الشر اليهودي الاكبر الذي خلقوه وأهانوا به العرب اعظم اهانة وجرحوهم ابلغ جرح وجعلوهم منه في هم مقيم مقعد يهدد بخطره بلادهم على اوسع صور التهديد ، فضلا عن انطواء

المشروع على حماية هذا الشر بالقوة من اي محاولة عربية للقضاء عليه او ازعاجه بحيث يقال بحق وحزم ان العرب واقعون من اذى المعسكر الغربي وتصرفاته الراهنة ونياته المكشوفة في خوف وشر وخطر لا مزيد عليه ولا يمكن ان يبلغ الخطر المفروض مبلغه وخاصة في بلاد سوادها الاعظم فقراء معدومون ... وهذا عدا كون هذا المعسكر بمثل هذا المشروع يريد ان يجعل العرب اعداء من الآن لروسية وللدول الشيوعية الاخرى بلاموجب ولا استفزاز وبرغم ما في هذا من جعل بلادهم عرضة للخطر في حين ان الخطر عليها منها خطر افتراضي فقط وقد لا يكون اذا لم يقف العرب منها موقف العدو السافر . ونقول هذا ونحن نعرف ان خطر روسيا عظيم في حد ذاته وان موقف روسية من قضية فلسطين سنتي ١٩٤٧ - ١٩٤٨ كان من اسباب كارثة فلسطين وقيام الدولة اليهودية وتمكنها وذل العرب ، وان سلاح وطيارات وخبراء وقواد الشيوعيين الروس وغير الروس كانوا عوامل حاسمة في ذلك . غير ان موقف المعسكر الغربي وخاصة زعيمتيه بريطانية والولايات المتحدة في هذه الكارثة كان موقفاً أصيل الهدف بينما كان موقف روسية غير اصيل بمعنى أنه أريد به التشويش والتعكير وخلق اسباب الاضطراب في الشرق العربي بصورة خاصة . وهذا فضلاً عن انه من الصعب ان ينصرف خوف الناس الى خطر غير واقع عن خطر واقع فعلاً كما هو المتبادر .

- ٢ -

ومن أعجب العجب وأوقح الوقاحة ومما يدل على بالغ الاستهتار أن المعسكر الغربي يريد من العرب كل هذا بدون ثمن تقريبـــاً ؛ وبدون أن يخجل وهو يطالبهم به من أن يغدق على اليهود المساعدات والقروض ويعمل بكل وسعه كل ما فيه تمكينهم وتقويتهم مادياً وحربياً وسياسياً ، ويسكت عن كل مايقترفونه من آثام ، ويحاول تصفية قضية فلسطين على أساس الامر الراهن والغاء قرارات هيئة الأمم المتحدة القاضية بتدويل القدس وعودة اللاجئين وتعويض من لا يرغب

العودة منهم ورفع يد اليهود عما هو مخصص للعرب من أراض ومدن وقرى ، ثم يتضامن أشد التضامن ضد حركات المغرب العربي التحريرية وضد قضاياه في في المجالس الدولية فيسفر بذلك عن وجهه الاستعماري الطامح الكامح ، ويدوس كل مبادىء الحق والشرف والديموقراطية ومواثيق هيئة الأمم الأصلية والفرعية ومما يبعث على الدهشة والأسف أن الولايات المتحدة الاميركية التي تدعي أنها رائدة العالم الحر المزعوم تندمج في هذا الموقف الباغي أشد الاندماج . .

ولقد رفضت مصر المشروع بإباء وشمم لتعارضه مع آمالها وأمانيها وأعلنت بلاد العرب استنكارها وتضامنها مع مصر في الرفض لانها لم يفتها مافي المشروع من نيات الكيد والمكر . غير أن المعسكر الغربي لم ييأس ؛ وأخذ يسعى وما يزال في سبيل تحقيق مآربه بالتهويش حيناً والضغط حيناً والاغراء حيناً ؛ حتى لقـد استغل السياسة الشخصية والاقليمية التي تسيطر على رؤساء وسـاسة الدول العربية واستطاع أن يحدث ما يمكن ان يسمى أزمة تضامن بين الدول العربية وأن يزيد في شلل حركة الجامعة العربية .

ومع ان الحكومات العربية تبدي ضمناً وصراحة استعدادها للاندماج في المعسكر الغربي ومشاريعه الدفاعية رغم مافي ذلك من تعريض بلادها لتدمير الحرب وويلاتها مقابل تساهل هذا المعسكر في حل قضايا العرب حلا مرضياً تطمئن به نفوسهم وتقر به مضاجعهم ويستردون به كرامتهم واعتبارهم ويسيرون به نحو التكامل القومي والاجتماعي والعمراني فان هذا المعسكر لايجنح الى شيء التساهل ويصر على تحقيق مآربه من العرب بدون ثمن تقريباً ومع الاستهتـار البـالغ .

على أن خطر الحرب العامة وخطر الغزو الشيوعي بالتالي الذي يخوف المعسكر الغربي به العرب مازال كما قلنا افتراضياً . وكثير من زعماء السياسة في العـالم يقولون انه غير قريب وغير أكيد أو انه اليوم أبعد منه بالأمس ؛ ويشترك في هذا القول زعماء بريطانيه والولايات المتحدة المسئولون ايضاً . فالحاح المعسكر

الغربي الحاحاً عجيباً في كل فرصة ومناسبة وصورة والتهويل فيه واغراق العرب بالدعايات المختلفة في صدده لا يمكن تفسيره الا كما قلنا بان هذا المعسكر انما يتخذ هذا الخطر الافتراضي وسيلة تخويف وتهديد وضغط ليبقى قدمه ناشبة في الارض التي هي فيه ، وليدخل في شبكته ماهو فالت منها من الاراضي العربية حتى يضمن دوام ونجاح مصالحه الاستثمارية والاستعمارية في بلاد العرب مشرقها ومغربها ، وحتى لا يشتد لهيب الجذوة القومية المشتعلة فيها التي أخذت تقض مضاجع دول هذا المعسكر . ولقد أخذت ترتفع أصوات الحياد وقيام قوة ثالثة تقف حاجزاً بين المعسكرين وتنجو على الاقل من أهوال الحرب وتخريباتها . وتتزعم هذه الحركة دولة الهند العظمى التي هي عضو في الكومونويلث الانكليزي ؛ ويرددها كثير من أقطاب العرب وعقلائهم ويرون فيها علاجا ناجعاً لنجاة بلاد العرب من من أهوال الحرب ، ولتفادي وقوف العرب من الآن موقف العداء السافر من الدول الشيوعية بدون موجب ولا استفزاز ، ومنهم من يدعو الى عقد مواثيق عدم اعتداء بين دول العرب وهذه الدول بسبيل ذلك فيعمد المعسكر الغربي ومأجوروه ومخدوعوه وصنائعه وأبواقه وصحفه واذاعاته الى التعكير على هذه الاصوات وخنقها مما فيه دلالة على صحة ذلك التفسير .

ولعل من الادلة القاطعة على ذلك موقف بريطانيه خاصة والمعسكر الغربي عامة من قضية تقوية الجيوش العربية وتسلحها . فهذا المعسكر يتظاهر بالجزع الشديد لما زعمه من فراغ دفاعي في الشرق العربي بينما يعمل بكل قوته لاحباط كل محاولة تحاولها دول هذا الشرق في سبيل التسلح والتجهز والاستعداد لسد ذلك الفراغ الذي هي قادرة عليه وأولى من يقوم به ؛ وهذا بالرغم مما توجبه المعاهدات المعقودة بين بريطانيه ومصر والعراق من التزامات على بريطانيه في صدد تسليح جيوش هذه الدول وتجهيزها وتقويتها . ولقد نصت المعاهدة المصرية الانكليزية لسنة ١٩٣٦ الملغاة أن بريطانيه تجلو عن قناة السويس وتسلمها للجيش المصري حينما يصبح قادراً على الاضطلاع بالمهمة ، وتعهدت بريطانيه بتقوية هذا الجيش ومده بالسلاح والاجهزة ليصبح قادراً . ومع ذلك فانها أهملت القيام بما

تعهدت به ؛ ومنعت السلاح والاجهزة عن مصر من معاملها ، ولم تأل جهداً في احباط مساعي مصر في سبيل تدبير ماتحتاج اليه من ذلك من غيرها . . . ولقد عقدت الدول العربية فيما بينها معاهدة للدفاع المشترك فيها كل الكفاية لسدالفراغ ولا ينقصها إلا التنفيذ ؛ غير أن بريطانيه خاصة تقف في طريق هذا التنفيذباساليبها الماكرة وما لها من كلمة نافذة في بعض الدول العربية ؛ ثم باحباطها محاولات الدول العربية لتسليح جيوشها وتقويتها ! ففي هذا دلائل قاطعة على سوء نية بريطانيه والمعسكر الغربي وعلى ان هدفهم الصحيح هو ابقاء الدول العربية ضعيفة وابقاء هيمنتهم قائمة على بلادها لمصالحهم الاستعمارية اكثر من أي شيء آخر .

لذلك فان من الواجب على ساسة العرب ان يحـــذروا الوقوع في الشبكة المنصوبة لبلادهم كل الحذر ؛ وان يقفوا فضلاعن ذلك من المعسكر الغربي الموقف المناسب مع موقفه المستهتر من قضاياهم الى أن يبدل هذا الموقف تبديلا صادقاً . ومن الواجب على الواعين من الامة العربية أن تكون دعوتهم الى ذلك قوية شديدة حتى لايبقى امكان لاي من الدول العربية أن تضعف وأن تخامر فيه وحتى لايجرأ أي متعاقل من العرب الى الدعوة اليه وحتى لاينخدع الناس بتهويش هذا المعسكر وتهويش مأجوريه ومخدوعيه بعد ان قامت البراهين الحاسمة على أن العرب لن يجنوا منه الا الشر سواء أكانوا معه أم ضده أم وقفوا على الحياد من صراعه مع المعسكر الشرقي ، وليوقن العرب جميعهم أنه لن يفعل بهم أكثر مما فعل حتى لو نشبت الحرب الثالثة التي يخوفهم بها لأجل غل أيديهم ورقابهم والتي مازالت غير محققة الوقوع واحتلت قواته بلادهم عنوة . ولخير للعرب ان يحتل هذا المعسكر بلادهم وهو عدو صريح من أن يحتلها وهو عدو منافق لان الحالة الاولى سوف تكلفه من الجهد والمال والدم مالا تكلفه الحالة الثانية في حين أن الحالة الثانية لن تفيدنا شيئاً جوهرياً . وليس لما يمكن أن يقطعه لهم من وعد أو عهد أي قيمة وضمان على فكاك بلادهم منه ونيلها حقوقها عن يده وبرضائه . وقد سار العرب في ركابه في الحربين السابقتين وقدموا بلادهم وابناءهم ومرافقهم له وقطع لهم العهود والوعود فعاملهم أشد مما عامل به أعداءه ، وغدر بهم أشنع غدر ؛ وكانت مكافأتهم

منه في الحرب الاولى تجزأة واستعماراً وذلاً واستثماراً ووعد بلفور المشؤوم ، وكانت مكافأتهم منه في الحرب الثانية الدولة اليهودية التي مازال يشتد في تأييدها وتعضيدها وتقويتها وتشجيعها وحمايتها مادياً وسياسياً ويسكت عما اقترفته من آثام منكرة وما قابلت به قرارات هيئة الامم من استهتار واحتقار ، لتكون الكابوس الاعظم على العرب وبلادهم بعد أن شردت أهل فلسطين أشنع تشريد وجردتهم أفظع تجريد ؛ وما يزال باسطاً يده الشديدة الباغية على المغرب العربي وسواحل جزيرة العرب الشرقية والغربية والجنوبية ينهب خيراتها وثرواتها ويسوم أهلها الخسف ويخمد انفاسهم بالحديد والنار ؛ وما يزال يتمسك بالذهنية الاستعمارية البالية في موقفه من مصر والعراق والاردن ؛ وليعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا ؛ وليذكروا أن الله ناصر من نصره ، وإنه وعد المؤمنين الصادقين بالنصر مهما قلوا على الظالمين مهما كثروا اذا آمنوا واتقوا وصبروا وعزموا وجاهدوا واتحدوا قلباً وقالباً . ولن يضيع على العرب شيء اذا نشبت حرب عامة ولم يكونوا داخلين في عجلة المعسكر الغربي واحتل هذا المعسكر بلادهم عنوة مما هو المفروض الذي يحتجج به المتعاقلون من العرب أو صنائع المعسكر الغربي وابواقه ؛ لان هذا المعسكر سوف يرى نفسه مضطراً للتفاهم مع حكومات بلادهم ولن يتحمل أن تظل صلاته مع البلاد صلات عداء سافر لما يكلفه ذلك من تكاليف عظيمة .

-٣-

ولقد خيل لبعض العرب أن طارئاً جديداً قد طرأ على المعسكر الغربي بتبدل الحزب الحاكم في الولايات المتحدة الاميركية التي هي زعيمة هذا المعسكر وأقوى دوله وصاحبة الشأن الاعظم فيه ، وخروج الحكم من ترومان والحزب الدعوقراطي الذي يتحمل أعظم نصيب من اثم جريمة فلسطين ؛ ولا سيما ان الحزب الجمهوري غير مدين لليهود وغير مقيد بهم بل على العكس انهم بذلوا كل جهد لخذله ونصر الحزب الدعوقراطي الذي كان لهم عليه وعلى رئيس الجمهورية الذي هو منه الكلمة

النافذة ؛ وأن أرباب المصالح وشركات البترول هم عماد الحزب الجمهوري وهم خصوم طبيعيون لليهود .

ومن الحق أن بعض بوادر بدرت من أمريكا قد تدعم صواب ماخيل لبعض العرب من احتمال تبدل سياسة الولايات المتحدة نحو العرب واستعداد رجال الحكم الجديدين لتفهم القضايا العربية وتعديل موقفهم منها تعديلا ملائماً وخاصة بالنسبة لليهود . ففي شباط هذه السنة اجتمع الامير فيصل آل سعود بالرئيس ايزنهاور ثم صدر بيان رسمي من البيت الابيض أشير فيه الى اهتمام الرئيس لتدهور العلاقات بين العرب والولايات المتحدة من جراء السياسة السابقة ورغبته الشديدة في العمل على اعادة الثقة بينهما . ثم أذيع رسمياً عزم وزير الخارجية الاميركية على زيارة بلاد الشرق العربي للاتصال برجالها وتفهم القضايا العربية وتوطيد الثقة والصداقة بين البلاد العربية والولايات المتحدة ؛ كما أذيع أن الحكم الجديد لن يسير على خطة الحكم السابق في اعتبار دولة اسرائيل مساوية لجميع دول العرب في المساعدات والتسلح ، وكل مايمكن ان يكون اعتبارها دولة من دول الشرق الأدنى ومعاملتها على قدم المساواة مع كل دولة من دوله ؛ وأذيع كذلك أن مجلس الشيوخ الاميركي قرر اجراء تحقيق فى مشاكل عرب فلسطين .

ولقد أخذت منذ شهور عديدة ترتفع اصوات كثيرة وقوية من كثير من رجالات السياسة والعلم والصحافة والعمل الاميركيين لتنبيه بلادهم ورجال حكوماتهم الى ما لحق العرب من بغي وظلم واذلال من ترومان وسياسته وما كان لهذا من جرح عميق في قلوب العرب بعث فيهم الحقد الشديد ضد الولايات المتحدة بعد ان كانوا يعتبرونها ممثلة العدالة والحرية ، وما سوف يكون لهذا من اضرار متنوعة بمصالح اميركا وسقوط كرامتها وهيبتها وكلمتها في حين ان مركز البلاد العربية هو المركز الممتاز في موقعه وثروته وان صداقة العرب هو خير بما لا يقاس عليه من صداقة اليهود الذين لم يكن كل ما قدم اليهم ليجعلهم مخلصين في ولائهم ، وفي حين ان قضية اليهود في فلسطين قضية خاسرة اولاً واخيراً لما

تنطوي عليه من عناصر متباينة في الجنس واللغة والمبادىء والأفكار والأمزجة تبايناً شديداً يجعل تماسكها شبه المستحيل ، ولأنه ليس في فلسطين من الاسباب المادية ما يضمن قيام دولة يهودية فيها محاطة بالاعداء من كل جانب ؛ وطلبوا بالحاح وتكرار اعادة النظر في سياسة اميركا من جديد بل وقلبها رأساً على عقب لوضع الامور في نطاق الحق على اعتبار ان العرب هم اصحاب الشرق الادنى جميعه وهم اصحاب النفوذ الادبي الواسع في الشرق الاوسط جميعه ، مما كانت تلك البوادر رد فعل قوي له .

ولقد زار وزير خارجية اميركا دول الشرق العربي واجتمع الى اقطابها الذين اسمعوه كلاماً صريحاً قوياً ومتحداً في قضايا العرب وعلاقاتهم بالمعسكر الغربي وباميركا خاصة وعدم امكان استقرار الشرق العربي وتعاونه مع المعسكر الغربي بدون حل قضايا العرب حلاً كريماً ؛ ومسئولية اميركا عن ماعليه الشرق العربي من قلق بسبب تأييدها ومساعدتها لليهود باوسع مقياس ثم تأييدها الروح الاستعمارية الافرنسية والانكليزية . وكان هذا نتيجة لاجتماع وزراء خارجية الحكومات العربية قبيل وصول الوزير حيث قرروا توحيد موقفهم امامه ؛ وكان من مقرراتهم تأييد مطالب مصر في جلاء الانكليز عن القناة دون قيد وشرط ، ووجوب الزام اليهود بتنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة في عودة اللاجئين والتعويض على الذين لا يرغبون في العودة وتدويل القدس ورفع اليد عن المناطق المخصصة للعرب في قرار التقسيم ،وانلطة الدفاع عن الشرق العربي باهله بواسطة معاهدة الدفاع المشترك وتمكين الدول العربية من التسلح والتجهز وتقوية جيوشها حتى تسد الفراغ الذي في امكانها سده بذلك ، وتأييد قضايا المغرب العربي والسير في خطوات تنفيذ معاهدة الدفاع المشترك الخ... وقد اذاع الوزير في اثناء زيارته بيانات تشير الى أنه تفهم قضايا العرب ووقف على اشياء لم يكن واقفاً عليها ، وان كل هذا سوف يساعد على رسم سياسة الولايات المتحدة مع البلاد العربية .

غير ان من واجبنا التحذير من التفاؤل الكثير من هذه البوادر . ففي الحزب الجمهوري زعماء اقوياء مناصرون لليهود بكل حرارة وفي مقدمتهم تافت الذي كان منافساً لايزانهاور وديوي الذي كان مرشح الحزب ضد روزفلت. واقد تدخل تافت في حركة التحقيق في مشاكل عرب فلسطين فقلبها من فكرة تحقيق قضائي تتولاه لجنة قضائية الى فكرة تحقيق سياسي تتولاه لجنة شؤون الشرق الادنى التي يرأسها مما جعل المراقبين يرون في هذا اصبع اليهود بارزة لاحباط هذه الحركة او تسييرها في طريق متفق مع اهوائهم . وفي كل مناسبة تبدر من ديوي بوادر التعضيد والتأييد لليهود وجباياتهم وهذا فضلا عن مالهم من انصار اقوياء آخرين في الحزب الجمهوري بالاضافة الى انصارهم الاقوياء الكثيرين في الحزب الديموقراطي الذي له قوة عظيمة في مجلس النواب والشيوخ. وكلا الحزبين مرتبط في ظروف ومواقف عديدة بالمنهج الصهيوني ارتباطاً وثيقاً . والصهيونيون في اميركا الشمالية الى هذا كله متغلغلون في مختلف اجهزة الدولة البرلمانية والادارية والسياسية والاقتصادية وهم أصحاب التأثير الاقوى بل الكاسح على وسائل البث والنشر ولهم تنظيم محكم قوي الجهاز والنشاط . فليس من السهل ان تتبدل سياسة الولايات المتحدة نحو العرب تبدلاً كبيراً . وكل ما يمكن ان يكون هو تعديل وتخفيف لموقف اميركا الذي ينطوي على محاباة شديدة صارخة لليهود على العرب ولن يكون في هذا ما يرجوه العرب من امكان حل قضاياهم حلاً أساسياً كريماً .

واقد انتبه الصهيونيون الى البوادر البادية فنشطوا اعظم نشاط للوقوف في وجهها واحباطها . وقد استغلوا ما كان من تجهم الدول الشيوعية نحو اليهود بسبب ما بدا من خياناتهم ، فاخذوا يقومون بدعايات واسعة في الولايات المتحدة في صدد كون ما حل ويحل باليهود هو نتيجة لولائهم للمعسكر الغربي ، وان واجب الولايات المتحدة زعيمة هذا المعسكر ان تبذل لاسرائيل المزيد من المساعدة والتأييد لتستطيع الصمود امام هذا الموقف . واخذوا يهولون في اخبار مايقع على اليهود ويبالغون في عدد الفارين منهم على نحو ما فعلوه في ابان الحركة الهتلرية

التي كانت سبباً لاغراق فلسطين بمهاجريهم وصارت العامل الحاسم فيما صار اليه اليهود من عدد وقوة وتمكن ، حتى لكأنهم خلقوا هذه الفرصة خلقاً ليتخذوها وسيلة تعويض ما فقدوه من ترومان وحزبه وكسب عطف الحزب الحاكم الجديد. ولم ينسوا ان يشركوا العرب في حملتهم ليتسنى لهم احباط الاتجاه الاميركي الجديد فأخذوا يقولون إن الدول الشيوعية تتقرب بعملها للعرب وان العرب مستعدون للتجاوب معها ضد المعسكر الغربي ، وانهم هم وحدهم الاهل لثقة هذا المعسكر واطمئنانه وتأييده دون العرب ، وانه يجب ان يمنع السلاح والمال عن العرب لئلا يقووا وتقوى بهم الشيوعية الخ الخ ... ولقد ظهرت آثار مساعيهم ودعاياتهم هذه بما كان من تصريحات لايزنهاور وبعض كبار رجال حزبه وحكومته منطوية على تأييد الدولة اليهودية وتشجيعها ، ومتضمنة الاشادة بها ووعوداً باستمرار مساعدتها حتى ترسخ قدمها وتقوى اقتصادياتها وازدهارها ، وتقدر على ايواء المهاجرين اليها ...

ففي كل هذا ما يحمل العرب على القصد في التفاؤل ، وعلى الاستمرار على الموقف القوي المتناسب مع الموقف الذي يقفه المعسكر الغربي منهم على ماشرحناه قبل الى ان يتبدل هذا الموقف تبدلاً فعلياً صحيحاً وذلك بحل قضايا العرب حلاً كريماً لا ميوعة فيه (١)

على ان هذا لا يمنع العرب بطبيعة الحال من استغلال هذه البوادر لقضاياهم في الولايات المتحدة عن طريق البث والدعاية ؛ بل ان الموقف ليوجب هذا الآن أشد من أي وقت سابق . فالولايات المتحدة هي كما قلنا صاحبة الشأن الاعظم في المعسكر الغربي وتستطيع ان تفعل كثيراً في فرض حلول ملائمة لقضايا العرب وخاصة لقضية فلسطين ، ولن يكون لليهود مناص من الاذعان لها اذا ما وقفت

---

(١) جاءت البيانات التي صدرت من وزير خارجية اميركا الشمالية بعد عودته الى واشنطن – والكتاب تحت الطبع – مصداقاً عاجلا لذلك حيث جاءت مخيبة للامل وغامضة وضيقة النطاق وليس من شأنها ان توحي بالامل بان الولايات المتحدة ستبدل موقفها من العرب وقضاياهم وخاصة قضية فلسطين تبديلا مهماً .

موقفاً قوياً لان حياتها ومماتها في يدها تقريباً . وامكانيات التأثير متوفرة الآن بسبب تلك البوادر وخاصة على اثر زيارة وزير خارجية اميركا ووقوف حكومات العرب امامه موقفاً قوياً موحداً . ومن المؤسف المحزن ان الدعاية العربية ضعيفة جداً في الولايات المتحدة مع تفاهة تكاليفها اذا ما قيست بما يمكن ان يكون لها من ثمرات . ولقد اذيع اكثر من مرة خبر عزم الحكومات العربية على تأسيس مكتب عربي قوي للدعاية في الولايات المتحدة في نطاق جهاز الجامعة العربية اكثر من مرة خلال السنوات الخمس الغابرة واتخذ في صدد ذلك قرارات رسمية دون ان يسار في سبيل التنفيذ خطوة حاسمة جادة مع توفر الاعتمادات في خزينة امانة الجامعة .ولعل الاعتبارات الشخصية كانت المعوقة . فعلى الواعين ان يشتدوا في الدعوة الى الجد والمبادرة حتى لا تفوت الفرصة ويتم الانتفاع بها باوسع وابرع واوسع ما يمكن ...

ونريد ان ننبه على امر مهم جداً بمناسبة ما اذيع في صدد بوادر التبدل الاميركي وهو ان الولايات المتحدة قد تعمد الى حمل اليهود على تنفيذ مقررات هيئة الامم كلياً او جزئياً لحل قضية فلسطين على شرط رضاء العرب بمصالحة دولة اليهود وانشاء صلات سياسية واقتصادية معها واندماجها في مجال الشرق العربي . وقد اخذ الكلام في مصالحة العرب مع اليهود يزداد في هذه الاثناء كوسيلة او مقدمة لا بد منها لضمان سد الفراغ الدفاعي في الشرق الادنى . ولقد نبهنا على الخطر العظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي بل والعسكري الذي يهدد بلاد العرب جميعها من الصلح مع اليهود في مناسبة سابقة ، ونعيد القول بان عدم الصلح مع اليهود ليس هو واجباً تمليه العزة القومية فقط بل هو عمل وقائي اصيل بالنسبة للعرب جميعهم حاضراً ومستقبلاً ، وان في الصلح معهم تمكيناً للسرطان الخبيث ونموه وانتشاره الواسع في جميع بلاد العرب ، وان من الواجب القومي المحتم الاصرار الشديد المستمر على رفضه وتفاديه . ومقررات هيئة الامم المتحدة بشأن فلسطين لا صلة لها بعلائق الدول العربية بدولة اليهود وانما هي ملازمة بذاتها . وليس هناك احد يستطيع ان يماري في حرية اي دولة بانشاء صلات سياسية

واقتصادية مع دولة اخرى وعدم انشائها. وهدف العرب القومي الدائم هو زوال دولة اليهود، والصلح معهم هو خيانة لهذا الهدف.

كذلك نريد ان ننبه على امر مهم آخر وهو ان الخير كل الخير للعرب والخطة المثلى للحكومات العربية حتى في حالة جنوح المعسكر الغربي الى حل قضايا العرب حلاً كريماً ان يصروا على ان يكون سد الفراغ الدفاعي في بلادهم منوطاً بهم وحدهم في نطاق معاهدة الدفاع المشترك المعقودة فيما بينهم، وان لا تعدو مساعدة المعسكر الغربي لهم التسليح والتجهيز، وان تكون الغاية هي دفع العدوان من اي ناحية جاء، وان لا يتظاهروا بعداء مسبق قولاً وفعلا او تنظيماً ضد المعسكر الشرقي بدون مبرر ولا استفزاز، ولا مانع من توسيع النطاق ليشمل دول الشرق الاوسط على هذا الاساس فتكون الحركة حركة حياد مسلح، مع استثناء تركية التي اختارت الاندماج في جميع خطط المعسكر الغربي بما في ذلك التظاهر بالعداء المسبق قولاً وفعلا ضد المعسكر الشرقي. ولعل الاقتراح الذي أخذ يتردد في هذه الايام - والكتاب تحت الطبع - بانشاء جيش عربي مشترك كبير العدد من خير الاقتراحات العملية والعاجلة في هذا الصدد على شرط أن تكون قيادته فعالة نافذة وفي يد حرة من كل قيد.

— ٥ —

هذا؛ ونرى المقام يتحمل كلمة عن تركيه بمناسبة اندماجها في تقديم مشروع الدفاع المشترك للعرب وفي خطط المعسكر الغربي نحو الشرق الاوسط خاصة والسياسة الدولية عامة. ونحن نعرف أن مرد اندماج تركية هو خوفها من الخطر الروسي واستهدافها الدفاع عن نفسها وكيانها في الدرجة الاولى ونيل مساعدات المعسكر الغربي المتنوعة. وقد يكون لها العذر لان السياسة لاتعرف عاطفة ولا يجوز أن تسير بالعاطفة بطبيعة الحال.

غير ان هذا العذر لايصح ايراده عن موقف تركيه من العرب وقضاياهم. فقد وقفت من قضية فلسطين في مختلف أدوارها وما تزال تقف موقفاً سلبياً غامضاً

بل واحياناً موقفاً مناوئاً صريحاً دون سائر الدول الآسيويه والأفريقية الأسلامية وغير الاسلامية وبينها من هو متواثق مع المعسكر الغربي أشد التواثق بل بينها من هو عضو في الكومونويلث الانكليزي ؛ وفي حين أن المعسكر الغربي لا يمكن ان يجد في موقف ايجابي تقفه تركيه مع العرب مأخذاً لانها دولة اسلامية شرقية ؛ بل انها لتستطيع تركيه أن تجعل هذا المعسكر راضياً عن موقف مثل هذا بحجة ان من شأنه كسب ثقة العرب واستطاعتها بسبب هذه الثقة القيام بدور هام في الشرق الاوسط يكون فيه التقاء وتقارب بين الدول العربية والمعسكر الغربي ؛ بل نقول أكثر من هذا وهو أن تركيه بما صار لها من مكانة قوية في المعسكر الغربي وحيز واسع في خططه لتستطيع أن تساهم في حل قضايا العرب حلا ملائماً وأن تقنع هذا المعسكر بفائدة ما قد تتقدم به من مقترحات في هذا الصدد .

والتفسير المنطقي لموقف تركية الراهن والحالة هذه هو انها ترى في بقاء قضايا العرب من غير حل مرض ، وفي بقاء شؤون العرب مرتبكة متعثرة ، وفي رسوخ قدم اليهود في قلب بلاد العرب وقوتهم وازدهارهم وغدوهم همّاً مقيماً مقعداً للعرب مصلحة ذاتية اصيلة لها . وانها انما ترسم ذلك في خطواتها وخططها عن قصد وبينة . ولعل ما تقدمه لليهود من تسهيلات متنوعة في بلادها وما تشيد به من آن لآخر بصلاتها الودية مع دولتهم في كل مناسبة من دعائم هذا التفسير ؛ وهذا فضلا عن الجرح الدامي الذي جرحته تركيه لسوريه وللعرب باستغلالها فرصة ضعف سوريه وغدر ولوم فرنسه وانكلتره قبيل الحرب العالمية الاخيرة واقتطاعها لواء اسكندرونه العربي منذ مئات السنين .

ومن الجدير بالذكر ان حكومة حزب الشعب السابقة وحكومة الحزب الديموقراطي الحالية قد اتسقتا في هذا الموقف ؛ لان كل ما سارت عليه الحكومة السابقة سارت عليه الثانية برغم ما يريد أن يراه البعض من تبدل في الاتجاه الاسلامي والشرقي في حكومة الحزب الديموقراطي دون حزب الشعب . واذا

كان هناك شيء جديد فهو أن حكومة الحزب الديموقراطي الآن تصدر تصريحات خلابة في حين أن اعمالها تنقض اقوالها .

ولسنا نريد ان نلقي درساً على تركية . ولكنا لن نمتنع أنفسنا من القول إنها اذا كانت ترى في بقاء قضايا العرب من غير حل مرض وبقاء شؤون العرب مرتبكة متعثرة وفي رسوخ قدم اليهود في قلب بلاد العرب مصلحة لها فنحن نراها متوهمة ومخطئة خطأً كبيراً . وإذا كان ساسة الترك يريدون أن يروا في الحركة العربية الحديثة معنى من معـــاني كراهية العرب للترك ، أو يظنون أن نمو قوة العرب وصلاح أمورهم مخالف لمصلحة دولتهم فهم في اعتقادنا بعيدون عن الصواب بعداً كبيراً أيضاً . فالعرب يحبون الاتراك كشعب شقيق مسلم عاشوا معه الف سنة أو تزيد وكانوا مخلصين لبعضهم كل الاخلاص ؛ ويريدون لهم الآن كل الخير والازدهار والطمأنينة ؛ بل وانهم ليعتزون بقوتهم وازدهارهم لان في ذلك قوة وعلواً للعالم الشرقي والاسلامي . ونحن على ثقة من ان الجمهور التركي يبادل العرب هــــذا الشعور ؛ وما كان من الحركة العربية القومية بعد اعلان الدستور انما كان لاسباب وبواعث لا تمت الى كراهية العرب للترك . ولقد انفصل العرب عن الترك الآن ولم يبق في نفوسهم نحوهم الا شعور الاخوة الدينية الممتزجة بعاطفة الذكريات المديدة المستحبة التي يبادلهم إياها الجمهور التركي فيما نعتقد . فالحكومة التركية والحالة هذه تستطيع أن تكسب من ثقة العرب فيها اذا سايرت مصالحهم وقضاياهم وعملت على حلها أضعاف أضعاف ماتظنه كسباً لمصالحهـــا في موقفها المعاكس في نظر المعسكر الغربي والعالم الشرقي والعالم الاسلامي معاً دون خشية أي شيء من العرب .

ومهما يكن من أمر فمن واجب العرب وحكوماتهم أن لا يفوتهم موقف الحكومة التركية ؛ وأن يقفوا موقف الحذر المتحفظ من مشاريع تركيه وتصريحاتها وخططها الى ان تبدل موقفها معهم تبديلا أساسياً وتثبت بالافعال حسن نيتها نحو قضاياهم ومصالحهم بل وتساهم في حل هذه القضايا مساهمة فعالة وهي قادرة على ذلك .

خاتمة الفصل

لقد كتبنا هذا الفصل ونحن نعرف أن ساسة العرب ووؤساءهم مدركون لحالة العرب ومصالحهم وأهدافهم وما يدور حولهم حتى لايكاد يغيب عنهم من ذلك شيء ؛ ثم ونحن نسمع منهم من حين الي آخر تصريحات طنانة رنانة تنم عن ذلك الادراك ، وتدل علي انهم لايخفى عليهم وجه الصواب فيما يجب أن يقوم بين العرب من اتحاد وتضامن وتساند وتعاون ، وما ينبغي أن يكونوا عليه من استعداد وجد وقوة ونشاط ؛ وكون هذا هو السبيل القويم الوحيد لحل قضايا العرب حلا كريماً وتحقيق غايات العرب القومية من التكامل والتقدم والنمو والازدهار ، بل ونحن نعرف انهم لم يقصروا في عقد الاجتماعات والمداولات واصدار القرارات. غير أن كل ذلك ظل ويظل في حدود الكلام مما مرده في الدرجة الأولى الى الاعتبارات الشخصية والاقليمية والافكار الفردية التي شرحناها في أول الفصل.

ولقد كان من نتائج عدم تأييد الأقوال بالافعال بل ومناقضة الاقوال بالافعال زيادة الهوان على الهوان ، وفقدان الثقة والاحترام والاعتبار ، واستمرار حالة العلاقات بين الدول العربية على ماهي عليه ، وعدم الوصول الى حل اي قضية من القضايا العربية . ولقد آن للذين يقبضون على زمام الدول العربية ان يدركوا الى جانب ادراكهم ذاك ادراكهم هذا أيضاً ، وأن يتقوا الله في أوطانهم وامتهم فيصدقوا في الرغبات والنيات ويؤيدوا الاقوال بالافعال . وهذا مايجب أن تشتد الدعوة اليه بكل وسيلة وفي كل موقف ومناسبة .

مشتمل الكتاب

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٦	١٨	ان كان كان السلطان	ان كان السلطان
٥٩	٨	يبيال	يبنيان
٧٧	٢٤	يكل	يكن
١٥١	١٨	المستعرص	المستعرض
١٥٥	٢١	التشاريع حققت	التشاريع وحققت
١٥٦	١١	يتضامن أفراد	يتضامن فيها أفراد
١٥٨	١٧	القادرة	الغادرة
١٨٦	١٦	المرحلة وتاريخ	المرحلة من تاريخ
١٨٩	١٢	دل	قال
٢١١	١٧	الواجهة	الواجبة
٢١٦	٢٢	هذه المرة	الجملة لامحل لها
٢١٧	٢٢	العربية	الغربية
٢١٨	٨	التكرار كل	التكرار على كل
٢١٨	١٩	البنوية	البنيوية
٢٢٢	١٩	وحلتها	وحالتها
٢٣٠	٢٠	اليادرة	البادرة
٢٣٩	٢٠	بقيا	قيام
٢٤٣	٣	أسداد	اسداء
٢٤٤	٧	المضا	أيضاً
٢٤٧	٢٣	مضار	مضمار
٢٤٩	١٩	مؤدبا	مؤديا
٢٥٤	٤	معدومون	معدمون
٢٥٥	٣	الكامح	الكالح
٢٥٦	١٩	التساهل	من التساهل

كتب المؤلف الاخرى

١ — المطبوعة

دروس في فن التربية مترجم عن اللغة الافرنسية
مختصر تاريخ العرب والاسلام جزآن
دروس التاريخ العربي
دروس التاريخ القديم
دروس التاريخ المتوسط والحديث
تركيه الحديثة
موجز تاريخ حلول اوروبا في الشرق الادنى مترجم عن اللغة التركية والافرنسية .
عصر النبي عليه السلام وبيئتـــه من القرآن
سيرة الرسول عليه السلام جزآن 〃 〃
القرآن واليهود
القرآن والمرأة
القرآن والضمان الاجتماعي
القومية العربية
حول الحركة العربية الحديثة ستة أجزاء

٢ — غير المطبوعة

القرآن المجيد وحيه وجمعه وتدوينه ومناهج تفسيره وسائر مسائله
نظم القرآن ودستوره في شؤون الحياة
التفسير الحديث وهو تفسير كامل للقرآن
تاريخ الجنس العربي في مختلف الادوار والاطوار والاقطار .

BACK

